روايات الهلال

الشقيقتان

أ. ج. كرونن





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٣٧٤ ـ فبراير ١٩٨٠ ـ ربيع الاول ١٤٠٠
No. 374 — Février 1980

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : الدكتور حسين مؤنس
سكرتير التحرير : موسى عبد

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ـ ١٢ عددا ـ في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادي . وبلاد اتحادي البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصري بالبريد الجوى . وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقي بلاد العالم بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور في البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

بسعر ٢٠ قرشا للقارىء في مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٢٥٠ فلسا«ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلسا عراقيا »
السعودية ٤٫٥ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب القاهرة .
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة
ناصر محمــــد تركي

الشقيقتان

بقلم

ا . ج . كرونن

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

دار الهلال

مقدمة

ولد ارشيبالد جوزيف كرونن ، مؤلف هـــذه الرواية فى مدينــة ليفنفورد باسكتلندا ، واشتغل طبيبا فى احدى المنــاطق الصـــناعية ببلاد الغال ثم مفتشا بالمناجم في سنة ١٩٢٤ ، وفى سنة ١٩٢٥ قدم بحثا فى الاورام الشريانية كان له أكبر الاثر فى الاوساط الطبية .

واستقر به المقام بعد ذلك فى لندن حيث افتتح عيادة خاصة اصاب فيها شهرة كبيرة ولكنه اضطر ان يتخلى عنها بسبب الارهــاق وشرع فى كتابة الروايات والقصص لكى يقضى وقته . وما ان ظهرت روايته الاولى « صـــانع القبعـــات » حتى نالت رواجا منقطـــع النظـــير وكذلك روايته الثانية « القلعة » . وقد ضمن الجزء الاكبر منها سيرة حياته . ثم كتب بعد ذلك مفاتيح المملكة والســـنوات الخضر ومصير روبيرت شانون وتحت بصر النجوم وسيف العدالة وســـنوات الوهم والجبل المسحور وغيرها .

وكرونن مؤلف شعبى نال شهرة واسعة فى العـــالم أجمــع وهو يقضى وقته بين الكتابة والترحال ، وقد أصـــــدر حتى اليوم أكثر من عشرين رواية ترجمت كلها الى أكثر لغات العالم .

الجزء الأول

الفصل الأول

كانت الساعة تقترب من السادسة والدنيا لا تزال مظلمة حالكة الظلام في ذلك الصباح البارد من أيام الشتاء ، والصمت التام يسود الغرفة الصغيرة المعدة للمصابين بالأمراض المعدية بمستشفى شيريهام ، ولا يقطعه غير التنفس المتقطع لطفل راقد في فراش صغير في خيمة أقيمت في آخر الغرفة .

وكانت تجلس بجواره ممرضة شابة تدعى آن لي ، تغالب تعب وارهاق سهر ليلة طويلة ، وتبذل كل اهتمامها للطفل ، ولا تفارقه بعينيها لحظة واحدة ، وعلى الورقة المعلقة فوق فراش الطفل ، وهو وليد في الثانية من عمره ، كانت العين تتبين خلال الظلام هاتين الكلمتين « دفتريا بالحنجرة » وهو مرض خطير ، وقد جاءت به بالأمس عربة اسعاف ، ولولا العملية الجراحية التي أجريت له في القصبة الهوائية لكان الآن في عداد الموتى . وقد عاونت آن لي بنفسها الدكتور هاسال في اجراء هذه العملية . والآن ، وبفضل الأنبوبة الفضية التي تخرج من الضمادات التي حول عنق الطفل ، وبفضل المصل المضاد للدفتريا الذي حقن به تجاوز الوليد الخطر ، وخرج في بطء من الهاوية التي أوشك الموت أن يجره اليها .

وأحست آن لي بغريزتها بان اللحظة قد أزفت فنهضت في سكون وانحنت فوق الطفل ، وأخرجت الأنبوبة الزجاجية من غلافها الفضي ونظفتها بسرعة وأعادتها مكانها في أقل من ثانية . وسرعان ما أحس المريض الصغير بالراحة وانتظم تنفسه ، ثم اطفأت نار السبرتاية تحت الغلاية التي تنبعث منها نفثات ملتفة من الدخان في خيمة الفراش الصغير ، ثم ألقت نظرة الى ساعتها وملأت الحقنة الموضوعة فوق الطاولة بجوار الفراش وحقنت الطفل في ساقه ثلاث مرات كما هو مقرر ، وانتفض الطفل انتفاضة خفيفة تكاد لا تلحظ ثم عاد الى هدوئه .

وعادت الممرضة الى مقعدها الخشبي وهي متوترة بعض الشيء . وعلى الرغم مما تشعر به من تعب شديد فان احساسها بأن مريضها الصغير تجاوز مرحلة الخطر غمرها بفرح كبير وعميق . أفليس هو سبب حياتها وأمنيتها وغرضها من الحياة بالذات ؟ ووضعت يدها على

خدها فبدت تحت الضوء الخـــــافت المنبعث من المصباح المحجب صغيرة جدا لكي تكون ممرضة على مثل هذا القــــــدر من القدرة والحنكة ، والواقع انها كانت لا تزال في الرابعة والعشرين من عمرها ، غير أنها كانت قد حصلت منذ عهد غير بعيد على دبلوم التمريض بعد ثلاث سنوات من المذاكرة والتمرين في مستشفى شيريهام .

كانت هيفاء طويلة القـــــامة ذات يدين جميلتين رقيقتين ووجه جذاب ، حساس تكسبه رقة شـــفتيها وومضة عينيها الواسعتين ووجهها الصارم حلاوة وعذوبة كبيرتين ، يلائمها زيها الأزرق والأبيض النظيف كل الملاءمة . وكانت ، في ثباتهـا نفسه ، مثال الاهتمام والارتخاء التام .

وكانت الساعة قد بلغت السادسة الآن ، ولن تلبث أن تأتي ممرضة أخرى لتعفيها من عملهـا وتأخذ مكانها . وارتسمت على شـفتي آن ابتسامة كلها رقة وحنان وهي تفكر ان الممرضة التي ستاتي الآن وتحل محلها هي أختها لوسي بالذات . كانت تعبدها ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تكبرها الا بثمانية عشر شـــــهرا الا انها تحبها حبا أمويا ، ولعل ذلك كان راجعا الى انهما أصبحتا يتيمتين وهما صغيرتان جدا ، وبطريقة شديدة القسوة ، فقد كان أبوهما رئيسا للعمال في منجم للفحم بنورثمبرلاند ولقى حتفه داخل المنجم ولم تستطع امهما احتمال الصـــدمة فلحقت به بعد أيام معدودة . وكان ان اضطرت اليتيمتان ازاء هذه المأساة الى اكتساب قوتهما وهما في سن صغيرة ، وكانت آن تحلم منذ وقت طويل في أن تصبح ممرضة ، وبعد بضعة شهور افلحت في اقناع أختهـــا لـكي تأتي وتنضم اليها في مستشفى شيريهام .

وكانت الســـاعة قد بلغت السادسة وعشر دقائق عنـدما ظهرت لوسي . ولم تكن ادارة المستشفى تسمح باقل تأخير ، ولكن لم يبد على وجه آن اى لوم أو عتاب وانما استقبلت اختها بابتسامة عريضة ومددت يديها المتوترتين لتكسبهما شيئا من الليونة ، وذكرت أختها في صوت خافت بالتعليمات الخاصة . بسجل الحضور ، ولم تكن هناك حالات خطرة بغرفة المصابين بالأمراض المعدية . شابان في دور النقاهة من دفتريا خفيفة ، وكل الاهتمام وكل العناية يجب تركيزهما على الطفل المريض .

وقالت آن وهي تشير بذقنها الى الفراش الصغير : لا تهتمي باى شيء آخر في هذه الغرفة يا لوسي ، واقصرى اهتمـــامك كله على

الطفل . اجلسي على هذا المقعد ولا تتحركي منه حتى تأتي مس هول وتقوم بدوريتها في الساعة الثامنة .

أومأت لوسي برأسها ايماءة صغيرة ، وجلست مكان اختها مقطبة الوجه ومتعبة ، كما لو كانت تعتبر توصيات آن غير ضرورية .

وبقيت آن لحظة اخرى تحاول أن تنفخ في أختها الاهتمام الكبير الذي توليه لهذه الحالة بالذات ، وقالت لها :

ـ المهم هي الأغشية ... ان المصل بدأ يلينها ، ولكنها تسد الانبوبة أحيانا ، وهذا ما يجب أن توليه اهتمامك .

قالت لوسي في خشونة لكي تظهر لأختها ان توضيحاتها لا ضرورة لها : انني أعرف فقد حضرت مثلك محاضرات ذلك العجوز المتخلف الدكتور هاسال .

لم تنطق آن ، فطالما جرحتها لوسي بطريقتها الخشنة في الرد عليها ، زد على ذلك انها تكون حادة المزاج دائما في الصباح . وانحنت آن مرة اخرى فوق الطفل الغائب عن الوعي ثم ودعت اختها وخرجت ، واخذت قبعتها المعلقة في الممر ودفعت الباب .

كان فناء المستشفى لا يزال غارقا في الظلام ، وبضع نجوم تبعث بريقها الخافت في السماء . ولفحتها ريح باردة ، ولكنها تلقتها بوجهها في نهم . كانت تقف دائما على باب المستشفى بعد ليلة سهر ، مهما كانت حرارة الجو وتستنشق هواء الصباح الباكر المشبع بالبرودة الصحية . وخلفها مبنى المستشفى القائم وعند قدميها مدينة شيربهام وهي لا تزال تهجع ، بآبارها ومناجمها واسطولها الصغير من مراكب الصيد ... احدى هذه المدن الصغيرة الكئيبة الموحشة بشمال انجلترا . ومع ذلك فقد كانت آن متعلقة جدا بها لأنها مهد أسرتها ، فقد ولدت فيها وقضت فيها طفولة سعيدة مع أهلها في بيتهما الصغير ببولتون رو . فيها تلقت هي ولوسي دروسهما في الكلية العالية التي تشرف على الميناء ، وفيها بدأت مهنتها كممرضة ، وكانت تلك السنوات الثلاث التي قضتها في المستشفى من أجمل سني حياتها . كانت المستشفى فقيرة تفتقر الى المعدات والأجهزة الحديثة ولكن مدرسة المرضات الملحقة بها كانت تتمتع بسمعة كبيرة ، وكانت مس لينارد ، رئيسة المرضات ذات أفق واسع وقلب كريم . نعم ، ان سنوات التمرين التي قضتها آن مرت كالبرق .

ولكن آن كانت ترى أبعد من هذا ، فان شيربهام ، رغم كل ما يربطها

بها لم تكن الا مدينة صغيرة مجهولة . وكانت لآن اطمـــاع لهـــا ولاختها لوسي ، فبعد شهر تتم هذه الاخيرة فترة تمرينها وتحصل على دبلومها ، وسترحلان عنـدئذ للعمل باحـدى مستشفيات المدن الكبيرة . ومن يدري ، لعلهما ترحلان لغزو العالم . ولم تستطع آن عند هذه الفكرة من أن تمنع ابتسامة سعيدة .

وبدات تسير في طريقها الى مبنى المرضات عندما سمعت صيحة سمرتها في مكانها ، ورات في الفناء المعتم شخصا يجري نحوها .

الفصل الثاني

ما ان خرجت آن حتى حاولت لوسي ان تجلس في ارتياح ، ولكن المقعد كان خشنا ، ولم تكن قد صحت تماما . وحاولت ان تشغل نفسها ولكن عبثا فان وجهها الصغير الرقيق ازداد عبوسا . كانت تكره الصحو مبكرة وتكره ان تبدأ عملها في الصباح الباكر في غرفة ما تزال معتمة . كان اسوأ شيء في مهنتها هو مغادرة فراشها الدافيء في اوقات غير انسانية . زد على ذلك انها كانت تكره ان تبدأ عملها اليومي دون ان تجد وقتا لتناول فنجان من الشاي .

كانت تحرص على تناول فنجانها الاول من الشاي في الصباح ، فقد كان ينشطها ويعدل مزاجها ، وكلما فكرت فيه كلما ازداد مزاجها السييء .

كانت صغيرة القامة ممتلئة الجسم لا تكترث بشيء ، حادة العينين وجريئة تلبس قبعتها بدلال وتحرص على أن تدع بضع خصلات شقراء تتجاوزها . كانت وهي معتـــدلة المزاج تبدو فرحة مملوءة حيوية وسرورا ، ولكنها في ذلك الصباح ، وهي ترى القدر يقسو عليها علت وجهها الرقيق تكشيرة متجهمة .

كانت تغلي داخليا وتكثر من الحركة فوق مقعدها . واخيرا لم يسعها أن تحتمل أكثر من ذلك . والحق ان آن اصبحت عانسا تثير الضجر ، ومستبدة الى جانب ذلك . بأي حق تصدر اليها هـذه الاوامر ؟ ان هذا الطفل حالته على ما يرام . ومدت لوسي يدها على مضض واخذت بين اصابعها قبضة الوليد الهشة . كان النبض مدهشا ... كان سريعا بعض الشيء طبعا ، ولـكنه لم يكن ضعيفا ابدا ... ثم ان الامر لن ياخذ منها الا دقيقة واحدة ، ولابد لها ... نعم ، لابد لها من فنجان الشاي .

ونهضت وسارت متسللة على خفيهـا الى غرفة الخدمة الملحقة بالقاعة . كان كل شيء فيها مرتبا ومنظما وفي متناول اليد ، فقد كانت آن تحب النظام والنظافة الى حد الهوس . وفي لمح البصر كانت الغلاية فوق موقد النار وكسرة من الخبز فوق شبكة الفرن . وجرى ريق لوسي وهي تستمتع مسبقا .

ولـكن الطفل ، في فراشه ، لم يكن سعيدا أبدا ، فبعد ان فارقته لوسي تسارعت أنفاسه لحظة وهو راقد على ظهره ، في حين كانت تتصاعد نفثات ملتفة من الدخان وتحوم فوق وجهه الصغير الشاحب . وخرجت قبضته الصغيرة من تحت الأغطية ، وكانت متشنجة كما لو كان يصارع عدوا خفيا .

ولـكن تغييرا فجائيا طرأ على حالته ، فقد فقـد تنفسه ايقاعه المنتظم وأصبح مبحوحا وذا صفير وتبدل الى نوع من القرقرة في حين ظهرت قطعة خضراء من الغشاء الزائف من حلقـه وسـدت فتحة الأنبوبة الزجاجية. وظلت ملتصقة به وأنفاس الطفل العسيرة تمصها وتطردها في نفس الوقت . كانت تدور في ذلك الفراش ، في تلك القاعة المظلمة ماساة تثير الشفقة ، فقد كان المريض الصغير يحاول بكل قواه الواهنة أن يطرد هذا الغشاء الذي يمنعه من التنفس . وضغط قبضتيه الصغيرتين كل منهما بالأخرى وأصبح وجهه الصغير المسكين بلون الرماد وراحت سـاقاه تهتزان في وهن وازداد تنفسه تعسرا وتشنجا . وامتقع وجهه وضاق صـدره وهو يحاول يائسا ابتلاع قليل من الهواء . ولكن مثل هذا الـكفاح ، ومثل هذا الجهـد لا يمكن أن يستمرا طويلا : تشنج أخـير وبحة أخـيرة ثم انتهى كل شيء . وتفتحت القبضـة الصغيرة كما لو كانت وردة من اللحم ، وانفك كل اصبع من اصابعه في بطء كالبتلات تحت اشعة الشمس ثم كف الطفل عن الحركة وذراعاه ممدودتان في شيء من التوسل .

وعادت لوسي الى القاعة في هذه اللحظة وقد انعشها فنجان الشاي الساخن ، واعتدل مزاجها بفضل قطعتي التوست المزودتين بالزبدة . واقتربت من فراش الطفـل ، وما ان رأت المريض الصـغير حتى توترت . . . وفجاة أدركت كل شيء ، واتسعت عيناها رعبا وارتفعت صيحة ذعر الى شفتيها وماتت عندهما . وفقدت رأسها نهائيا ، وبدلا من أن تنظف الأنبوبة وأن تفعل كل شيء لتعيد التنفس لوت يديها في يأس واندفعت خارج الغرفة ونادت أختها يائسة .

الفصل الثالث

بعد ذلك بثلاث دقائق كانت آن منحنية من جديد فوق الفراش الصغير ، تقيس بنظرة واحدة الموقف المفجع وتتولى الأمر بين يديها . وبدأت بأن سحبت من حلق الطفل الانبوبة المسدودة التي لم يعد لها جدوى ثم استخدمت ملقاطين وأبعدت الأغطية عن انبوبة التنفس وتخلصت من أطراف الأغشية التى تسدها وراحت بجهد المستميت تمارس التنفس الاصطناعي ، وقالت لأختها في صوت أصم متوتر :
ـ أعدي لي حقنتين ... واحدة بالاستركنين والأخرى بسنتى مكعب من زيت الكافور ، واعطني الأثير .
أطاعتها لوسي وفتحت دولاب الصيدلة بيدين مرتعشتين وملأت الحقنتين وناولتهما لآن ، وحقنت هذه الأخيرة الطفل بالحقنتين الواحدة بعد الأخرى ثم راحت تزاول عملية التنفس الاصطناعي من جديد ، وقد تألق وجهها بالعرق وبدت على شفتيها المزرقتين ارادة شرسة وازدادت عنادا واصرارا وهي تأمل على الرغم من انه لم يعد هناك اى أمل وتفعل المستحيل ، ولكنها كانت تعلم في قرارة نفسها بأن آمالها ومحاولاتها كانت عبثا . وعادت تقول في نفس الصوت المتوتر الاصم : استدعي مس لينارد .
واذ سمعت لوسي هذه الكلمات الرهيبة ارتجفت ، ولكنها أطاعت أختها على مضض .
وما هي الا لحظة حتى امتلأت الغرفة بالناس ، فقد أسرعت مس لينارد ، رئيسة الممرضات ، وهى بثوبها المنزلى ومس هول المشرفة ، وممرضتان هما مس جريج ومس جنكينز وأخيرا الدكتور هاسال بنفسه . وحاول الجميع المستحيل ، ووقفت آن ، معتدلة القامة بجوار الفراش الصغير تنظر اليهم دون أن تنطق بكلمة وبجوارها لوسي عاقدة يديها في تشنج .
وأخيرا ، وبعد مدة طويلة اعتدلت رئيسة الممرضات ، وهي امرأة رقيقة الجسم ، شعرها أبيض كالثلج لم تجد الوقت لكى تمشطه ، ونظرت الى آن في صرامة وسألتها في لهجة حادة تنطق بالاتهام :
ـ كيف حدث هذا ؟ .
ساد صمت قصير قطعته آن أخيرا قائلة : لقد انسدت الانبوبة ، وقد بذلنا كل جهدنا .

وسألها الدكتور هاسال في قسوة : وكيف تركت الانبوبة حتى انسدت ؟ .

خيم على الغرفة صمت اشد وطأة . واعاد الدكتور هاسال الغطاء فوق وجه الطفل الميت في حركة مثيرة للحزن . وكانت مس جريج قد اختفت من القاعة ، وهي امرأة بغيضة من عادتها التدخل في شئون الآخرين ، وابدت دائما شيئا من العداء نحو آن . وعادت الى الغرفة مسرعة وقالت بلهجة لها مغزاها .

ـ مس لينارد ، انني اكتشفت الآن شيئا ، لقد أعد بعضهم فنجانا من الشاى منذ لحظات في غرفة الخدمة .

تحولت كل الانظار الى آن ، واستطاعت رئيسة الممرضات السيطرة على شعورها وقالت في صوت هادىء : احقا اعددت فنجانا من الشاى في حين انه كان يجب الا تتركي الطفل مهما كان السبب ؟ .

بذلت آن كل جهدها لكي تحتمل النظرة الباردة التي رمتها بها رئيستها . انها اذا قالت الحقيقة فكأنها تتهم لوسي ، وقالت متلعثمة في محاولة يائسة لتغطية اختها : انني ...

وجاء سؤال آخر ، قاس ، حافل بالاتهام : في اية ساعة انسدت الانبوبة ؟ .

كان هذا السؤال اكثر خطورة من سابقه ، واذا اجابت عليه فانها تعرض مستقبل لوسي للشبهة الى الابد . وادركت آن ذلك في لمحة خاطفة ، ولم تكن لوسي قد حصلت على دبلومها بعد ، وبعد خطأ خطير كهذا لن تحصل عليه ابدا ، ومعنى هذا ضياع كل الآمال المعقودة . وفي قلب آن تغلب الحب الاخوى وغريزة الحماية على كل شيء آخر ، واملياها قرارها ، فكذبت عامدة مدفوعة بحبها لاختها ، وتحملت الخطأ وحدها اذ قالت في صوت اصم :

ـ احسست بالتعب في الساعة السادسة الا خمس دقائق ، وكنت مقتنعة ان المريض الصغير على ما يرام ، وانني استطيع التغيب لحظة دون ما ضرر فذهبت واعددت لنفسي فنجانا من الشاى ، وجاءت لوسي لتبدأ عملها واستدعتني وادركت ما حدث على الفور ، واعطينا للطفل العناية الضرورية اللازمة .

ونظرت الى الساعة المعلقة لصق الحائط ثم اردفت تقول وهي تواجه النظرة الصارمة التي بدت في عيني كبيرة الممرضات :

ـ وقد حاولنا كل شيء ... حقن وتنفس صناعي ، وذلك طوال ثلاثة ارباع الساعة . ولكن عبثا .

نظرت مس جريج اليها فى استنكار فى حين أطلق الدكتور هاسال صيحة تدل على استيائه وازدرائه ثم ساد صمت ثقيل . وكانت آن تقف معتدلة بجوار الفراش الصغير بينما وقفت لوسى مكانها جامدة لا تستطيع النطق بكلمة .

وقالت مس لينارد أخيرا ، تخاطب آن ، فى صوت جاف : اذهبى الى غرفتك . سوف نهتم بك فيما بعد .

الفصل الرابع

مضت الساعات بمشقة وعناء كبيرين بالنسبة لآن ، وهى وحدها في غرفتها . وهي غرفة صغيرة ضيقة فى آخر الردهة ببيت الممرضات. وعلى الرغم من ان الغرفة كانت بسيطة جدا تكاد تكون صارمة الا انها كانت مريحة ومرتبة تماما . منذ ثلاث سنوات وهذه الغرفة بمثابة بيت لها ، ففيها كانت تاتي لكي تستريح بعد عناء يوم عمل شاق ، وفيها كانت تصحو فى الفجر لمواجهة مهنتها اليومية ، وفيها جمعت كنوزها المتواضعة : صورة لوالديها واخرى للوسى وثالثة لزميلاتها فى المدرسة التقطت لهن أثناء الدراسة ، وحلية لطاولة الزينة ورثتهـا عن أمهـا . ولكن بدت لها هـذه الغرفة غريبة فجـأة ... أفتراها انفصلت عنها الآن ؟.. لقد وقعت لها كارثة بغتة وبطريقة غير متوقعة ازالت السحر الذى كان يربطها بهذه الزنزانة المتواضعة .

هل هذا ممكن ؟ أذهلتها الصدمة ولم تعد تدرى ماذا تفعل . كانت أذناها قد اعتادتا على تسجيل الاصوات المالوفة للروتين اليومي ، ولكن لم يات احد في ذلك الصباح ليقطع عليها وحدتها .

ومع ذلك فقد سمعت فى الساعة الثالثة طرقة على الباب فقفز قلبها في صدرها واستدارت فجأة موزعة بين الامل والخوف . أتكون مس لينارد هي القادمة ؟ ... كلا . بل دخلت مس جنكينز عابسة الوجه وفي يديها صينية عليها بعض الشطائر ونظرت الى آن خلسة ثم قالت فى صوت تشوبه طيبة خشنة :

ــ ان ما أفعله الآن ممنوع واظنك تعرفين ذلك ، فانهم لو ضبطونى لن يكتفوا بتوجيه اللوم الى . ولكنني لم أستطع احتمال فكرة أن تموتى من الجوع .

ــ أشكرك يا مس . اشكرك جدا ، ولكنني لن استطيع ان آكل شيئا .

ـ لا تكوني حمقاء . يجب أن تأكلي مهما يكن ، فستحتاجين الى كل قواك لمواجهة ما ينتظرك .

ورمتها بنظرة حاولت أن تكون صارمة فلم يسع آن الا أن تقضم الشطائر وتحتسي فنجان الكاكاو الذى اعدته لها المرأة العجوز التى جلست على حافة الفراش وراحت تنظر اليها وهي تأكل وقد ضمت شفتيها . كانت مثلا حيا للمرضـــــات اللاتي لا يبتسم الحظ لهن ولا يخرجن عن كادر الممرضات الحقير ، فقد بلغت الستين من عمرها وظلت تعني بالمرضى منـــذ اكثر من اربعين سنة دون أن تدخر شيئا للشيخوخة ، بيد انها كانت رغم ذلك تضم قلبا طيبا كريما ، وكانت تكن لآن مودة حقيقيـــة ، ولـكنها كانت تؤثر الموت عن ان تنكشف عواطفها هذه . وقالت في لهجة جادة :

ـ يمكن القول انك وقعت في ورطة كبيرة وتـسببت في فضيحة . ان المستشفى كلها لا تتكلم الا عن هذا . ومس جريج تنتقل الى كل مكان وتقول ان ما حدث لا يدهشها لما هو معروف عنك من خبث واهمال .

قالت آن في مرارة : ان مس جريج لا تحبني .

قالت مس جنكنز : اما أنا ففي صفك وأقول لهم ان ما من احد منا معصوم من الخطأ .

لم تنطق آن . ودت لو أن امرأة أخرى غير هذه المرأة الباسلة الفاضلة تدافع عنها . وسألتها تقول اخيرا : اين لوسي ؟ .

ـ انها في الخدمة ، وهي لا تقول شيئا كثيرا .

وساد صمت آخر قطعته آن اخيرا بأن قالت في صوت مرهق : ماذا ترين انهم فاعلون بي ؟ .

هزت مس جنكنز رأسها هزة لها معناها وقالت : سوف تعرفين ذلك قريبا فان اللجنة ستجتمع في الساعة الخامسة اجتماعا غير عادي .

ومرة اخرى لم تنطق آن . وفي طفرة مفاجئة من الطيبة انحنت المرأة العجوز فوقها وربتت على كتفها واضاء وجهها تعبير انساني رقيق وقالت :

ـ لا تشغلي بالك يا صغيرتي فان اقصى ما يمكن أن يفعلوه هو ان يطردوك ، وصدقيني ان هذا خير ما يمكن أن يقع لك ، وما دمت قد أتيتك فاليك رأيي ومعه نصيحة : انني لا أعرف في العالم أسوأ من مهنة التمريض ، ومن الخير لك أن تهجريهـــا . انني أتكلم عن

تجربة ، فقد أفنيت فيها عمري ... سنة بعد سنة ... ولم أجن شيئا ، ولم أفلح في ادخار اقل القليل ، واذا لم اعد استطيع العمل او اذا منعني مرض الروماتيزم الذي اشكو منه من العمل فسوف ينبذونني نبذ الكلاب دون أن يمنحوني اي معاش، وسيكون مآلي ملجأ العجزة ، ونحن ملايين في نفس هذه الحـــالة ، وهذا أمر مخجل وفاضح . وأنت تعرفين انني على حق فانت قد قضيت في هذه المهنة ثلاث سنوات ... انها استعباد حقيقي ! ... فكري في كل الارضيات التي مسحتها وانت تحت التمرين ، وكل الآنية التي نظفتها وكل المباول التي أفرغتها . فـكري في النظـام الذي تخضعين له وفي الممنوعات ... ممنوع التأخر في العودة عند المساء وممنوع استقبال الأصدقاء في غرفنا الصغيرة الحقيرة وممنوع استعمال العطور والتدخين وتموج الشعر .. ان هذا ليثير الجنون .

وأردفت مس جنكنز تقول في صوت يقطر مرارة وحسرة : والمرضى ! انهم لا يشكرون ولا يحمـــدون . عندما افكر في كلّ العجائز اللاتي اضطررت الي تدليـــكهن بالـكحول اود لو ان القى بدلو من الماء في وجوههن . كلا . صدقيني . ما هذه بحياة ! ان جريمتك انك اهملت وانك ارتكبت غلطة خطيرة . ولكنى أقول لك ان هذا خير ما يمكن ان يقع لك . اخرجى من هذا الجحيم يا صغيرتى ولا تعودى اليه باى ثمن . انك فتاة جميلة ، فتزوجى اذن من هذا الشاب الشهم الذى يدور حولك. . امنى جو شاند . تزوجيه وانجبى أولادا وابذلى عنايتك لهم ، وصدقينى ، أن هذا كلّ ما تصبو اليه امرأة . آه ، لو تعرفين الى اي حد يأكلنى الندم .

وسكتت المرأة العجوز وقد انهكها هذا الانفجار ، ولعلها احست بالخجل شيئا ما لانها كشفت عن مكنون قلبها . ونظرت آن اليها في صمت خطير وانستها حاجتها الى التعبير مما يجيش بها موقفها المؤلم لحظة ، واجابت أخيرا كما لو كانت تحدث نفسها .

اعرف ان ما تقولين حق ، على الاقل في شقه الاكبر . ولـكنني احب مهنتي ، فهي مهنة مثيرة تستحق أن يكرس الانسان نفسه لها .. اعرف اننا نحن معشر الممرضات نتناول أقل الاجور ، ونعامل اسوأ معاملة ، ولـكن كل ذلك يمكن ان يتغير . لو اننا اتحـــدنا وكافحنا معا جميعا فقد نستطيع الحصول على أوضاع احسن ، والوصول الي هذا هو امنية من اكبر امنياتى ، ولكن حتى اذا اضطررنا للعمل في

شروط احقر فسأظل افخـر بانني ممرضة وسأظل اكرس حياتي للبشرية المتألمة .

وسكتت آن فجأة وقد اضطرم وجهها وتملكها الجزع ، كل الجزع ، أفهل يحق لها أن تتكلم هكذا ؟ .. وان تتكلم بكل هذا الاحساس عن مهنتها وهي في موقفها هذا ؟ .

والواقع ان مس جنكنز رمتها بنظرة كلها دهشة وتنفست في شيء من التقزز وهي تنهض وقالت :

ــ ان نظرياتك جميلة جدا يا عزيزتي ، ولكنني ارى انك لا تطبقينها عمليا . خذي بنصيحتي يا ابنتي وانتهزي الفرصة التي عرضت عليك واستردي حريتك .

واخذت الصينية واستطردت تقول : هل فرغت ؟ الا تريدين ان تأكلي شيئا آخر ؟ حسنا . انني ذاهبة اذن ، فيجب ان اعود الى عملي في الساعة الرابعة ، فلا راحة هنـــاك لعبيد الواجب . وارجو الا تقسو اللجنة عليك كثيرا .

وبعد ان اومات مارتا جنكنز براسها ايمـــاءة خفيفة خرجت من الغرفة ، وبقيت آن وحدها مع افكارها . وازداد احساسها بزيف موقفها . ولا ريب ان مارتا تعتبرها الآن منافقة ، ولكن قرارها كان ثابتا فهي قد تحملت غلطة ارتكبتها اخرى ، ومهمـــا تكن العواقب فسوف تحمي لوسي حتى النهاية .

وفي منتصف الساعة السادسة استدعتها رئيسة الممرضات ، وكانت تنتظر هذا الاستدعاء في فروغ صبر وتخشاه في نفس الوقت . وبلغت الإهانة مداها اذ جاءها الاستدعاء على لسان مس جريج ، واذا كانت هذه الأخيرة لم تعلق بأي شيء فان اللهجة التي ادلت رسالتها بها لم تخل من تهديد ووعيد كبيرين . واجتازت آن الفنـــاء والدم يغلي في عروقهـــا ، وعبرت الممر المؤدي الى مبنى الادارة ودخلت مكتب رئيسة الممرضات .

كانت مس لينارد جالسة ، امام مكتبها في حين جلس امام منضدة كبيرة بجوار النافذة أربعة أعضاء من اللجنة هم آموس جرين ، مندوب عمال المناجم ومستر ويلدربي ، رئيس الخـــدمات الداخلية ، وسام ستابلس ، موثق العقود والمحترم دافيد برنيرز . وعندما دخلت نظر الرجال اليها نظرة فاحصة . وكان الدكتور هاسال يقف خلف رئيسة الممرضات يتظاهر بانه مستغرق في دراسة ملف بين يديه ، ولم يرفع عينيه اليها . وادركت ان اللجنـــة كانت مجتمعة قبل ذلك بوقت

طويل ، وعلى الرغم من كل شجاعتها أحست بأن قلبها يكاد يتوقف عن الحركة. وزاد في آلامها ان رئيسة الممرضات لم تدعها الى الجلوس.
وخيم على القاعة صمت عميق قطعته رئيسة الممرضات بأن قالت :
ـ اننا فرغنا الآن من بحث حالتك يا مس لي ، وهي مهمة شاقة جدا وأراني مضطرة الى ان اسألك أمام السادة أعضاء اللجنة اذا كان لديك ما تقولينه دفاعا عن نفسك ؟ .
ارتجفت آن ، فماذا يمكنها أن تقول دون أن تجـــرم لوسي ، وتلعثمت قائلة : ليس لدى ما اقول .
صاح آموس جرين : ليس لديك ما تقولين ؟ .. يا الهي ! انك ارتكبت اذن أمرا شنيعا دون أية ظروف مخففة .
نظرت آن بقلب واجف الى آموس جرين الضخم الواسع النفوذ . كان صديقا لأبيها ، وكان يأتيهـا أحيانا بالجلوس وهى صغيرة : وسألها المحترم بيرين في رفق :
ـ هل نفهم من هذا أن اللوم يقع عليك تماما ؟ .
عجزت آن عن النطق بكلمة واحـدة واكتفت بأن هزت رأسـها ، وتبادل أعضاء اللجنة الحـديث لحظـات ثم قال مستر ويلدبى أخيرا : لا داعى لاطالة هذه الجلسة .
وتحول الى مس لينارد ، وبللت رئيسة الممرضات شفتيها الجافتين، فان موت الطفل أصابها بصـدمة كبيرة ، ومثول آن أمام اللجنة كان محنة كبيرة لها هى الاخرى ، وعلى الرغم من عزمها على أن تكون موجزة وعادية فانها لم تستطع أن تخفى مشاعرها وهى تقول :
ـ مس لى ، لا استطيع أن اقول لك الى أى حد أثر فى هـذا الأمر .. أن ترتكب احدى ممرضاتى ، وأنت على الخصوص مثل هذا الخطأ المهنى الفظيع ...
وخانها صوتها باشارة تدل على العجز ، وكان الدكتور هاسال واقفا بجوار النافذة فالتفت عندئذ وقال :
ـ انني افهم أن يخونك القـــول يا مس لينارد لان هذه حالة شائنة .
وأردف يقول مخاطبا آن : انك تسببت باهمالك الاجرامي الذى لا يغتفر فى موت طفل وتقفين هكذا صـــامتة ، متوترة كقطعة من الخشب . لعلك كنت تتغيرين لو انك اضطررت مثلى الى ابلاغ الأم بموت ولدها . ويحك ، أليس هناك ما تقولين دفاعا عن نفسك ؟ .
أحست آن ، أمام نظرة الاتهام التى يرميها بها القضاة الخمسة

الواقفين امامها برغبة شديدة فى أن تعلن الحقيقة وأن ترد لنفسها الاعتبار ، ولكنها بذلت جهدا جبارا حتى تغلبت على ارادتها ولزمت الصمت ، وأطرقت بعينيها وهى ترتجف .

وتبادلت رئيسة الممرضات النظر مع الدكتـــور هاسال ورئيس اللجنة ثم تنهدت رغما عنها وقالت :

ــ اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا من اجلك فى هذه الحالة بالذات ، ولابد لك من تحمل عواقب غلطتك . انت مطرودة ، وسوف تغادرين المستشفى حالا ، غدا صباحا على الأكثر .

وسكتت مس ليتارد لحظة وتنهدت مرة اخرى ثم استطردت : من حسن حظك أن ملف خدمتك يشهد لك ويجيز لنا الا نوقع عليك ذلك العقاب الخطير واعنى به سحب دبلومك كممرضة . وقد كان من راى بعض اعضاء اللجنة رفع حالتك الى لجنة الممرضات ، ولكن نظرا لأن سلوكك كان ممتازا حتى اليوم فقد قررنا الا نذيع الأمر ، وعليك أن تحاولى التكفير عن غلطتك فى مستشفى آخر ، ولا استطيع طبعا ان امنحك اية شهادة ولا اريد ان اراك بعد الآن . يمكنك ان تنصرف .

رفعت آن عينيها المبللتين بالدموع الى رئيستها وقد احزنها كل الحزن ان تلك المراة الذكية الطيبة التى دربتها وشجعتها واكتسبت تقديرها يمكن أن تدينها وتحتقرها الى هذا الحد . وسارت نحـــو الباب وهى تكاد لا تتبين طريقها ، وعندما همت باجتيازها رماها الدكتور هاسال بآخر سهم فى جعبته بان قال :

ــ لا يوجد فى الدنيا اسوأ من ممرضة سيئة ولا افضل من ممرضة جيدة . تذكرى هذا يا مس لى وفكرى فيه حتى آخر أيامك .

خرجت آن الى الطرقة وجففت عينيها ثم أسرعت الى غرفتها وهى تلهث كما لو كانت قد جرت عدة كيلو مترات . وهناك وجدت لوسى فى انتظارها . واستقبلتها هذه الأخيرة قائلة : آن .. ماذا حدث ؟ لم استطع ان اتحرر دقيقة واحدة لـكى آتى لرؤيتك . ان مس هول الفظيعة احتجزتنى حتى الساعة الخامسة . قولى لى ماذا حدث ؟ .

قالت آن فى صوت بدا كأنه آت من بعيد : ليس هناك ما يقال . لقد طردونى .

صاحت لوسى وقد ملت ملامحها امارات الارتياع : طردوك . اهذا فحسب ؟ .

نظرت آن اليها فى قلق كما لو كانت قد صحت من كابوس ثقيل ، وادركت لأول مرة مدى انانية أختها وسالتها قائلة : الا يكفيك هذا ؟ .
اجابت لوسى وهى تبذل جهدها لكى تتظاهر بالحزن : اوه ، طبعا . ولكننى كنت اخشى أن يكون هناك تحقيق وأن يتدخل البوليس ويسبب لك بعض المشاكل ... استبد بى القلق وكنت مستعدة للاعتراف بكل شيء لو ان الأمور ساءت بالنسبة لك .
أمسكت آن بها وقد استولى عليها غضب مفاجيء وصاحت : كان يجب أن يستبد بك القلق صباح اليوم . لو انك فعلت لكان هذا الطفل على قيد الحياة . الآن . أوه . ان هذا فظيع ! .. فظيع ! .. هذا كابوس حقيقى .. لا استطيع ان اصدق ان هذا قد حدث .
توترت لوسى وقالت على كره منها : ما زلت أستطيع الاعتراف ، اذا كنت تريدين ذلك . لا تتصورى اننى خائفة . سأمضى الآن قدما الى مس لينارد .
قالت آن فى مرارة : انها لن تصدقك . ستظن انك تحاولين تغطيتى .
ساد صمت عميق فى الغرفة الصغيرة . صمت ثقيل . وراحت آن تنظر من النافذة والالم يعصف بكيانها ، فى حين أخذت لوسى تعض شفتيها فى تصميم مشوب بالخبث ، وفجأة تبادلت الاختان النظر ثم أطلقت لوسى صيحة تدل على أن ضميرها يبكتها ورمت بنفسها بين ذراعى آن قائلة وهى تنتحب :
ــ أوآه يا آن . اننى آسفة . آسفة جدا . لا أدرى كيف حدث هذا . وانها لشهامة كبيرة منك أن تحملت غلطتى . ما كنت لأستطيع ابدا مواجهة مثل هذا الموقف ، ومن يدرى ، ربما حرمت من دبلومى وضاع مستقبلى . أما انت ، فستجدين عملا آخر . وما أن أفرغ من امتحاناتى حتى أسرع اليك . ومهما يكن فما كنا لنبقى معا فى شيرهام الى الأبد . انها بلد صغيرة والبقاء فيها مضيعة للوقت . ولكننى ما زلت أستطيع ان امضى واعترف بكل شيء ، اذا اردت .
وبينما كانت لوسى تتكلم فى ذلاقة وانفعال راحت آن تضمها اليها وتمس جبينها فى رفق . كانت تكن لأختها من الحب ما جعل تضحيتها لا تبدو طبيعية فحسب وانما حتمية . وجلست الاختان على حافة الفراش تدبران خططا للمستقبل ، فى حين اخذت انوار المدينة تضاء من بعيد ، واحدا بعد الآخر . وقالت لوسى اخيرا :
ــ اين تنوين الذهاب ؟ .

وكانت آن قد فكرت في هذا الامر ، فقد كانت تنوى أن تنطلق ذات يوم الى مدينة كبيرة ، لكى تشتغل فيها . وقد واتتها الفرصة أخيرا بأسرع ما يكون ، وان كانت فى ظروف أخرى لم تكن تتوقعها . وأجابت وهى تضم أختها الى صدرها مرة أخرى لكى تطمئنها :

ـ ساذهب الى مانشستر فلا تنزعجى من اجلى ، وساجد فيها عملا بكل تاكيد ، ولن اكون بعيدة عنك كثيرا يا عزيزتى .

قالت لوسى وصوتها ممتلىء بالدموع : لم يخطر لى أبدا اننا سنفترق .

ـ سوف تلحقين بى سريعا جدا يا حبيبتي .

وتهدج صوت آن من جديد وهى تستطرد قائلة : ولكن يجب ان تعدينى بالا تقصرى فى اى شيء بعد اليوم . عدينى أن تكفرى عما سببت من سوء وأن تصبحى ممرضة .

تمتمت لوسى وسط نحيبها : أعدك .

ولم يعد أمامهما بعد ذلك الا مواجهة الافتراق ، وكان هذا أمرا شاقا طبعا . وفيما بعد ، بعد أن غادرتها لوسى أغلقت آن الباب بالمفتاح وحزمت حقائبها ، فقد عقدت العزم على الرحيل فى فجر الغد . انحنت أمام قسوة الطرد الذى منيت به ولكنها لم تحتمل مواجهة زميلاتها وما قد يوجهنه لها من نقد أو تعاطف . ولكنها لم تحسب حساب الصداقة التى تكنها لها غالبية الممرضات ، فما ان انتهت من وجبة العشاء حتى أقبلن فى موكب واحد يتمنين لها حظا سعيدا . وكانت مس جريج هى الوحيدة التى شذت عن الجميع فقد قالت في لهجة لها معناها : قد نلتقى فيما بعد يا مس لى اذ ليس من السهولة ان أنساك ...

ومع ذلك أحست آن ، بعد أن خرجت آخر ممرضة بصداع شديد وهبوط غريب ، فقد مرت بها فى وقت قصير أحداث جسام لم تكن لتتوقعها ، وكانت لا تزال أمامها مهمة لابد لها من انجازها قبل مغادرة البلدة .

فبعد أن دقت الساعة معلنة الحادية عشرة ، وبعد أن اخذت فرقة الليل اماكنها واطفئت جميع الأنوار فى بيت الممرضات ، فتحت آن بابها فى صمت وتسللت الى السلم واجتازت الفناء فى سكون ، ومضت الى جناح صغير ملحق بالمستشفى مخصص لجثث الموتى ودخلت دون خوف ووقفت مدة طويلة تتامل الجثمان الصغير الذى

نقل الى الغرفة وهي تقول لنفسها انه ليس هناك أكثر حزنا من موت طفل صغير ، خاصة اذا كان من الممكن تحاشي هذا الموت ، وراحت تبتهل الى الله كما لم تفعل من قبل ، من اجلها ومن اجل اختها ومن أجل مستقبلهما ولكي تكفر كل منهما ، على حدة ، عن الغلطة التى ارتكبتها لوسي ، ثم احست بالارتياح والعزاء وعادت الى غرفتها واستلقت فوق فراشها .

الفصل الخامس

صحت آن على رنين جرس المنبه في الساعة السادسة الا الربع فنهضت وارتدت ثيابها وغادرت غرفتها وحقيبتها في يدها . لم تشأ ان تشهد التوديعات المؤثرة في مثل هذه الساعة . واذ مرت أمام غرفة اختها دست من تحت الباب ورقة صغيرة كتبتها بالأمس . سوف تفهم لوسي ، وهبطت السلم المقفر واجتازت أبواب المستشفى للمرة الاخيرة .

كان يتساقط رذاذ خفيف كما هو الحال دائما في البلاد التي تقع على الساحل ، وتلألأت قطراته على شعرها وعلى معطفها الازرق الواقي من المطر ، وخرجت الى الطريق وغذت السير ، ولم تجرؤ على الالتفات الى المستشفى للمرة الاخيرة اشفاقا من ان تبكي . كانت سعيدة جدا في هذه المستشفى الصغيرة المتواضعة ولكنها كانت من حسن الادراك وقوة العزيمة لكي تفهم ان المستقبل يتفتح امامها .

وكانت قد قطعت نحو خمسمائة متر عندما سمعت نداء مستمرا لبوق احدى السيارات فاستدارت في نفس الوقت الذى توقفت بجوارها سيارة قديمة من طراز فورد عرفت آن فيها سيارة جو شاند. والواقع ان هذا الأخير هبط منها وأسرع للاقاتها ، وهو شاب اشقر قصير وسمين يرتدى زيا ازرق ملطخا بالبقع ، مستدير الوجه ، بشوش بطبعه ، ولكنه كان في ذلك الصباح متجهما يبدو عليه الارهاق. ونظر اليها دون أن ينطق في بادىء الأمر ثم قال :

ــ توقعت تماما انك ستستقلين قطار السادسة والنصف .

نظرت آن اليه وقالت مترددة : اكنت تعرف اذن انني راحلة ؟ .

ــ ولكن المدينة كلها تعرف انك ...

وجز على لسانه . ولكن آن فهمت . لقد عرفت مدينة شيريهام كلها انها طردت من المستشفى ، وستنتشر الاقاويل والشائعات دون

أن تجد من يتعرض لها او يوقفها ، وكانت هذه الفكرة بالنسبة لآن كحبة صلبة من العسير ابتلاعها ، فجزت على أسنانها وقالت :

ــ يجب أن أسرع يا جو ، فانني أخشى أن يفوتني القطار .

قال جو : انتظرى يا آن . انني اتيت لهذا السبب . لن ادعك تحملين حقيبتك ، ثم انك اذا ركبت قطار السادسة والنصف فسيتمين عليك الانتظار خمسين دقيقة فى جريمثورب حتى تأتى المواصلة . اسمعى يا آن . دعينى أمضي بك الى جريمثورب . ان الامر هين بالنسبة لى ، فهي مجرد رحلة لا تزيد عن خمسين كيلو مترا .

نظرت آن الى وجه جو الذى يفتقر الى الجمال ، والغنى بالتعبيرات الساذجة الطيبة . لقــــد كان على حق . ستوفر بعض الوقت . وستتحاشى على الاخص لقاءات تشق عليها فى محطة شيريهام . وقالت وقد تاثرت : اشكرك يا جو . انه لكرم منك ان تفكر فى ذلك .

وبعد دقيقتين كانا ينطلقان فى طريقهما الى جريمثورب . كان جو يقود فى مقدرة فائقة ، فقد كان يعشق الميكانيكا ويعرف كل كبيرة وصغيرة فى المحركات . وكانت تلك مهنته على كل حال . كان فى كل مجال آخر يبدو أخرق قليل الحيلة . ومرت لحظات وهو يسوق فى صمت . وادركت آن وهى تنظر الى جانب وجهه الذى ينم عن ضعف الارادة ان هناك ما يزعجه ، وملأها ذلك خوفا فقــد كان جو صــديقا من اصدقاء الطفولة ، وقد اختلفا الى المدرسة معا ، وعندما أصيب أبوه توم شاند ، صاحب الجراج الوحيد بالمدينة بالتهاب المفاصل الذى أرغمه على ملازمة الفراش حتى يومنا هذا كانت هى التى عنيت به . وعندما كان ياتى الى المستشفى من وقت لآخر للعلاج كانت هى التى تتولى علاجه بالكهرباء . وقد حاول توم العجوز كل شيء لكى يجعل منها زوجة ابنه ، وكان يقول لها ان جو بحاجة الى امراة مثلها لكى يغدو رجلا . وكانت هى تحس من نحو جو بتعلق حقيقى وقد طلب منها مرارا أن تتزوجه حتى أصبح الأمر بالنسبة لها مزعجا .

وكانا قد قطعا نحو عشرين كيلو مترا عندما عقد جو العزم على ان يفضى بمكنون قلبه فقال :

ــ آن . اننى لا افهم شيئا مما حدث ، ولا اصدق كلمة واحدة مما يقال عنك . أتوسل اليك ان تقولى لى الحقيقة .

هزت آن راسها فى اصرار وقالت : لا اريد أن اتكلم عن شيء مما حدث يا جو ، فقد أصبح كل ذلك ورائى . انه الماضى وقد اقسمت الا افكر فيه .

وانطلقا بضع دقائق أخرى في صمت ثم قال جو : ان فكرة ذهابك هكذا لا تروق لي . بل أستطيع القول بأنها تخيفني ، فليس لها أي معنى . لماذا تغادرين شيريهام بحق الشيطان ؟ .

قالت آن : ولماذا أبقى بها ؟ .

وأدركت بعد فوات الأوان أنها ما كان يجب أن تنطق بهذه العبارة بالذات . وفعلا انتهرها جو على الفور لأنه قال :

ــ لأنني أطلب منك ذلك . لأنني لا أريد غير شيء واحد وهو أن أتزوجك . انني بحاجة اليك يا آن ، فانني أستطيع ان افعل الكثير وأنت معي . ستزدهر أعمالي ثم ... ثم انني أحبك ، وربما استطعت أن أخرجك من هذه الورطة .

لزمت آن الصمت لحظة متأثرة بهذا الاخلاص وقد اهابت بها نفسها على الرغم منها أن تقلع عن النضال وأن تجد الى جوار جو البيت والأمان . ولكن شيئا منعها ... شيئا خفيا لم تدرك كنهه صدر من أعماقها فقالت وهي تحاول اكتساب الوقت :

ــ لا تتعجلني يا جو ، فأنت ترى مدى ارتباكي . فيما بعد ... ربما ... اذا كنت لا تزال راغبا في الزواج مني .

اضطرم وجه جو وهم بأن يتكلم ولكنه غير رأيه ، وبذل جهدا كبيرا واستطاع أن يسيطر على نفسه ، فان آن لم يسبق أن زودته بمثل هذا الأمر ولم يشأ أن يفسد فرصته بكلمة خرقاء ، وابطأ من سرعة السيارة لكي يحظى بوجودها معه أطول وقت ممكن . وبلغا محطة جريمثورب أخيرا قبل وصول القطار بأربع دقائق ، واستطاع جو أن يقطع التذكرة وأن يشتري لها بعض المجلات قبل أن يدخل القطار المحطة ويقف على الرصيف . وركبت آن مقصورتها وأطلت من النافذة ، وهزت رأسها وقالت في صوت مرتفع في حين بدأ القطار يتحرك :

ــ أتمنى لك التوفيق يا جو ... انني أعهد اليك بلوسي .

وكانت الرحلة الى مانشستر خلال منطقة صناعية يسودها السخام رحلة كئيبة ، ولكن آن كانت بعيدة عن الرحلة وكآبتها بمشاغلها الخاصة . كانت قد أضنتها المأساة التي قلبت حياتها رأسا على عقب ، ولكنها كانت قد عقدت العزم على الا تفكر في الماضي . واختارت من بين المجلات التي جاءها بها جو مجلة أخبار المرضات وبحثت عن طلبات الوظائف في صفحة الاعلانات المبوبة . وتجهم وجهها شيئا فشيئا فلم يكن في كل مانشستر وظيفة واحدة شاغرة . وكان الأمر

شديد الوطأة عليها فقد كان لابد لها من العثور على عمل بصفة عاجلة ، اذ لم تكن بها أية رغبة في استئجار مسكن في المدينة والانتظار حتى تجد لهـا عملا لانهـا اذا اضطرت الى ذلك فلن تلبث أن تجـد نفسها بلا مورد . وامتلأت عيناها ذعرا وفزعا وهي تفكر في المبلغ الزهيد الذي معها ، فان مرتب المرضة التي تحت التمرين لم يكن ليزيد عن اثنى عشر جنيها في السنة، وهي طوال ثلاث سنوات في عمل مرهق مضن اكتسبت ستة وثلاثين جنيها ، اذا اقتطعنا منها ثمن الاحذية والجوارب والضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها والهدايا التي كان لابد منها في المناسبات للوصى فلن يتبقى من ذلك المبلغ الشيء الكثير ، وهو مهما يكن مبلغ لن يكفيها أكثر من شهر واحد .

وتناولت جريدة الـكلاريون في جزع كبير ، وهي اكبر الجـرائد اليومية التي تصدر في مانشستر ، وتصفحت صفحة الاعلانات ووقعت عيناها فورا على الاعلان التـالي « مطلوب ممرضـات لمستشفى هيبرتون. لا تشترط الخبرة الاتصال بمس ايست رئيسة المرضات.

الفصل السادس

ذهبت آن بالترام الى حى هيبرتون ، وهو حى شعبي ، شوارعه ضيقة متشابكة ويسكنه شعب صغير من الطبقة الكادحة : محـلات صناعية وبيوت مفروشة ومصـانع وخمارات وتراموايات وكاميونات صاخبة . ويقوم في وسطه مبنى المستشفى الضخم ذو الواجهة العالية الطويلة والنوافذ المتعددة . وأمام هذا المستشفى الكبير الذى يختلف عن المستشفى الريفى الصغير المألوف أحست آن بأن قلبها يكاد يتوقف عن الحركة ، فقد كان عالما وحـده ، ولكنها لم تلبث أن أدركت ان وجوده في ذلك الحى الآهل بالسكان الـكادحين فرصة فريدة لممرضة حديثة التخرج لكى تكتسب الخبرة والمران . ولم تكن قد تناولت شيئا منذ الصباح الباكر فاحتست فنجانا من القهوة وأكلت شطيرة في مقهى مجاور ردا اليها قواها ثم مضت قدما الى حجرة الحارس وطلبت في جرأة مقابلة رئيسة المرضات .

وقوبل طلبها بأحسن مما كانت ترجو وتأمل ، فبعـد أن كتبت اسمها وهويتها في بطاقة انتظرت بضع دقائق ثم ركبت المصعد حتى الطابق السادس واجتـازت طرقة كئيبة مدهونة بلون أصفر كالح ثم دخلت مكتب رئيسة المرضات .

واذا كانت المستشفى من الداخل متهدمة باكثر مما كانت تظن فان مس أيست على العكس ، لم تكن اثرا من آثار الماضي . كانت في الاربعين من عمرها ، نشيطة وقصيرة القامة ، قوية الصدر ، قصيرة الذراعين ، عريضة الوركين ، لها وجه أشبه بوجه البولدوج ، يبدو من هيئتها انها تتمتع بارادة وعزيمة قويتين ، لم تضع دقيقة واحدة في المقدمات ، فقد رفعت مرفقيها كالملاكم وطرقت الموضوع مباشرة قائلة :

– انك اتيت تلتمسين وظيفة عندنا واسمك آن لى ... وتقولين انك قضيت ثلاث سنوات في مستشفى شيرهام ، وهى مستشفى ف قرية صغيرة ، وانك ما كدت تحصلين على شهادة التمريض منها حتى رحلت عنها ، وهذا منتهى الجحود ، ولكننى لم أر غير ذلك طوال حياتي وهو امر أصبحت اتوقعه وأرتضيه . هل معك دبلومك .

ناولتها آن اياه فاخذته رئيسة الممرضات والقت عليه نظرة ثم هزت راسها واعادته اليها قائلة :

– هذا حسن . انني امنحك فرصتك . قدمي نفسك الى مس جيلسون ، المشرفة على القاعة (ج) بقسم الجراحة. ستتقدمين للفحص الطبي غدا ، ولكن تذكرى ان المستشفى قائمة على النظام . نصف يوم عطلة في الاسبوع في أحسن الحالات ، وفي أسواها ساعات اضافية. والتدخين ممنوع منعا باتا وكذلك استعمال أدوات التجميل والعطور . وستشتركين في السكن مع احدى زميلاتك ف غرفة واحدة . اعطى هذه المذكرة لمس جيلسون . هذا كل شيء .

واذ فرغت رئيسة الممرضات من خطبتها ضغطت باصبعها على جرس فوق مكتبها . وخرجت آن وهى تتنهد ف ارتياح ، فهى لم تتعرض لاى سؤال مزعج ، ولم تطالبها مس ايست باية شهادة . وكفت عن الاضطراب اخيرا وقد أدركت ان رئيسة الممرضات تعاني نقصا كبيرا ف الممرضات وانها بحاجة ماسة الى مساعدات ، وانها بسبب ذلك لا تتشدد في فحص المتقدمات اليها . واستطارت فرحا فقد وجدت عملا والمستقبل يتفتح امامها .

وكانت القاعة (ج) تقع في آخر الجناح الشمالي،وكانت فى الواقع عبارة عن غرفتين يفصل بينهما قسم للجراحة . وكانت مس جيلسون امراة تبدو مرهقة لم تتشدد ف فحصها هى الاخرى ، فقد أسرعت تقول بعد أن القت نظرة على المذكرة التي ناولتها لها آن :

– ستبدئين عملك بعد ظهر اليوم ، فاليوم يوم استشارة ، ونعاني

نقصا في المرضات .
وتحولت الى ممرضة شابة كانت تمر في هذه اللحظة وخاطبتها قائلة : مس دان ، هل فرغت ؟ رافقي مس لى الى مبنى المرضات وزوديها بكل التعليمات الضرورية ، وحاولي أن تجدى لها فراشا .
استأنفت آن السير مرة أخرى ورافقت الممرضة الشابة الى بيت المرضات ، ويقع في آخر الفناء ، على مسافة يسيرة من المستشفى ، وأخذت تنظر خلسة الى زميلتها ، وكانت أول شخص جذاب وظريف تلتقي به منذ قدومها الى هذا المبنى الكئيب .
كانت نورا دان فتاة ايرلندية جميلة ، رشيقة الجسم ، في الخامسة والعشرين من عمرها ، ذات وجه بشوش يعلوه النمش تبدو في عينيها السوداوين ومضة ساخرة لا تخبو أبدا ، نظرت الى آن في استحسان وقالت وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب عريضة :
ــ انت اذن الضحية الجديدة ... مطلوب فتيات حديثات السن قويات الجسم للعمل بمستشفي لا هدف له الا تدمير المرضات . آه . ولكن يبدو لي انك من القوة بحيث تتغلبين على كل المشاق .
وضجت بالضحك وهي ترى دهشة آن واستطردت تقول : الا تفهمين ما أعنيه ؟ ولكنك سوف تكتشفين ذلك حالا . ان مستشفى هيبرتون العزيز ، أجمل مستشفيات العصر ... ماء حار ساخن وبارد في كل دور ... طعام الافطار يقدم في الفراش وبه كل وسائل الراحة ... تماما كما في بيتك .
قالت آن وهي تسير على طرفي قدميها : ولكنها لا تعطيني هذا الانطباع .
صاحت نورا دان على الفور : يمكنك ان تقولي هذا ... لقد تجاوزت الأمور كل حد حقا ... غرف كريهة واسرة صلبة كألواح الخشب وصراصير في كل مكان وغرفة أكل تنضح بالرطوبة . اما مواسير المياه فمن الأوفق الا اتحدث عنها . من المستحيل أخذ حمام ساخن ما لم تحرصي أولا على ارسال بطاقة بريدية لوليجان ، وهو موظف بالمستشفي ومفروض فيه انه يعرف كل شيء . ولابد أن تكون لك معدة تطحن الحجر حتى تهضمي اليخنى الذى يقدمونه لنا .
سألتها آن : والعمل ؟ .
قهقهت نورا في ابتهاج وقالت : اما هذا فهو كثير والحمد لله . كل الأسرة مشغولة يوميا دائما ولدينا طبيب رائع ... الجراح بريسكوت ، وهو رجل هادىء وصموت يجرى عملياته كالملائكة .

ولسوء الحظ لا تدخل القاعة (ج) فى اختصاصه ولكننا نعاونه فى عملياته أحيانا .

وتنهدت نورا واستطردت تقول : وهو رجل مدهش حقا . اما فيما عدا ذلك فهو أمر يدعو الى الرثاء فان المستشفى تعاني من ازمة شديدة ، فهي تفتقر الى النقود . انهـا تعيش على الهبات ، وهي لا تحصل منها على شيء أو على الأقل لا تحصل على ما يكفي . والنتيجة انهم يقتصدون في كل شيء ويعاني الجميع من ذلك . ان منظر المستشفى من الخارج لا بأس به ، ولكن كل شيء في الداخل منهار ، واذا كنا نحن الممرضات نضطر الى تحمل ذلك بشق الأنفس ... فان غيرنا لا يبقين طويلا لهذا السبب بالذات ... وبسبب رئيسة الممرضات ... واظن انك قرأت الاعلان ، ولكنك لست الوحيدة ، وسأقول لك شيئا آخر يا صديقتي المسكينة . ان هذا الاعلان يظهر طوال الاسبوع ، فان العجوز قد عقدت اشتراكا ، ونحن ندعوها « المرعبة » والحق أن همومها كثيرة ولكنها شديدة الصلابة ، يبدو الصلب لينا اذا ما قيست به .

سألتها آن في تفكير : الا يحاول احد تحسين احوال الممرضات فى هذه المستشفى ؟ .

كشرت نورا وقالت : أوه ، هناك شخص أو اثنان يهتمان بذلك ، وخصوصا بريسكوت على الرغم من انه لا يدري شيئا مما نعانيه . انه يحلق في الخيال ولا يفكر الا فى شيء واحد هو أن يفتتح عيادة جراحية متخصصة في عمليات المخ . وهناك بويلى طبعا . ولكنه ليس طبيبا . انه ماتيو بويلى صاحب مصانع الغزل المشهور ، ولا ريب انك سمعت عنه . انه واسع الثراء ويقال انه مليونير ، ويبذل الكثير من أجل المستشفى ، خاصة وانه صديق حميم لبريسكوت . اما الآخرون فلا يستحقون أن يتحدث أحد عنهم . وأما عن مجلس الادارة فما هم الا حفنة من البخلاء الخوافين .

وكانت الفتاتان قد بلغتا جناح الممرضات وهما تتحدثان . وتحولت الايرلندية الشابة الى آن عندئذ وقالت وعلى شفتيها تلك الابتسامة الرقيقة التى لا تقاوم :

— قد تجدينني جريئة جدا يا ملاكي ، ولكنك تروقين لي . ما رأيك فى أن تشاركينا غرفتنا ، أنا ومس جليني . انها ليست بأسوأ من غيرها وهي معدة لثلاثة أشخاص ، ولكن أحب أن أقول لك ان جليني تغط فى نومها غطيطا مزعجا واضطر الى ان أقذفها بالخف مرتين اثناء

الليل . ولكن اذا كنت توافقين فانني استطيع ان ارتب هذا .
اثلج هذا الاستقبال قلب آن واحست بود كبير نحو نورا وقبلت عرضها عن طيب خاطر قائلة :
ــ أنت ظريفة جدا . سوف اساهم معك من اليوم في تخفيف انغام جليني الموسيقية .
وصعدتا سلما حلزونيا حتى الطابق الثالث ، ودخلتا غرفة ضيقة ذات سقف منخفض متشققة الارضية بها ثلاثة اسرة حديدية وثلاثة دواليب صغيرة وطشتين . ونظرت نورا الى آن التي عرتها الدهشة وقالت :
ــ لا تستغربي يا عزيزتي . سوف تعتادين ذلك .
اجابت آن وهي تحاول التظاهر بالفرح : انني واثقة من ذلك .
ومع ذلك فهي لم تر في حياتها غرفة بشعة كهذه .
ــ نحن لسنا في الريتز طبعا . ولكن لك ان تصدقيني اذا شئت فهذه احسن غرفة في المستشفى كلها . كيف لا تتلهف الواحدة منا على أن تكون ممرضة وهي ترى كل هذا الترف الذي يحيط بها . اليس هذا حقا يا جليني ؟ .
وجهت نورا هذه الكلمات الاخيرة الى ممرضة شابة كانت قد تبعتهما في الدرج عن كثب ودخلت الغرفة لتوها . وهي فتاة طويلة القامة يبدو عليها الضجر ترتدي حرملة طويلة فضفاضة . اسكتلندية ، ذات شعر اشقر ويدين متشققتين متجهمة الوجه . القت حرملتها فوق احد الاسرة واشعلت سيجارة بيد مجربة تدل على انها اعتادت التدخين وهي تنظر الى آن دون أي عداء . وقالت نورا في ابتهاج :
ــ جليني ، اقدم لك آن لي ، زميلتنا الجديدة في الغرفة . وبهذه المناسبة يا آن ، اذا ضبطت الممرضة وهي تدخن في هذه المستشفى فهذا معناه الطرد الفوري ، ولكن جليني لا تهتم في الدنيا كلها الا بشيئين اثنين : التدخين وهذا ...
وأشارت نورا بذقنها الى صورة لكلارك جيبل موضوعة فوق دولاب مس جليني . والغريب ان هذه الاخيرة لم تكد تسمع الاشارة الى اسم بطلها المحبوب حتى رمت آن بنظرة حيية ... نظرة اضاءت وجهها الكئيب وقالت :
ــ الا ترين ان لكلارك جيبل سحرا كبيرا ؟ .. ان لدي صورة ممهورة بتوقيعه وقد أرسل الى خطابا رقيقا كتبه بخط يده .
وعلى الرغم من سحنتها الكئيبة المتجهمة فقد ادركت آن انهـا

وقعت على صديقه اخرى غير نورا . وبعد بضع دقائق هبطت الفتيات الثلاث الى قاعة الطعام ، وطلبت نورا وهى فى طريقهـــا اليها من مواطنها موليجان ، حارس المستشفى ، ان يمضى الى المحطة ويأتى بحقيبة آن . ووقفت جليني على عتبة غرفة الطعام وتظاهرت بالجد وقالت فى لهجة خطيرة :

ـ هل شهيتك مفتوحة ؟ .

أجابت آن بدون تفكير : نعم . لماذا ؟ .

قالت جليني فى نفس اللهجة الخطيرة : اوه ، لا شيء ... ولكن اذا كنت لا تشعرين بجوع شديد فانني انصحك ان تطلبى طبقا من الدندى المحمر ، فان لحمه لذيذ جدا يا عزيزتى .

ولم تفهم آن السبب الذى قابلت به نورا هذه العبارة بضحكة كبيرة الا فيما بعد .

كانت قاعة الطعام الخاصة بالمرضات كبيرة ، ارضيتها متشققة هى الاخرى ، وقد جلست نحو اربعين ممرضة الى موائد خشبية خشنة المظهر اقيمت على صفين ، وقد تجمع فيها بخار كثيف ، وتطل نوافذها على جدار كئيب . وكانت هناك فتاتان ناضجتان ترتدى كل منهما ثوبا مخططا وردى اللون تقدمان الاطباق فى صخب ، وكانت آن قد زارت مع بعض المرضات ملجأ العجزة بشيريهام ، وكانت غرفة الطعام اكثر بذخا وترفا من هذه القاعة .

وجلست آن بين صديقتيها ، وسرعان ما وضع امامها طبق مملوء بالطعام ، او بشيء مفروض انه طعام . كان الطعـــام فى مستشفى شيريهام عاديا ولكن مس ليناردكانت تحرص على ان تكون الاصناف ساخنة ومغذية . غير ان اللحم هنا كان باردا ومتيبسا يكاد يكون غير مستساغ والحساء لم يكن باكثر من ماء ملون ساخن والبطاطس طعمها كطعم الصابون اما الحلوى فكانت عبارة من فالوزج بالدهن مزرق اللون وصلب كالحجر، صفوة القول كانت وجبة غيرمغذية وغير كافية لنساء مرهقات ، ومع ذلك فقد بدا ان اغلب المرضات قد امتدن ذلك . واحست آن بنظرة نورا الساخرة تثقل عليها فغالبت نفورها وحذت حذوهن .

لم يكن عملها يبدأ الا فى الساعة الثانية ومع ذلك فقد كان ميلها الى العمل اكبر من احساسها بالجوع ، ففى الثانية الا خمس دقائق دخلت القاعة (ج) . وسرعان ما ادركت ان المستشفى ، على الرغم من مظهرها المنهار الا انهـــا ممدة باحدث الاجهزة ، وخصوصا غرفة

العمليات . وبينما هي تتفحص الاجهزة المذكورة جيىء بعامل مسن وقع من فوق الرافعة وتحطمت بعض ضلوعه فاهتمت به ووضعته في الجبس مخففة بذلك آلامه ، ثم جيىء بسكيرة أصيبت بجرح في رأسها أثناء مشاجرة فحلقت لها آن شعرها حول الجرح وعالجتها وضمدتها . وقضت ساعتين وهي تعنى بالحالات العاجلة ، وكانت تعنى بكيس دهني في الساعة الرابعة والنصف عندما سمعت شخصا يناديها في آخر الغرفة بلهجة آمرة . « انت هناك ! » فتحولت ورات بعتبة الباب شاب أنيق الملبس يعني بثنية بنطلونه نفس عنايته بالفرق الذي يفرق شعر رأسه الأشقر ، فقال الشاب الغندور المعجب بنفسه . وصاح بها للمرة الثانية في صوت مرتفع :

ـ يا آنسة ! .

اضطرم وجه آن ووضعت الضمادة التي في يدها فوق المنضدة ومضت اليه على مضض فبادرها في غلظة : هل انت صماء ؟ ... عندما انادي ممرضة فيجب أن تسرع . هل انت جديدة هنا ؟ .

اجابته آن وهي تبذل جهدا كبيرا للسيطرة على أعصابها : نعم .

قال الشاب وهو يتنازل ويتكلم في شيء من الرقة : آه . لا ريب أنك لا تعرفين مع من تتحدثين . أنا الدكتور كالي ... الدكتور جورج كالي ، طبيب الامتياز المقيم بالمستشفى ، وعليك مستقبلا ، عندما ادخل هذه القاعة أن تنهضي وتضعي نفسك تحت تصرفي .

امتقعت آن واحست بدمها يغلي لوقاحة هذا الغر وقالت في حدة :

ـ انني غالبا ما أكون واقفة في غرفة العمليات ، ودائما على استعداد لكي أكون تحت تصرف أي شخص بحاجة الي . لعلك تريد مني أن أضرب لك سلاما ؟ .

اصطبغ وجه طبيب الامتياز بدوره ورمى آن بنظرة صارمة محاولا ان يفقدها رباطة جأشها وصاح : ما أنت الا وقحة ! .

ردت عليه آن وقالت في حدة : بل انت الذي كنت وقحا معي .

قال طبيب الامتياز وقد ازداد تجهمه : هذا كذب . انك كنت واقفة مكانك تضيعين وقتك وتنظرين الي كالبلهاء . كوني على حذر والا رفعت امرك الى المدير وعملت على طردك في اقل من دقيقتين .

عضت آن شفتيها حتى دميتا وهي تبذل جهدها لكي تزدرد كلمات السخط التي تحاول ان تندفع من بينهما ، فقد كانت عديمة الحول أمام مثل هذا الظلم ، ولم يكن باستطاعتها أن تغامر وتفقد وظيفتها . واذ رآها الشاب واقفة لا تنطق زمجر قائلا :

- اراك لا تحيرين جوابا . انني لم افرغ منك بعد وساحرص على ان اجعلك تحترمين البروتوكول المتبع في هذه القاعة ، وسوف تزحفين امامي بعد قليل . والآن ، انصتي جيدا الى ما سوف اقول اذا لم تكوني بلهاء تماما . ان رقم ٩ مريض يعاني من قرحة في معدته وقد تقيأ صباح اليوم والمدير شديد القلق فراقبيه عن كثب . واذا نزف من جديد فاستدعيني على الفور . يمكنك أن تتصلي بي تليفونيا في فندق بارك ، فانني سأتناول الشاى هناك . مفهوم .

قالت آن وهي تشعر بمشقة كبيرة في النطق بالكلمة : نعم .

نظر طبيب الامتياز اليها في ازدراء وقال : نعم فقط ؟ الا تعرفين ان لي لقبا ؟ .

اجتاح آن غضب جنوني ولكنها بذلت جهدها مرة اخرى لكي تكبت كبرياءها وقالت في صوت منخفض وواضح وهي تحدق في عيني الطبيب الشاب : نعم يا دكتور .

زمجر مرة أخرى وقد وقف امامها مباعدا ما بين قدميه وهو يستمتع بانتصاره ثم دار على عقبيه وخرج . وبقيت آن لحظة وقد تسمرت في مكانها قبل ان تتحول الى مريضها . واحست بانه قد احط من شأنها واهينت ، وراحت ترتجف من اعلا رأسها الى اخمص قدميها . كانت هذه أول مناوشة لها مع طبيب الامتياز ولن تكون الآخير قطبعا.

الفصل السابع

في صباح اليوم التالي فحص الدكتور سنكلير ، كبير الاطباء ، آن وصرح بانها في صحة جيدة وانها تستطيع مباشرة مهامها . وشيئا فشيئا ، وعلى الرغم من بعض الحرمان ومن ظروف الحياة البالغة القسوة اندمجت آن في الروتين اليومي للمستشفى الكبير وراحت تزاول عملها في شغف ووله كبيرين . وكان الدكتور سنكلير جراحا قديرا على الرغم من كبر سنه ولكنه كان يعاني من افتقار الى الثقة في النفس ، وكان يحدث أن يرسل حالة مستعصية او مشكوك فيها الي زميله الدكتور بريسكوت . وكانت آن ، زيادة الى عملها تدعى في بعض الاحيان الى غرفة العمليات ، وكانت تغتبط بذلك ، فقد كانت مولعة بالجراحة . وقد اظهرت براعة في اثناء بعض العمليات الجراحية بحيث انتزعت كلمة اعجاب من جيلسون المشرفة العجوز .

وكانت أيامها طويلة وعملها فى ازدياد بحيث لم تكن تجد ما يكفى من فراغ للهو والمتعة . وكانت متعتها الوحيدة هي التفكير في لوسي فكانت تكتب لها خطابات سريعة تحكي لها فيها تجاربها بالتفصيل . وكانت الصداقة النامية التي تبديها نحوها نورا وجليني تساعدها على التغلب على ما يصادفها من مشاكل وصعوبات ، وخصوصا ذلك العداء الحقير الذى يبديه الدكتور كالي نحوها . ومع ذلك فقد كانت تفتقد أختها كثيرا . وكانت تساءل نفسها أحيانا فى شيء من القلق اذا كانت لوسي تقبل أن تأتى وتنضم اليها ذات يوم فى هذه المستشفى الكبيرة ، غير أنه كان يحدث لها أن تتساءل في نفس الوقت هل يكون لها هي مستقبل فى مستشفى هيبرتون هذه ، ولكن اتفق بعد أن قضت شهرها الأول في مانشستر أن حدث شيء أعاد لها شجاعتها وكان له أكبر الأثر في تغيير مجرى حياتها .

فقد استلقت في فراشها فى أصيل يوم السبت تستمتع بعطلة بعد الظهر ، وهى العطلة الوحيدة التى تحصل عليها كل اسبوع ، وراحت تقلم اظافرها وهى تفكر مسبقا فى السهرة التى ستقضيها ، فقد أفلحت نورا فى الحصول على تذكرتين للمسرح القومي . ودخلت جليني فى هذه اللحظة الغرفة وصاحت :

ـ ان جيلسون تطلبك يا آن بأسرع ما يمكن . ان المستشفى مقلوبة رأسا على عقب .

اعتمدت آن على أحد مرفقيها وقد بدا عليها القلق وهمت بأن تلقى سؤالا ولكن جليني سبقتها الى القول :

ـ كلا ، ليست هناك أية متاعب هذه المرة ، وانما هو أمر مثير .. مثير جدا ، فان بويلي يشكو من زائدته الدودية ، وقد نقله بريسكوت هنا على عجل .. هل تتصورين هذا ؟ .. ماتيو بويلي المشهور يشرف بحضوره أحدى الغرف الخاصة بالجناح (ج) . ولكن ماذا أقول ؟ .. لا ريب انهم نقلوه الآن الى غرفة العمليات . وقد استدعى بعض الموظفين على عجل ، وأنت من ضمنهم يا عزيزتى ، وهو شرف لن انازعك فيه .

مضت آن الى مس جيلسون ، المشرفة ، تتضاربها المشاعر . سواء كان الأمر شرفا لها أم لا فان من الظلم الفادح أن تضطر قلة الموظفات المشرفات الى حرمان الممرضة من ساعات الراحة القلائل المستحقة عن جدارة . ولكنها ما ان بلغت غرفة العمليات حتى نسيت شكاواها فى حمى الاستعدادات .

كان من الواضح انهم يعلقون على هذه العملية البسيطة اهمية كبيرة فان مس ايست ، المشرفة العامة كانت موجودة بنفسها وراحت تدير العمليات تساعدها مس جيلسون ومشرفة غرفة العمليات ومساعدة الدكتور بريسكوت واربع ممرضات اخريات اخترن بدقة . واحضرت ممرضتان انبوبتين اضافيتين من الاوكسيجين ، في حين اعد طبيب التخدير جهازه وراح الجميع يعملون بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان الامر يتعلق بعملية خطيرة . ولم يلبث ان اعد كل شيء ، ولبس الجميع معاطفهم البيضاء وقفازاتهم المعقمة .

ودخل الدكتور بريسكوت في هذه اللحظة ، بخطا ثابتة هادئة دون ان يبدي اية عجلة او اي تصنع ، يبدو عليه انه لايرى شيئا في حين انه لم يكن يفوته شيء في الواقع . كانت نظرة واحدة كافية لان يلم بكل شيء .

ومع ان آن رات بريسكوت مرارا الا انها لم تقترب منه ابدا من كثب ، ولكنها وهي تراه الآن في مجاله ، في هذه الغرفة المتالقة بياضا ونظافة ، اذهلتها شخصيته والقوة التي تنبعث منه ... متوسط القامة ، وسيم الوجه تنطق سماته بالثقة والاعتداد ، شعره اسود كثيف وعيناه متحفظتان ثاقبتان .

رفع اصبعا فجاءوا بالمريض فوق عربة وهو تحت تاثير المخدر ، ونقلوه فوق منضدة العمليات . كان كل ما يمكن رؤيته من مات بوبلي العظيم جسدا جامدا تغطيه ملاءة ، وجزء من بطنه مدهون بصبغة اليود . وامسك بريسكوت بالمشرط وقام بالقطع الاول .

وكانت آن قد الفت جو غرف العمليات ، وكم من مرة شاهدت فيها الدكتور هاسال وهو يقوم بعملياته بمقدرة فائقة ، أو غيره من الاطباء المتخصصين الذين يستدعون لبعض الحالات المستعصية .

وقام بريسكوت بعمليته في دقة وسرعة غير حافل بصفة مريضه ولا بالجهد الذي بذلته المشرفة العامة لفرض النظام . وعملية الزائدة الدودية عملية بسيطة لا تحتاج الى جهد كبير ، ولكن العملية بدت اكثر تعقيدا عن المتوقع . وامام هذا التعقيد الجديد لم تطرف عينا بريسكوت . كان قد نزع الزائد ولكن غريزته دفعته الى فحص الكبد ، وعملت أصابعه في سرعة في القطع الصغير الذي قطعه في البداية ، ورأى ان المرارة في حالة سيئة واستقر رأيه على استئصالها .

وراحت آن تتابع حركاته السريعة وهي تحاول أن تكتم انفاسها . وفي لحظة من اللحظات اخطأت مس كار ، المساعدة ، واعطته اداة غير مناسبة . ولو ان آن تركت لنفسها لصرخت أمام مثل هذه الغلطة، ولكن بريسكوت اكتفى بأن امسك عن الحركة لحظة وجيزة ، ومن غير أن يحول راسه أوقع الأداة أرضا . وكان الصوت الذي احدثه المبضع عند سقوطه اشد ايلاما من أكثر الكلمات خشونة وحدة ، ثم بسط يده لكي تضع المرضة فيها الملقاط الذي يحتاج اليه ، كل هذا في جو من الصمت المطبق ، والواقع ان الجميع كانوا يعرفون أن بريسكوت يطالب بالصمت التام اثناء عملياته وقالت آن تحدث نفسها : انه رجل متكبر ، بارد ، متحفظ ولكنه جراح كبير .

واقتربت العملية من نهايتها ولم يعد باقيا الآن غير اخاطة القطع . وتوقف بريسكوت منتظرا الكلمة التي تسمح بالمتابعة . ومرة اخرى قطعت هذه الوقفة ايقاع السمفونية واحست آن كأنها وقت ميت . واصطبغ لون مس كار ، مساعدة بريسكوت ونظرت الى المرضة المكلفة باحصاء الرفادات .

وهمست هذه مسرعة : أربعا وعشرين .

وتحولت مس كار ، وهي امراة بدينة وسمينة ، الى بريسكوت وقالت : تمام .

احست آن بدمها يتجمد في عروقها وسرت القشعريرة في بدنها ، وعلى الرغم من أن عملها كان يقتصر على الاشراف على سير المحقنة الا انها راحت تتابع أطوار العملية بكل دقائقها . واحلت الرفادات التي استخدمها الدكتور بريسكوت ثم عاد فالقاها كلها بعدالاستعمال. واذا كان بريسكوت قد استعمل حقا اربعا وعشرين رفادة فانه لم يستخرج غير ثلاث وعشرين ، وبهذا تكون هناك رفادة ناقصة .

ونظرت الى بريسكوت في فزع وهو يقوم بأول خياطة للجرح ، مدركة بانها هي وحدها التي لاحظت خطأ المرضة . وكان تدريبها ، والنظام ، وكل شيء يطالبها بالتزام الصمت . ولكنها كانت تعرف كذلك انها اذا سكتت فان العملية سوف تنتهي الى كارثة . وغرزت أظافرها في كفيها وتمتمت وهي تبذل جهدا كبيرا :

ـ مس كار ... ناقص رفادة .

صاح بريسكوت . سكوت . انني لا احتمل اية ثرثرة اثناء اجراء عملياتي .

وانحنى ليستانف الخياطة ولكنه لم يلبث ان اعتدل في وقفته

ونظر الى الممرضة التى جرؤت وتكلمت وسالها فى برود والابرة فى يده : ماذا قلت ؟ .

اصفر وجه آن ، ولكنها واجهت نظرته فى ثبات وقالت : انني .. انني أعتذر .. ولكنني عددت ثلاثا وعشرين رفادة فقط .

صاحت رئيسة الممرضات فى استياء وهى تتحول الى آن ساخطة :

ـ ما هذا الهذر ؟ .

ولكن بريسكوت اسكتها باشارة من يده وقال فى لهجة قاطعة :

ـ أعيدى العد .

واحصوا الرفادات الدامية ، الملقاة فى الدلو ، من جديد . لم يكن هناك غير ثلاث وعشرين منها . وكتمت مس كار صيحة واحتقن وجه رئيسة الممرضات ، ولم ينطق بريسكوت بكلمة وانما انحنى فوق المريض وادخل يده فى الجرح ، وعندما اخرجها كان يمسك فى اطراف اصابعه بالرفادة الناقصة .

وخيم فى القاعة صمت ثقيل له معناه ، وكتم الجميع انفاسهم ، ثم فرغ بريسكوت من خياطة الجرح دون أن ينطق بكلمة .

وقال أخيرا فى هدوئه العادى مخاطبا طبيب التخدير ، وكان واقفا بجواره :

ـ اظن ان كل شيء على ما يرام .

ولم يوجه ولا كلمة عتاب الى مساعدته ولا الى الممرضة التىاخطأت وتسببت فى هذا الاهمال الكبير . وبعد أن القى نظرة اخيرة الى مريضه خرج من غرفة العمليات من غير أن يلقى نظرة واحدة الى آن ، واستنتجت هذه بانه سارع بطرح هذا الحادث السيىء من ذهنه ، ولكن الشيء الذى كانت لا تدريه هو أن روبرت بريسكوت لا ينسى أبدا شيئا يتعلق بعمله ، هذا العمل الذى كرس له حياته ويقدسه كل تقديس .

الفصل الأول

مضى الآن شهران على آن في مستشفى هيبرتون ولم يأتها من لوسى الا بضع كلمات ، الأمر الذى أصبح مصدر قلق لها . كانت تكتب لهـــا كل أسبوع رسالة او رسالتين ، ولـكن اختهــا لم تكن ترد عليها الا بكلمة أو كلمتين ، وكانت آن تود لو أن ترى لوسى وان تتبادل معها حديثا طويلا رقيقا ، ولكن كان يتعذر عليها في الوقت الحاضر ان تنتقل الى شيريهام ، غير ان لوسى كانت تحصل على اجازة يوم كامل كل ثلاثة أسابيع وكان في مقدورها ان تأتى لزيارتها في مانشستر بكل سهولة ولكنها لم تفعل شيئا من ذلك .

وفي يوم جميل في اواخر مارس جاءها خطاب عرفت فيه مفتاح اللغز ، وهو لغز لم تكن تتوقعه على الاطلاق :

فقد كتبت لها تقول : عزيزتي آن ، سأسبب لك دهشة كبيرة وستصابين بصدمة ، ولكنني أرجو أن يسعدك أن تعرفى انني وجو قد تزوجنا ، فقد فقد جو أباه بعد رحيلك بقليل ، واردت دائما ان أكتب لك بذلك ولكن شواغلي كانت كثيرة ، وقد ترك له ابوه مبلغا لا بأس به ، وكان قد ضاق ذرعا بشيريهام فباع متجره وقرر أن ينتقل الى لندن لكى يجرب حظه . وكان يلح لكى اتزوجه فقبلت أخيرا ومضينا الى لندن لنتزوج . وانا سعيدة جدا ، وجو ظريف وسيلتحق بشركة « سوبر كار » للنقل ، فهذا هو المجال الذى يتقنه والذى يمكنه أن يربح فيه الـكثير من المـال . وقد وجدنا بيتا صـغيرا في موزويل هيل ، واشعر بسعادة كبيرة وأنا أتنقل بين محلات لندن لشراء ما اريد من ستائر وسجاجيد ومفروشات . وقد أهداني جو بمناسبة زواجنا معطفـــا من الفرو دفع فيه مبلغا باهظا وحلية نفيسة . واعرف انك ستغضبين لأنني هجرت مهنة التمريض ، وخصوصا بعد كل الذى بذلته من اجلى ولكن سيسرك طبعا ان تعرفى انني اجتزت الامتحان النهائي بنجاح كبير وانني حصلت على الدبلوم ... تعالى لزيارتنا في اقرب فرصة بقدر ما تستطيعين ، وعنواني هو ٧ شارع التريدا بلندن .

حاشية : جو يبعث اليك بارق تحياته ..
افلت الخطاب من بين أصابع آن وقد ادهشها واحزنها ان لوسى انتظرت حتى ينتهى كل شىء لكى تخبرها بالنبأ . ثم عصف بكيانها حزن كبير عندما فكرت أنها ضحت بنفسها فى سبيل لا شىء ، وأنه يتعين عليها الآن أن تصرف النظر عن المشروعات التى بنتها من أجلها ومن أجل لوسى بكل هذا الحب فقد كانت تأمل أن تتماون مع اختها وأن يكون لهما باع طويل فى مهنة التمريض . ولم تلبث ان ابتسمت ابتسامة ساخنة وهى تتذكر الحب الذى زعم جو انه يكتبه لها . مسكين جو ! .. انه ضعيف ولين ازاء النساء ، ولكن وجهها اضاء فجأة فان هذا الزواج ، بعد كل ، لم يكن أمرا سيئا بالنسبة لجو ... ولا للوسى ، فهى تفيض حياة وثقة وستزود جو بالثقة والأمان وقد تدفعه الى طريق النجاح .
ومع ذلك ، وبعد امعان التفكير سرها ان لوسى تزوجت وأحست برغبة ملحة فى ان ترى اختها وجو وارسلت اليهما برقية تهنئة ، ولم تستطع الانتظار اكثر من ذلك فأسرعت الى مس ايست ، رئيسة المرضات واستأذنتها فى ان تتغيب فى نهاية الأسبوع .
ورمتها المرأة الشرسة بنظرة شذراء وصاحت فى دهشة : عطلة نهاية الأسبوع ! لم أسمع مثل هذا الكلام أبدا ... ولما يمض عليك ثلاثة شهور هنا ! .. وأين تريدين الذهاب ؟ .
اجابتها آن : الى لندن . لكى أرى أختى ، انها تزوجت .
وكانت مس ايست تحقد على آن بطريقة غير معقولة لتسببها فى الحادث الذى وقع فى غرفة العمليات فأسرعت تقول : كلا ، كلا ، هذا محال . انني أشكو من قلة المرضات ولا أستطيع الاستغناء عنك . ربما استطيع تدبير ذلك بعد شهر . ان المستشفى لا تحفل بالزيجات ولا تمنح الأجازات الا لتشييع الموتى ، شريطة ان يكون الموت حقيقة لا من نسج الخيال .
خرجت آن وقلبها مفعم بالمرارة ، واستأنفت عملها ، وزاد فى خيبة أملها أنها وجدت الدكتور كالى ينتظرها فى القاعة .
كان وجه طبيب الامتياز يطفح بشرا وسرورا ، وهو أمر لم يكن يبشر بالخير كمـــــا تعودت آن .. والواقع ان كالى كان طبيبا عادم الأهلية ، نال شهادته الطبية بدرجة مقبول ، ثم خطب ابنة طبيب معروف بمانشستر واتفق على ان يصبح شريكا له فى عيادته التى تدر دخلا محترما وهى فرصة طيبة لكالى الذى كان يعيش فى سعادة

دائمة ، مقتنما بجدارته ومهارته ومزهوا بشكله الوسيم . وأى شخص لا يشاركه رأيه هذا فهو عدو له مقيم ولهذا كان يكره آن .

قال وقد سره انه وقع لها على غلطة : مس لى ، اننى وجدت هذا الكتاب على فراش المريضة رقم ١٢ .

القت آن نظرة على الكتاب الذى بيده . كان عبارة عن رواية جيدة لكاتب معاصر مشهور ، أتت بها هى نفسها للمريضة رقم ١٩ ، وهى امرأة تشكو من ورم خبيث ، وقالت وهى تستعد للدفاع عن نفسها :

ـ انا التى أتيتها به يا دكتور .

قال كالى وهو يعض على شفتيه : آه . انت تعترفين اذن ، ومع ذلك فانت تعرفين اننى منعتها عن القراءة . انها ضعيفة والقراءة تزيدها ضعفا .

قالت آن وهى تبذل جهدا لتحافظ على هدوئها : انها ضعيفة حقا يا دكتور ، بل انها من الضعف بحيث تموت ، ويمكن أن تقضى ما بين لحظة واخرى ، ولكنها تحب القراءة ، وهى الشيء الوحيد الذى يساعدها على الهرب ونسيان آلامها لحظات ، وقد توسلت الى أن آتيها بهذا الكتاب .

رفع كالى ذقنه فى وقاحة وصفق الكتاب فى راحة يده وهو يقول : لا تهمنى كل هذه الاعتبارات ولا يهمنى طلبته أو لم تطلبه . كل ما يهمنى هو ان القراءة ضارة بها .

قالت آن وهى ترفع صوتها شيئا ما ، ولكن دون أن تحتد : ضارة بامرأة تموت بالسرطان ؟ لو انك كنت تحتضر ، أفلا كنت تؤثر أن نمنحك بعض البهجة والسعادة بدلا من ان نعذبك بأن نأباها لك .

اضطرم وجه كالى لفرط الغضب وقال : ولكننى لا أحتضر ، وأمنعك من أن تشبهينى بكتلة اللحم كالمريضة رقم ١٢ . أما هذه الكتاب فسوف إلقيه فى سلة المهملات ، واذا وجدت المريضة تقرأ من جديد فسأبلغ الدكتور سنكلير بشأنك .

كانت آن تغلى من الغضب ولكنها كانت من الحكمة بحيث لم تظهر ذلك واكتفت بأن قالت فى هدوء : حسنا يا دكتور .

أحس كالى بخيبة الأمل وهو يراها لا تحتد فرماها بنظرة شذراء ، وأراد أن يشعرها بثقل قوته ونفوذه فقال فى لهجة لا تقبل الجدل :

ـ ولا تنسى أن تعطى المريضة رقم ١٥ حقنة الميزونيل ... ثلاثة ديسيجرامات فى الساعة الثالثة .

وثبت قلب آن بين ضلوعها . لقد كشف عن نفسه أخيرا ونم عن

جهله وسألته في وضوح : ثلاثة ديسيجرامات ؟ .

لم تنطق آن ولكن ارتسمت على وجهها امارات السخرية والازدراء. وكان كالي يهم بالتوجه نحو الباب ولكنه اذ راى التعبير الذى بدا على وجه آن توقف وتسمر في مكانه . وتركته لحظة نهبة القلق ثم قالت وهي تزن كل كلمة من كلماتها :

ـ ان أقصى جرعة من الميزونيل هي ثلاثة سنتيمترات فقط .

فغر طبيب الامتياز فمه ونظر الى آن مغلوبا على أمره . لم يكن واثقا من جرعاته أبدا ، وغالبا ما كان يمضي الى مكتبه قبل كتابة وصفاته العلاجية لاستشارة دليله الطبى . وكان الميزونيل عقارا جديدا ، وكان يعتقد انه غير مؤذ كالبروموور . واصطبغ وجهه وتمتم متماظما محاولا اخفاء جهله :

ـ ماذا تقولين ؟ انني واثق انك لم تسمعي عن الميزونيل اطلاقا .

اجابته آن وهي تبتسم في رثاء مهين : انت مخطيء في هذا . ان الميزونيل من مشتقات الكودبين ، ومفعوله شديد الخطر ، واذا انت أعطيت مريضا ثلاثة ديسيجرامات منه فمعنى هذا انه يموت اشنع ميتة ...

تمتم : ولكن ...

غير ان آن لم تترك له اية فرصة واستطردت تقول في قسوة بالغة : ثم ان الدكتور سنكلير امر باعطاء المريضة سنتيجرام ونصف فقط ، ويمكنك أن تفحص بطاقتها . ان الدكتور سنكلير قد كتب ذلك بخط يده .

لزم الطبيب الصمت وقد غلب على أمره تماما وتمتم ببضع كلمات غير مفهومة ، ورمى آن بنظرة سوداء . وعندما هم باجتياز عتبة الباب رمته بآخر سهم قائلة :

ـ ولا أظنك على الرغم من ذلك تأمرني بأن أعطى المريضة رقم ١٥ جرعة قاتلة ؟ اننا متفقان في هذا تماما يا دكتور .

ونطقت بكلمة دكتور في سخرية كبيرة . ووجدت عزاءها في كل ما أصابها منه وهي تراه يخرج متعثرا وقد نكس راسه في ذلة ومهانة.

الفصل الثاني

كانت آن قد نسيت عملية بويلي والدور الذى لعبته فيها وذلك بسبب خطاب لوسي والمشادة التي وقعت بينها وبين كالي ، ولكن في أصيل يوم الجمعة من نفس ذلك الأسبوع قالت لها مس جيلسون ،

المشرفة في لهجة رقيقة وهي تعيد سماعة التليفون مكانها :
ـ انت مطلوبة في الغرفة الخاصة بالقاعة (ب) . أن مستر بويلى يريد ان يراك .

كانت المشرفة قد عانت الكثير من المرضات المبتدئات اللاتى يفتقرن الى التجربة والمران ، وقد وجدت أخيرا في آن الممرضة التى تطمئن اليها وتضع فيهـــا كل ثقتها ، وقدرتها لهذا حق قدرها ، وأردفت تقول وعلى شفتيها ابتسامة رقيقة :
ـ لا تخشي شيئا .. لا ريب انه يريد أن يراك في أمر غير بغيض .

ومع ذلك فقد مضت آن الى القاعة (ب) وهى وجلة متوجسة . لم يكن ماتيور بويلى بالنسبة لها أكثر من مريض راقد فوق منضدة العمليات ، ولم تكن تعرف شكله الحقيقي . وطرقت الباب في انفعال وسمعت صوتا يأمرها بالدخول . ودهشت حين دخلت الغرفة ازاء التناقض المجيب بين البذخ والاسراف اللذين تراءهما في الغرفة وبين منظر المستشفى الحقير الموحش ، فقد كانت الزهور تملأ الغرفة ، وكان هناك جهاز راديو فوق طاولة بجوار الفراش وسبت كبير مملوء بفواكه مختلفة نادرة ، ولكن دهشتها كانت أكبر واعظم وهى ترى ماتيو بويلي نفسه ، فقد رات امامها رجلا في الاربعين من عمره ضخم الجسم نشط المظهر خشن الملامح ثابت النظرة يدل مظهره على انه ناضل وكافح حتى وصل . وشد على يد آن في قوة وهو يتفحصها بعينيه الثاقبتين وقال وعلى شفتيه ابتسامة :
ـ يسرني ان أراك يا مس لى . انني سأغادر المستشفى غدا ، ولكنني لم أشا أن افارقها من غير ان اراك . لن اقول لك من الذى قال لي ذلك ، ولكن اصبعى الصغير همس في أذنى بشيء واستطيع ان أقول لك انه لا يرضيني ابدا ان احتفظ برفادة في أحشائي ، فهذا امر غير حميد . أليس كذلك يا مس لى ؟ .

اطمأنت آن واجابت وعيناها تتألقان خبثا : الحق انني اتفق معك في هذه النقطة يا مستر بويلى .

وربت على يدها في رفق وقال : مرحى يا عزيزتى . أرى انك تتمتعين بالحكمة والجمال في نفس الوقت ، وهو مزيج يندر وجوده في المراة ، ولا سيما في الممرضة بالذات ، فان المرء اذا وقع فريسة المرض أو اذا دخل المرض بيته فأن من دواعي سروره أن تعنى به فتاة جميلة لا فتاة هزيلة طويلة القامة عجفاء الساقين .

لم تتمالك آن الا أن تبتسم ولكنها اجابت في تحفظ : ان الفتيات

المجفاوات هن في الواقع ممرضات قديرات .
قال مات بويلي وهو يكشر بطريقة تدعو الى الضحك : هذا ممكن . ربما يكن من أقدر الممرضات ... ولكن ليس من أجل مات بويلي .
وفي هذه اللحظة دقت الساعة ثلاث دقات فتنهد بويلي وأطلق يد آن بعد أن ضغط عليها للمرة الأخيرة في ودّ وقال :
ـ لو انني أصغيت الى نفسي يا عزيزتي لقضيت طوال الوقت اثرثر معك ، ولكن سيأتي الآن اثنان من وكلاء اعمالي للتشاور معي في بعض الامور الهامة ، كان بريسكوت قد منعهما من المجيء قبل اليوم ولكنهما سيعوضان الآن ما فات . انظري الى كل هذه الاوراق المكدسة في آخر الفراش . ولكن اطمئني يا مس لي . سوف أراك فيما بعد فانني لا انسى الصنيع ابدا . وفي انتظار ذلك اليك هذا . ذكرى رفادة منسية .
وتناول من فوق الطاولة لفافة أنيقة ناولها اياها وهو يستطرد قائلا : وعلى الخصوص ولا كلمة واحدة . سوف تشكرينني مرة اخرى يمكنك أن تنصرفي الآن .
خرجت آن من الغرفة وهي تشعر بالدفء في قلبها ازاء كل هذا التقدير . لم يكن هناك اي شك في أن الدكتور بريسكوت قد حدث مات بويلي بأمر الرفادة الناقصة . وسارت بضع خطوات في الطرقة ، ولما لم تر بها أحدا دفعها الفضول الى ان تفتح اللفافة . وتألقت عيناها سرورا وهي ترى حقيبة يدوية من الجلد النفيس . وفتحتها وهي مفتونة وفحصت داخلها وما كادت تفعل حتى تجهم وجهها فقد وجدت في الجزء العلوي منها كيسا صغيرا للنقـــود بداخله ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات .
ووقفت مكانها حزينة والورقة النقدية في يدها . لم يكن هناك شك في أن مات بويلي كان حسن النية ، ولكن هذه المنحة النقدية نمت عن عدم لباقة غير متوقعة منه ، فانه اذ يمنحها هذا الحلوان كأنه يعاملها كخادمة ويبخس الخدمة التي أدتهـــا له . وحرقت النقود أصابعها ورأت أن تعيدها اليه .
ولـكنها ، وهي تهم بدخول غرفة بويلي سمعت وقع خطوات في الطرقة فالتفتت ورأت الدكتور بريسكوت قادما نحوها . ووقفت مكانها مترددة وقد ارتكبت كل الارتباك عندما رآته يفاجئها هكذا والحقيبة والورقة النقدية في يدها .
وكانت نظرة واحدة كفيلة بان يفهم الدكتور بريسكوت ما حدث ،

فقد توقف امامها وقال في رفق .
ــ صباح الخير يا مس لي . أرى انك قمت بزيارة لمريضتنا .
ــ هذا صحيح يا دكتور بريسكوت .
هز بريسكوت رأسه هزة لهـا معناها وقال : ان كرم بويلي يثير الارتباك في أغلب الأحيان ، واني أدرك ذلك حين يتقدني اتعابي .
وعلى الرغم من انها احست بالارتياح لقوله هذا الا انها قالت في شيء من الجهد : الحق يا دكتور بريسكوت انني لا أستطيع قبول هذه النقود .
أجاب الدكتـور بريسكوت في شيء من الابتهاج بدا ثقيلا بعض الشيء من رجل غير معتاد على المزاح : لا تهولي الأمر . ان كل خدمة تستحق مكافأة . خاصة وانك انقذته من رفادة كانت ستبقى في بطنه .
تمتمت آن وهي مطرقة العينين : ولكنني لم افعل الا واجبي . انني احب العمل في غرفة العمليات . وطالما أحببت ذلك .
وساد صمت ، وودت آن أن تعـود لاستئناف عملها ، ولـكن بريسكوت كان واقفا في وسط الطبقة يسد عليها الطريق . وتنحنح لكي يجلو صوته كما لو كان يضايقه أن يثرثر مع ممرضة في طرقة المستشفى ، وهو امر غير مألوف منه :
ــ نعم . انني رأيت انك تباشرين عملك بحب وانني اهنئك على ذلك . اننا بحاجة الى ممرضـات مثلك ، بل بحـاجة قصـوى ، فان احسن طبيب في العالم يقف أعزل اذا لم يجـد بجواره المساعدة الضرورية ، واذا لم يكن واثقا من ان أوامره ستنفذ بدقة . ان اكثر الممرضات لا يدركن أهمية هذه المهنة .
ــ ليتنا نستطيع اقناعهن بذلك .
ارتبكت آن ازاء جرأتها هذه وودت لو أن تستطيع استرداد قولها هذا ولكن بريسكوت لم يبد عليه أنه صدم بعبارتها تلك وقال وهو يبتسم :
ــ أتكونين قد آليت على نفسك تنظيم المجتمع ؟ .
اصطبغ وجه آن واطرقت براسها وقالت : ما كان يجب أن أقول هذا ، ولا ريب انك تعتبرني مغرورة ولكن ...
ــ ولـكن ماذا ؟ .
تمتمت آن وقد ازدادت ارتباكا : انني لا اكف عن النضال من اجل شرف مهنتي .

قال بريسكوت بعد صمت قصير : انني أحب القوم المناضلين الطموحين ، واذا استطعت أن أقدم لك أى عون فسوف أفعل بكل سرور . هناك دراسات صيفية عالية للممرضات المتخرجات قد يكون من مصلحتك متابعتها ، وسأبعث اليك ببعض الموجزات . انني أهتم بكل ما يرفع مستوى مستخدمي الهيئة الصحية .

وكلف الدكتور بريسكوت يتكلم وهو ينظر الى آن في شيء من الاهتمام ، وان كان لا يزال محتفظا بتحفظه . وفارقها وهو يومىء برأسه ايماءة خفيفة ، ومضى الى غرفة بويلي ، في حين عادت آن الى القاعة (ج) ، وقد شجعها هذا الحديث . كان في بريسكوت شيء مباشر وموضوعي أعطاها حماسة وشجاعة . ولكن ورقة العشرة جنيهات ظلت تحرق اصابعها . وبعد أن أمعنت التفكير خطرت لها فكرة . واستخدمت المبلغ في شراء صينية جميلة من الفضة أرسلتها الى لوسي وجو هدية لزواجهما .

الفصل الثالث

ومع ذلك فقد ازدادت أمور المستشفى العادية خطورة ، ففي ذات يوم ، واثناء تناول وجبة الغداء كانت آن تزدرد في اشمئزاز حساء بلحم البقر المسلوق . وكان اللحم دسما أزرق اللون ، ورأت وهي تبعد قطعة لم ترق لها صرصارا في الحساء ، نظرت اليه مأخوذة وهي تغالب الغثيان ، ثم نهضت دفعة واحدة وقد امتقع لونها وخرجت وهي تركض الى دورة المياه حيث افرغت ما في جوفها .

وبعد ذلك بقليل تجمع حولها في صالة العموم بعض المرضات وقد تمردن على الطريقة التي يعاملن بها ، وكان بينهن نورا وجليني ومس دو ومس تود ، وهاتان الأخيرتان فتاتان مجدتان وجريئتان أحبتا آن ، وكان بينهن ايضا مجموعة من أشد الممرضات نشاطا وبراعة ، ولزمن الصمت في بادىء الأمر وان كانت تحركهن نفس الأفكار ، ثم انفجرت نورا فجاة وقالت :

ــ هذا أمر مخز لا يمكن السكوت عليه والا انتهى بنا الى اسوأ من ذلك .

وقالت احدى المرضات : لقد اصيبت مس سميث بذبحة معدية ، وهذا بسبب عدم قدرتها المقاومة ، وهم يسمونها ذبحة استشفائية واولى بهم ان يسموها ذبحة مجاعة ، وقد استغرب

الدكتور بريسكوت وهو يفحصها وصاح يقول : ولكن هذه الفتاة تشكو من سوء التغذية .

وتذمرت مس دو قائلة : ان هـــذا المرض يتفشى بيننا ، فهم يرهقوننا بالعمل كما لو كنا عبيدا ويطعموننا كالخنازير .

وقالت نورا في اندفاع : أنظرن الى آن . لقـــد نحلت ونقصت خمسة كيلو جرامات على الأقل منذ قدومها الى هنا . هذا أمر يدعو الى الخجل .

قالت جليني مازحة : انها تتبع نظاما خاصا للتخسيس .

صاحت نورا بها غاضبة : اسكتي يا جليني ، ليس هذا بوقت للمزاح . لقد قدموا لنا في وجبة العشاء أمس سمكا فاسدا واليوم لحما عفنا وبطاطس اسود لونها ، والبيكون الذي قدموه لنا في وجبة الافطار سبب لنا الغثيان ، وقد مرت بي أيام لم اتناول فيها شيئا مناسبا ، وأنتم مثلي . أيدهشكن بعد هذا أن افاجيء ممرضة تحت التمرين تسرق كوب اللبن من أحد المرضى . أتسمعن ؟ .. لبن وفاكهة .. أننا لم نعد نعرف لهذه الأشياء لونا ... عندما أعطتنا مس شو تلك المحاضرة عن فائدة الفيتامينات منذ أيام كدت ان أصرخ فيها وأقول : كل هذا جميل يا مس شو ، ولكن منذ أن التحقت في هذا السجن لم أر ورقة خس واحدة ولا بسلاية طازجة .

وقالت تود وهي ترفع يديها الى السماء : وما العمل ؟ .

أجابت نورا وقد ازدادت غضبا : سأقول لك ماذا نفعل . سوف نضرب عن الطعام ، لن نقرب ما يقدمونه لنا وسندبر أمرنا بطريقة أخرى . سوف نذهب جميعا ، في الساعة الواحدة والنصف الى محل جيبس ونشترى كعكا وجبنا وموزا ، ونعود لنأكل كل هـــذا تحت نافذة مكتب رئيسة الممرضات ، ولا أظن ان هناك قانونا يحظر ذلك ، وسوف نفعل هذا طوال الأسبوع ، وأؤكد لكن أن هذه العجوز الشمطاء ستضطر أن تتصرف .

قوبل اقتراح نورا الطائش بحماس كبير ، وكانت آن لا تزال مكتئبة وواهنة القوى فلم تستطع أن تحتج . كانت تعرف ان هذه المؤامرة الصغيرة لا يمكن أن تؤدى الى نتيجة وسولت لها نفسها لحظة أن تستشير الدكتور بريسكوت ، ولكنها بعد التروى والتفكير قالت لنفسها انها تكاد لا تعرفه وانه قد يحنقه مسعاها . ومهما يكن فليس له أن يتدخل في هذا الأمر . كانت آن تعلم ان النظام كله خاطيء وانه لـكى تنصلح الأمور تماما لا يجب الرجوع الى رئيسة

المرضات وانما الى مجلس ادارة المستشفى نفسه . والواقع كيف السبيل الى غذاء مناسب والأصناف كلهـا لا تشترى من طريق الجملة وانما عن طريق المناقصات دون أن يتحقق أمين التوريدات من جودتها وتطهى كلها في قدور كبيرة من المعدن لا يعنى بنظافتها فيفقد الطعام نكهته وقيمته . ثم انه لا توجد بالمستشفى ثلاجات لحفظ الأسماك واللحوم بحيث لابد لها من أن تفسد اذا بقيت بضعة أيام ، وهناك مستشفيات كثيرة بهذه الحال ، بل ان هناك أسوأ من ذلك .

وانضمت آن الى زميلاتها في اضرابهن على الرغم من علمها بأن هذا الاضراب لن يفلح . وفي صباح اليوم التالي لم تتناول المرضات شيئا مما قدم لهن في الافطار ، ولم تظهر مس لوكاس ، المشرفة على الطعام ، في ذلك الصباح ولم يلحظ أحد ذلك . وفي الساعة الواحدة والنصف مضت المرضات الى محل جيبس الواقع أمام المستشفى وتزودن بالكعك والجبن والفاكهة ، ثم ذهبن تحت نافذة مكتب رئيسة المرضات وتناولن وجبتهن البسيطة . ولم يحدث هذا العمل أي أثر ، واذ رأت نورا ذلك ألقت عامدة قشر موز على حافة نافذة مس ايست .

وحسبن أن عملهن هذا لم يؤد الى أية نتيجة ، ولكن مظاهرتهن كان لها وقعها ، ففي اليوم التالي ، وفي تمام الساعة الواحدة ظهرت مس لوكاس في قاعة الطعام ، ولما رأت ان المرضات لم يقربن الوجبة التي قدمت لهن نظرت اليهن نظرة صارمة وسألت نورا في حدة :

ـ لماذا لا تأكلين ؟ .

ـ لست جائعة .

قالت المشرفة غاضبة : ما معنى هذا ؟ ان الطعام الذي يقدم لكن جيد .

سألتها جليني في لهجتها الساخرة : وما أدراك ؟ ان الطعام الذي يقدم لكن ، أنتن معشر المشرفات يختلف عن الذي يقدم لنا . انه من نوع أجود بكثير .

انفجرت مس لوكاس قائلة : كفى وقاحة . اذا رفضتن الأكل فسأقدم تقريري الى رئيسة المرضات .

سألتها آن في لهجة بريئة : أتكون عدم الشهية للأكل مخالفة للقانون ؟ ..

ارتبكت المشرفة وأسرعت بالانسحاب فهللت المرضات فرحا ،

ومضين الى محل البقالة واشترين ما حلا لهن ، وفى هذه المرة القت نورا قشرتي موز على حافة نافذة مس أيست .

ومر يوم ثم آخر دون أن يحدث رد فعل ، ولا ريب ان الادارة كانت تأمل أن تخمد الثورة في مهدها غير ان المتمردات كن قد أقسمن الا يعترفن بالهزيمة ، ولكن ما كانت اشد دهشتهن عندما ظهرت مس أيست بنفسها في قاعة الطعام يوم الجمعة .

ظهرت فجأة بعد تقديم الطعام ، وكان مكونا من السمك المسلوق ، واقتربت ، في بطء ، من المائدة وسط الصمت الذى خيم على المكان ، وتوقفت أمام آن وسألتها قائلة :

ــ الا تأكلين هذا السمك ؟ .

نهضت آن في احترام وأجابت : كلا يا مس ايست .

ــ ولماذا ؟ .

سرت في القاعة قشعريرة عند هذا السؤال ، فان آن اذا اجابت بوقاحة واشتكت من نوع الطعام او من طريقة اعداده فسوف تثير لنفسها المتاعب ، بل قد تتعرض للطرد ، ولكن آن اجابت في لهجة مهذبة : انني أوثر أن اشتري من الخارج ما يحلو لي .

وكان ردها هذا يدل على ذكاء كبير ، وقد هنأتها زميلاتها على ذلك فيما بعد . أما مس ايست فقد ارتبكت ولم تدر ماذا تقول ، ورمت آن بنظرة طويلة صارمة ثم دارت على عقبيها وخرجت من القاعة في صمت .

وحسبت المرضات انهن كسبن المعركة ولكن خاب فألهن ، ففي صباح اليوم التالى طالعتهن نشرة فوق اللوحة هذا نصها :

« محظور على المرضات الخروج من المستشفى فيما بين الظهر والساعة الثانية ، ومحظور ، الا باذن خاص ، ادخال اية أطعمة الى المستشفى . التوقيع : اليزابث ايست » .

وتحولت نورا عن اللوحة في أسى وهى تقول : لم يبق امامنا الا أن نموت جوعا أو أن نزدرد طعامهم الكريه الذى تعافه الخنازير .

ولم يسعهن الا الامتثال للأمر الواقع .

الفصل الرابع

والغريب انه على الرغم من اشتراك آن في الاضراب فقد منحتها مس ايست اجازة نهاية الأسبوع . والحق أن رئيسة المرضات لم

تكن ظالمة ابدا ، واذا كانت قد اشتهرت بالقسوة والصرامة فذلك لأنها اضطرت ان تكافح بشدة لـكى ترقى الدرجات من ممرضة تحت التمرين الى ممرضة عاملة فمشرفة فرئيسة ممرضات . كانت ، كما تقول هى نفسها ، فى مدرسة شاقة ، ورأت ان من واجبها أن تخضع الفتيات اللاتى يعملن تحت ادارتها الى نفس التجارب ، ثم انها كانت تصطدم فى هيبرتون بمصاعب جمة ويلاحقها مجلس الادارة بمضايقاته باستمرار ، ولهـذا كانت تطبق نظاما من حديد ، ومع ذلك فقد كانت تعرف ما تعانيه الممرضات ، وكانت تقدر آن بصفة خاصة لتفانيها فى عملها ، ولهذا سمحت لها بأن تتغيب فى عطلة نهاية الأسبوع ، فى بداية شهر مايو .

واستقلت آن القطار وهى تكاد تطير من الفرح لمجرد فكرة انهـا ستلتقى بأختها الحبيبة لوسى . وراحت تفكر والقطار منطلق بها ، ورأت ان الحياة جميلة ، وكانت قد تصادقت خلال الاسابيع الأخيرة مع فتيات كثيرات واحست ، على الرغم من التنكيدات وشروط الحياة القاسية فى المستشفى بانها تتقدم فى مهنتها ، فقـــد اشتركت فى الأسبوعين الأخيرين مع الفرقة التى تساعد الدكتور بريسكوت فى عملياته ، وكانت تحس باعجاب ونشـــاط كبيرين وهى تلاحظ فنـه العظيم ، خصوصا وهو يقوم بعمليات المخ والمراكز العصبية ، وكانت تجد نفسها تفكر فيه كثيرا وتستعرض مهارته الكبيرة وحركته الأكيدة السريعة وهو يجرى بمشرطه فيشق القطع الصغير الذى يفصل الحياة عن الموت . وكان هو من ناحيته يبدى اهتماما بهـا بطريقته المتباعدة المتحفظـة ، فى حـدود مهنته فيعيرها الكتب والنشرات الطبية ، ويرسل اليها التذاكر لحضور المحاضرات الخاصة بالأمراض والبكتريا . نعم ، كانت تحس من نحو الدكتور بريسكوت باعجاب لا حدود له ، وهو الآن أو سيكون حتما من أكبر الأطباء . وراحت تحلم ببلوغ مثل هذا الكمال فى مهنتها هى الاخرى .

ولم تأت لوسى للقائها فى المحطة فدبرت أمرها ولم تلبث ان امتدت الى الحافلة التى مضت بها الى شارع التريدا بموزويل هيل وارتقت درجات البيت رقم ٧ بقلب خفاق واطلقت صيحة فرح وهى ترى لوسى خلف الخادمة البدينة القصيرة القامة التى فتحت لها الباب .

وما هى الا لحظة حتى كانت كل من الأختين تحتضن الاخرى .

وبلغ الانفعال بآن الى حد انها راحت تضم لوسى اليها فى حب وحنان ، ولكن لم يسعها فى آخر الأمر الا أن تطلقها من بين ذراعيها

ثم جلست فى مقعد وراحت تستفسر منها عن اخبارها . كانت لوسى قد امتلأت بعض الشيء ، ولكنها كانت انيقة فى ثوبها المصنوع من التافتاه . كانت ساذجة فى زهوها ببيتها الجديد ومفروشاتها الجديدة وبخادمتها الصغيرة بمرولتها المكشكشة ، وكانت سكرى بدورها الجديد كربة بيت .

وجلست لوسى فى صالونها الصغير امام الصينية التى اتت بها الخادمة وقدمت الشاى لآن فى طقمها الجديد ، وحدثتها عن جيرانها ، وهم اناس ظرفاء وعن المسرحيات والأفلام التى راتها . وطافت بها فى ارجاء البيت تريها كل ما فيه من نفيس وجديد ؛ ولو ان آن لم تكن كل هذا الحب للوسى لابتسمت ازاء هذا التصرف الصبيانى ولكنها تأثرت امام زهو لوسى بما جلبه الزواج لها ، وقالت وهى تأخذ اختها من خصرها :

— كل هذا جميل يا عزيزتى ... يسرنى ان أراك سعيدة هكذا . لا ريب ان احوال جو رائجة اذ يدلك هكذا .

هزت لوسى راسها فى تعاظم وقالت : نعم . لقد حالفه الحظ . اظن اننى حدثتك عن السوبر كارز ، لقد اشترك جو مع تيد جرين ، وهذا الأخير جنتلمان مخلص انشأ شركة نقل بالاوتوبيسات لنقل الركاب ما بين لندن وبريستول وكارديف ومانشستر ... اوه ، على فكرة . سوف تعودين الى ما نشستر فى احدى سياراتنا اذ لماذا تسافرين فى هذه القطارات القديمة النظيفة وهناك السوبر كارز تحت تصرفك ؟ ان السيارات هى المستقبل ، وقد اسس تيد هذه الشركة منذ سنتين ، واسدى جميلا لجو اذ اخذه شريكا بالنصف . وقد وضع جو فى هذه الشركة كل ما يملك لأنها عملية رابحة سوف تدر كسبا عظيما . ستربن يا آن ان اختك الصغيرة ستكون ثرية ذات يوم .

وجاء جو على اثر هذا القول . كان اخرق كالعهد به ، وابدى نحو آن اهتماما كبيرا لم يخل من شيء من الارتباك . ودهشت آن اذ راته تغير هكذا ، فقد كان شاحب الوجه ، متوتر الأعصاب ، تحيط بعينيه هالتان كبيرتان .

قال وهو يضحك ضحكة قصيرة : انك اتيتنا بنسمة من بلدنا الحبيب يا آن واعترف لك بانه يسرنى ان استنشقها من جديد .

قالت لوسى فى فروغ صبر : ما هذا السخف ؟ .

— سواء كان هذا سخفا أم لا فهذا ما اشعر به يا ابنتى . اننى

اعطى الكثير لكى اجد نفسى ، ولو لمدة خمس دقائق فقط ، مرتديا عفريتتى وجالسا فى سيارتى العتيقة فورد منطلقا بها فى شوارع شيرهام .

صاحت لوسى وقد اصطبغ وجهها غضبا : كنت تود اذن البقاء ميكانيكيا طوال حياتك ؟ .

اجاب جو وقد احتد بدوره : ولكننى ميكانيكى ، وميكانيكى بارع .

وبدا الأمر كما لو أنهما على وشك العراك ولكن لوسى بذلت جهدها لـكى تتمالك نفسها وقالت :

ـ حسنا . فى انتظار ذلك ، اصعد واستبدل ثيابك يا جو ، فيجب أن نستعد قبل الساعة السابعة .

صاح جو : كيف هذا ؟ هل نخرج من جديد ؟ .

اجابت لوسى وهى تعض على شفتيها : نعم . سنذهب الى المسرح . انني أريد أن تستفيد آن من اقامتها فى لندن .

تكهرب الجو من جديد ، وتضايقت آن واسرعت تقول : اننى أوثر الا اخرج الليلة وأن أتبادل الحديث معكما ، فلهذا اتيت .

قالت لوسى بلهجة لا تقبل الجدل : بل سنذهب الى المسرح .

والقت نظرة الى جو أدرك منها أن من الأوفق الا يجادلها أكثر من ذلك وأن يصعد لاستبدال ثيابه .

وشاهدوا أوبريت سخيفة تسببت فى ضجر آن . اما لوسى فقد انشغلت عن التمثيل الذى يدور أمامها وراحت تشير الى الشخصيات المرموقة ، والشىء الغريب هو أن جو استمتع بوقته كل الاستمتاع ، فقد تغلب على تعبه وراح يختلف الى البار فى الاستراحات ، فلما انتهت السهرة كان قد ثمل بعض الشىء .

أما لوسى فلم تكل ولم تتعب ، واصطحبت آن فى صباح يوم السبت الى المحلات والى ضجيج شارع اكسفورد وهرجه ومرجه ، وانتهت آن الى رأى هو ان الزواج قد احال لوسى اشد قسوة وان حاجتها الى النشاط فيها شىء من القلق ، وقد احزنها ذلك . وفى المساء ، ذهبوا لتناول العشاء فى مطعم فلاديمير ، وهو مطعم شهير فى شارع ريجنت وكان تيد جرين شريك جو يرافقهم . وقد أحست آن من نحوه بنفور لأول وهلة ، فقد كان بدينا ذا شعر أسود مجعد يبتسم ابتسامة متكلفة ونظرة متباعدة ، وعلى الرغم من انه كان ضيفا على جو فانه هو الذى طلب العشاء والنبيذ .

وهتفت لوسى تقول فى اعجاب : ان تيد هذا يعرف كيف يعيش .

انه نديمنا فى كل سهراتنا .

واحتسى جو وتيد كئوسا كثيرة ، واذا كان تيد قد احتفظ بوقاره المزيف فان جو دفع الحساب وهو فى حالة شديدة من السكر .

ومر يوم الأحد بصورة جميلة ، فقد كانت لوسى متعبة ولم تبد أية ملاحظة مزعجة عندما اقبل جو بعد القيلولة وهو بالقميص وغليونه بين شفتيه وعيناه متورمتان لفرط النوم . وهدأ الجو ولم يلبث الثلاثة أن أخذوا يتحدثون فى حماس عن الماضي وعن أيام شيريهام السعيدة وراحت لوسى نفسها تضحك من قلب خلى . ولما كان اليوم يوم عطلة الخادمة فقد أصر جو ، وهو لا يزال بالقميص ، على اعداد الشاى ومعه بعض الشطائر بالجامبون . وقالت آن تحدث نفسها ان جو ولوسى لم يتغيرا كثيرا على كل حال وان زواجهما قد يكون سعيدا .

ولكن كان لابد لها من الرحيل فى الساعة الثامنة ، وقد مرت عطلة نهاية الأسبوع كالبرق ، ولم يكن يسعها ان تتأخر أكثر من ذلك لأنه كان يتعين عليها أن تستأنف عملها فى الساعة العاشرة من صباح يوم الاثنين ، ولكنها اضطرت رغم احتجاجاتها الى الرضوخ لالحاح جو ولوسى فقد أصرا على أن تعود فى أحد أوتوبيسات الشركة . وقالت وهى تبتسم : ولكن معى تذكرة العودة .

ردت لوسى قائلة : يمكنك أن تستردى ثمنها فى مانشستر . اننا نقدم لك الرحلة مجانا وسنستاء اذا أنت رفضت .

ورافقاها حتى ميدان ترانلجار حيث جاء ، قبيل الساعة الثامنة أوتوبيس أزرق وأصفر ملك للشركة ووقف بجوار الطوار .

وهتفت آن تقول : انه أوتوبيس جميل ، واننى افهم الآن سبب فخركما به .

قال جو وهو يفحصه بعين ناقدة : نعم . لا بأس به . اننا جددناه طبعا وقد كلفنا الكثير ، وهذا ما يدعو الى الكدر مع مثل هذه السيارات ، فعندما يصدر الموديل الجديد فلن يصلح هذا الا للخردة . وذهب الى السائق وتبادل معه بضع كلمات ثم عاد الى الأختين وهو بادى السرور . وقال بعد أن نظر الى ساعته :

ـ اصعدى حالا يا آن ، فقد حانت ساعة الرحيل . ان السيارة غاصة . ثلاثون راكبا . ان الأعمال ليست رائجة هكذا دائما ولا شيء يسوء أصحاب سيارات النقل الا أن يروا احدى سياراتهم تنطلق شاغرة .

عانقت آن أختها مرة أخرى وشدت على يد جو ثم صعدت الى العربة . وانطلقت سيارة الليل وكل من لوسي وجو يهز يده مودعا في ابتهاج .

الفصل الخامس

كان الليل قد هبط عندما بلغوا ضواحي لندن ، ودلفت السيارة الى طريق الشمال ، وكانت سريعة ومريحة ، ومع ذلك فقد تحسرت آن لمجرد لحظة على مرقد القطار حيث كان يمكنها أن تستلقي وتنام ، أما في هذا المقعـــد فقد كان لابد لها من أن تقنع بالنعـاس وهي جالسة .

وفي نحو الساعة العاشرة توقفت السيارة أمام حانة يقدمون فيها القهوة والشطائر ، وكانت السماء تمطر رذاذا في حين انتشر الضباب، ومع ذلك فقد هبط أغلب الركاب ، وأكثرهم من القوم العاديين ، ولحظت آن على وجه الخصوص أما وبناتها الثلاث . وبعد أن انتعش الركاب استأنفت السيارة مسيرتها .

وكانت آن تغفو لحظات قصار ثم لا تلبث أن توقظها هزة . وانقضى الليل ، وفي نحو الساعة الخامسة اعتدلت في مقعدها وهي سعيدة بأن رحلتها توشك على الانتهاء ، فبعد ساعة واحدة تصل السيارة الى ما نشستر .

ومسحت البخار الذي يكسو الزجاج ، ونظرت الى الخارج . لم يكن النهار قد طلع بعد ولكنها رأت أن السماء تمطر مدرارا ، وأحنت رأسها فرأت كأن نفقا يتفتح أمامها ولم يكن هذا النفق الا الطريق الأسود البراق الذي كانت العجلات تطويه طيا . وكانت السيارات والكميونات تلتقى بهم أو تسبقهم .

وفتحت حقيبتها وأخرجت منها زجاجة الكولونيا ، وكانت على وشك أن تستخدمها عندما انزلقت السيارة الضخمة وهي تصدر صريرا شديدا وتزحلقت وتعرجت مسافة خمسين مترا . وأدركت آن على الفور أن السائق لم يعـد يسيطر عليها ، وقبل أن تجـد متسعا من الوقت لـكي تصرخ انعطفت السيارة فجـأة وحادت عن الطريق الزالق وطلعت المنحدر ثم هبطت مسرعة نحو عشرة أمتار واصطدمت بشجرة دردار ضخمة وتحطمت في فرقعة من الزجاج المكسور والمعدن المتطاير ، وانفجر المحرك مصدرا صوتا مصما .

عانقت آن اختها مرة اخرى وشدت على يد جو ثم صعدت الى العربة . وانطلقت سيارة الليل وكل من لوسى وجو يهز يده مودعا فى ابتهاج .

الفصل الخامس

كان الليل قد هبط عندما بلغوا ضواحي لندن ، ودلفت السيارة الى طريق الشمال ، وكانت سريعة ومريحة ، ومع ذلك فقد تحسرت آن لمجرد لحظة على مرقد القطار حيث كان يمكنها أن تستلقى وتنام ، اما فى هذا المقعـــد فقد كان لابد لها من أن تقنع بالنعـاس وهى جالسة .

وفى نحو الساعة العاشرة توقفت السيارة أمام حانة يقدمون فيها القهوة والشطائر ، وكانت السماء تمطر رذاذا فى حين انتشر الضباب، ومع ذلك فقد هبط أغلب الركاب ، وأكثرهم من القوم العاديين ، ولحظت آن على وجه الخصوص أما وبناتها الثلاث . وبعد أن انتعش الركاب استأنفت السيارة مسيرتها .

وكانت آن تغفو لحظات قصار ثم لا تلبث أن توقظها هزة . وانقضى الليل ، وفى نحو الساعة الخامسة اعتدلت فى مقعدها وهى سعيدة بأن رحلتها توشك على الانتهاء ، فبعد ساعة واحدة تصل السيارة الى ما نشستر .

ومسحت البخار الذى يكسو الزجاج ، ونظرت الى الخارج . لم يكن النهار قد طلع بد ولكنها رأت أن السماء تمطر مدرارا ، وأحنت رأسها فرأت كأن نفقا يتفتح أمامها ولم يكن هذا النفق الا الطريق الأسود البراق الذى كانت العجلات تطويه طيا . وكانت السيارات والكميونات تلتقى بهم أو تسبقهم .

وفتحت حقيبتها وأخرجت منها زجاجة الكولونيا ، وكانت على وشك أن تستخدمها عندما انزلقت السيارة الضخمة وهى تصدر صريرا شديدا وتزحلقت وتعرجت مسافة خمسين مترا . وأدركت آن على الفور أن السائق لم يعد يسيطر عليها ، وقبل أن تجد متسعا من الوقت لـكى تصرخ انعطفت السيارة فجأة وحادت عن الطريق الزالق وطلعت المنحدر ثم هبطت مسرعة نحو عشرة أمتار واصطدمت بشجرة دردار ضخمة وتحطمت فى فرقعة من الزجاج المكسور والمعدن المتطاير ، وانفجر المحرك مصدرا صوتا مصما .

غير النار التي اندلعت بغطاء السيارة . ومرت بآن لحظة احست فيها على الرغم من تجاربهــا بالعجز والاعياء ، ولـكنها جزت على أسنانها واستنجدت بكل معرفتها وكل ارادتها ، ونقلوا الركاب ، الواحد بعد الآخر وارقدوهم فوق المنحدر ، تحت الأشجار ، في حمى عن المطر . وهربت امرأة اصيبت بالهستيريا وهي تصرخ . ولم تحاول آن احتجازها وقالت تحدث نفسـها : الحمد لله أنها ليست جريحة . ثم جاء دور طفلة شاحبة شحوب الموت بدا انها تفرغت من دمها وقالت آن : نزيف . الوريد المتوسط ، وعلى الفــور نزعت ايشاربها وربطت به ذراع الطفلة المزق ، ثم جاء شيخ وهو يئن من الألم وقد تهشمت يده تماما . وبينما كان السائق يساعده تحول الى آن وقال :

ـ لم يبق أحد يا آنسة . كنت انا الأخير .

وما كاد يفرغ من قوله هذا حتى خر مغشيا عليه .

وفي هذه اللحظة أقبلت عربة نقل خفيفة لتوزيع اللبن وهي تهتز وتوقفت بجوارهم . ونادت آن السائق بجنون ، وهو فتىً في السابعة عشرة من عمره بدا مشدوها أمام هول المنظر ، وقالت له : كم نبعد من مانشستر ؟ .

أجاب الفتى متلعثما : بينكم وبينها نحو عشرين كيلو مترا .

ـ هل يوجد طبيب في هذه الناحية ؟ .

ـ نعم ، في القرية ... هناك على بعد خمسة كيلو مترات ... الدكتور هاي .

قالت آن وهي تمسكه من ذراعه : اصغ الي جيدا اذن . اصعد الى عربتك واقصد القرية بأسرع ما تستطيع وأبلغ الدكتور هاي بما حدث ، وتكلم في التليفون لـكي يرسلوا الينا عربات اسعاف .

وأردفت تقول بالهام فجائي وقد تذكرت آن بعض الجرحى لا يمكن نقلهم : وتكلم في التليفون مع الدكتور بريسكوت بمانشستر ، ورقم تليفونه هو ٤٣٠٠ وقل له أن يسرع بالمجيء ، وان هناك حادثة رهيبة قد وقعت وانه يجب اجراء عمليات جراحية عاجلة لبعض الجرحى ... وشيء آخر ... هل هناك مسكن على مقربة من هنا ؟ .

ـ نعم . مزرعة رودني وتقع على بعد ربع كيلو متر ، في آخر هذا الطريق ، وانا اعمل فيها .

أومأت آن برأسها . وتوسلت اليه أن يسرع ، ثم تحولت الى أول راكب أنقذته وقالت له : اسرع الى المزرعة وأشرح لهم ما حدث .

وعد ببعض الأغطية والنقالات والمشروبات الساخنة. أجمع ما تستطيع من الناس، وليأتوا معهم بما يجدونه من ألواح خشبية ومصاريع الأبواب وغيرها لكي نستعملها كنقالات. أسرع بالله.

قال الرجل: اعتمدى على يا آنسة.

وراح يجرى بكل ماأوتى من قوة تحت المطر المنهمر.

واذ بقيت آن وحدها عادت الى الجرحى بقلب يعصف بالقلق. لو أن تحت يدها حقيبة بها الاسعافات الأولية!.. وكان كثير من الجرحى واشدهم اصابة قد عادوا الى رشدهم وراحوا يئنون من وطأة الألم. كان في مقدورها أن تخفف من آلامهم لو ان معهـا مورفينا. وجثت على ركبتيهـا، فى العشب المبتل وبذلت جهـدها لمساعدتهم. فبللت منديلها بماء المطر وغسلت الوجوه الشاحبة الملوثة بالدم. وعلى الرغم من ان كثيرين من الجرحى كانت اصابتهم بالغة فان الموت لم يصرع أحدا منهم بعد. وقللت آن تحدث نفسها وقد عاودها الأمل: لو استطيع انقاذهم جميعا... لو استطيع انجاز مثل هذه المعجزة.

وسمعت صياحا واصوات نقالات ثقيلة فرفعت راسها واستطاعت أن تتبين، فى ضوء الفجر الباهت بعض الاشخاص... المزارع وولديه والراكب الذى أرسلته.. جاءوا ومعهم نقالات اعدت على عجل، وبعض الأغطية.

وبعد تفكير سريع رات آن أن تهتم بأشد الحالات خطورة، بالمصابين بكسر فى رأسيهما وبالطفلة المصابة بالنزيف وبالرجل الذى تهشمت يده وأن تنقلهم على الفور الى مكان آمن بعيد عن البرد والمطر. ولعل هذا الاجراء الذى تتخذه شديد الخطورة، ولكنها لم تحفل فان هؤلاء المصابين كانوا فى خطـــر الموت، واذا هى تركتهم يتعرضون لتقلبات الجو فقد تزداد حالتهم خطورة، ولهذا أصدرت أمرها بنقل المصابين الاربعة على النقالات الى المزرعة.

واثبتت الأحداث أنها كانت على حق فان اللبان الشاب لم يعد الا بعد عشرين دقيقة ولم يات بالطبيب معه وقال:

ــ أن الدكتور هاى يعود مريضا. ولكن ذهب بعضهم لــكى ياتى به. أما الدكتور بريسكوت فسوف ياتى حالا. اننى اتصلت به انا بنفسى.

ــ وعربات الأسعاف؟.

ــ انها فى الطريق يا آنسة. ومستشفى البلدية هى التى ترسلها.

ومضت عشرون دقيقة أخرى طويلة قبل أن تصل سيارتان من سيارات الاسعاف ومعهما طبيب مساعد كله حمية ونشاط . وإذ همت آن تشرح له ما حدث اذا بعربة اخرى تأتي مسرعة عرفت في سائقها الدكتور بريسكوت . وكادت أن تبكي من الفرح .

ووثب بريسكوت من السيارة ، وكان يلبس تحت معطفه الثقيل بنطلونا من الفانيللا وصدرية من الصوف ، دليلا على انه ارتدى ثيابه على عجل . هل ذهش حين رأى آن ؟ هذا ممكن . ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك . كان على العهد به متباعدا هادىء الأعصاب كما لو كان يقوم بالتفتيش في احدى المستشفيات . وأصغي الى تقريرها وعيناه في الفراغ ورأسه مائلة جانبا بعض الشيء ، وانطلقت الكلمات من بين شفتي آن وقد وجدت سهولة كبيرة في أن تعطيه هو صورة عن الموقف بدلا من الطبيب المساعد ، لأنها كانت تعرف أن بريسكوت سريع الفهم وانه سيتخذ الاجراءات اللازمة .

وقال يخاطب الطبيب المساعد : اهتم بهؤلاء الجرحي يا دكتور وانقلهم الى المستشفى بأسرع ما يمكنك . أما أنا فسأسرع الى المزرعة مع مس لي ، وهي احدى ممرضاتي ، واذا اقبل الدكتور هاى أثناء ذلك فابعثه الي .

وفي أقل من ثلاث دقائق بلغ هو وآن المزرعة ودخلا المطبخ الفسيح ، وكان المزارع قد وضع ، هو وولداه ، امام النار أربع مراتب رقد عليها المصابون .

ولم يضع الدكتور بريسكوت دقيقة واحدة فجثا وفحص المصابين الاربعة فحصا سريعا ثم نهض والقى نظرة سريعة حوله ورأى منضدة كبيرة من الخشب الأبيض فقال :

ــ ضعوا هذه المنضدة أمام النافذة ، وأريد ماء ساخنا بدرجة الغليان .. بكمية كبيرة ومناشف كثيرة ، وليخرج الجميع الآن .

ثم تحول الى آن وقال في صوت خافت : ثلاثة من المصابين لا يمكن نقلهم ولابد من اجراء عملية عاجلة لهم .

احست آن بقلبها يثب بين ضلوعها . لقد أصابت اذن ، ولكنها لم تقل شيئا . كانت في الواقع على شفا الاغماء وعاجزة عن النطق بكلمة واحدة . وأسرعت الى سيارة بريسكوت وأتته بحقيبتيه وقامت بالاعدادات اللازمة لاجراء العمليات .

ومر بها كل شيء بعد ذلك كما لو كانت في حلم . وكان الامر بالنسبة لها كما لو كان كابوسا مشوشا قامت فيه بدورها كالانسان

الآلي ، تقوم بالحركات الضرورية بدافع الغريزة. خلع الدكتور بريسكوت صديريته الصوف وبقي بالفانيلا ، عاري الذراعين وراح يباشر عمله وهو متوتر الوجه ، وكان الدكتور هاي قد اقبل هو الآخر ، وهو رجل قصير القامة وخط شعره المشيب ، فأخذ من بين يديه قناع التخدير . أما آن فقد كانت نفسها تقوم بعملها بصورة انعكاسية فتعطيه الأدوات اللازمة وتستردها ثانية وتقطع الرفادات وتسبق طلبات الجراح بربع ثانية . واذ رأت مثقب العظام يعمل في رأس أحد الجرحى بعد ازالة شعره منها وصبغها باليود ادركت أنها اصابت في رأيها وان هناك كسرا في مؤخرة الرأس . ولم تدر كم من الوقت مر بهم بعد ان فرغ الدكتور بريسكوت من تربنة رأس المصاب الثاني . هل مرت دقائق ام ساعات ؟ لم تستطع القول . ثم جاءت فتاة من المزرعة وتبرعت بدمهـــا للطفلة المصابة بالنزيف . وكان وجه بريسكوت يتصبب عرقا ولكنه كان دقيقا في استخدام جهاز نقل الدم . وما ان فرغ من الطفلة حتى حول اهتمامه للمصاب الأخير فبتر الذراع المهشم ثم خاط الجرح .

وانتهى كل شيء أخيرا . واتكأت آن على المنضدة غير مصدقة ورأت وجهها أخيرا في المرآة المعلقة لصق الحائط . وكان شاحبا تحيط بعينيها هالتان كبيرتان ، وفي خدها جرح تجمد الدم حوله . وأدركت انها اذا لم تخرج الى الهواء الطلق فسوف تقع على الأرض . وكان بريسكوت يراقبها ورأت ان من الخزي والعار ان تريه مثل هـذا الدليل على ضعفها فتمتمت تقول :

ــ انني بحاجة الى الهواء .

وخرجت من الغرفة ، وفي الفنـاء الفسيح رأت جمعا كبيرا من الناس بينهم بعض الصحفيين اقبلوا من مانشيستر . وانعشها الهواء البليل ، وعجزت عن الرد على الأسئلة التي القيت عليها ، وجاءها شخص بمقعد وكوب من الماء . وكان المطر قد انقطع وطلعت الشمس وسمعت صفارة احد المصانع من بعيد فأدركت ان الوقت ظهرا . وخرج بريسكوت من الدار في هذه اللحظة وقضى بضع دقائق في الرد على الأسئلة ثم شيع عربة الاسعاف . وأخيرا اقترب منها وقال وهو ينظر اليها مقطبا :

ــ سأصطحبك معي يا مس لي ، فليست بي اية رغبة في ان اضيف الى قائمة الضحايا الطويلة ضحية اخرى .

الفصل السادس

قاد الدكتور بريسكوت سيارته فى طريقه الى مانشستر فى بطء وقد خلد الى صمته المعهود من جديد . وكانت آن جالسة بجواره وقد اطبقت عينيها تستنشق فى استمتاع الهواء البليل الذى ينعش وجهها المتورم . وشكرت الطبيب فى قرارة نفسها لاظهاره مثل هذه المراعاة فانها بذلك ستجد الوقت لكى تتمالك نفسها قبل أن تصل الى المستشفى . وكانت تأمل الا تضطرها رئيسة المرضات الى استئناف عملها على الفور . ولكن عندما بلغا المدينة وفتحت عينيها رأت انهما لا ينطلقان فى طريق هيبرتون ، وخمن بريسكوت ما يدور فى ذهنها حتى قبل أن تسأله بعينيها وقال فى صوت خشن . اننى ذاهب بك الى بيتى فانت بحاجة الى الراحة والاستجمام قبل عودتك الى المستشفى ، ثم انه لابد لى أن أهتم بهذا الجرح الذى فى وجهك .

قالت آن مترددة : ولكن كان يجب أن أعود الى عملى فى الساعة العاشرة .

ضج بريسكوت بالضحك ، وكانت ضحكة مرحة خالصة غيرت وجهه الجامد وجعلته يبدو أصغر سنا واكثر انسانية . ولكنه رد الى نفسه فى الحال وقال فى خشونة كما لو كان قد ندم على هذه التلقائية : ما هذا السخف ! .

وانعطف الى ميدان رويال تيراس ، وهى منطقة هادئة بعيدة عن كل ضجة وصخب ، وتوقف امام بيت جميل مبنى على الطراز الجيورجى ، وعاون آن على الهبوط من السيارة ثم أخرج مفتاحا من جيبه وارتقى الدرجات الأمامية للبيت وفتح لها الباب .

وكان يقوم على خدمته فى هذا البيت زوجا من الخدم ، والبيت فسيح جدا لرجل يعيش وحيدا ولكنه ورثه عن أمه . وتقدم آن الى غرفة جميلة فى الطابق الأول تطل شرفتها على حديقة تسطع بها الشمس ، وقال وهو يشير الى اريكة وثيرة :

ــ استريحى هنا . سآتيك بكأس من الشيرى فاننى أرى انك بحاجة كبيرة اليه .

وخرج من الغرفة وعاد بعد لحظات ومعه زجاجة وكأسان ملأ كأسا منهما بالشيرى وأرغم آن على احتسائه ثم صب لنفسه كأسا بعد ذلك وقال بعد أن احتسى ما بها :

ـ كنت بحاجة الى الشراب وانا الآخر . انهـا محنة قاسية . خمس ساعات من العمل في ذلك المطبخ الساخن ، ولكن عزاءنا ان مرضانا سوف يبرأون . لو أننا لم نهتم بهم على الفـور لما كانت هناك اية فرصة في انقاذهم . ولو ان المصابين بالكسر في راسيهما نقلا في عربة الاسعاف قبل أن أقوم بتربيتهما لاهتز المخ وللقيا حتفهما في الحال .

ثم نظر اليها في جد واردف يقول : انني ممتن لك كثيرا يا مس لي ... بل أكثر مما تظنين ، فانك أبديت ثباتا وذكاء وشجاعة لا مثيل لها وقدمت لي عونا لا يقدر .

ثم أمسك عن الكلام وظهر عليه التردد ولكنه لم يلبث ان استطرد كما لو ان دافعا قويا يدفعه رغما عنه : ان المعجزات التي انجزناها صباح اليوم ستكون موضوعا لتعليق الجرائد، ولا أريد على الخصوص ان تسيىء الظن بالدوافع التي تثير اغتباطي بهـذه الدعاية فلست اتمسك بفرض شخصي ولكن قد يكون لها أكبر العون في الأمل الذي كرست له حيـاتي ، وهو تحقيق المستوصف الذي أطالب به بكل الحـاح .

« ان الانطباع الذي ستحدثه هذه الدعاية سيكون له أكبر الأثر في القوم الذين أحاول اقناعهم ، وعلى الخصوص صديقي مات بويلى الذي ما كانت لتؤثر فيه مليون عملية اقوم بها في الظروف العادية .

وان ما أريد أن أحققـه يا مس لي هو انشـاء مستوصف جراحي يتخصص في عمليات المخ والنخاع الشوكي ، فهذا هو غرضي من الحياة ، ولعلك تجهلين ان هناك آلافا من المرضى يموتون كل عام تقريبا لأننا نفتقر الى المعدات الخاصة بعمليات المخ ولان رجالا أغبياء لا يؤمنون بالامكانيات الكبيرة التي تقدمها لنا جراحات الرأس . وسأحصل على نتائج لا حدود لها في الأورام الخبيثة ، بل حتى في بعض عمليات الفصام .

وللمرة الثانية أمسك بريسكوت عن الكلام فجأة وراح يذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا ثم دفع خصلة من شعره تأبى الا ان تسقط على جبينه وعاد يقول :

ـ انني اعتذر يا مس لي اذا استغل صبرك هكذا ، ولكنني لا اجد من ينصت الى بمثل الاهتمام عادة ، بل ان اهتمامك هذا دفعني الى أن انسى انك في شدة الجوع طبعا .

واصر على ان تبقى مكانها فوق الاريكة واحضرت مدبرة بيته مائدة

الطعام بجواره وقدمت لها حساء ساخنا ودجاجا باردا وسلطة خس وبعض الفاكهة ، وكانت أكلة لذيذة استمتعت آن بها كل الاستمتاع ، وكان شراب الشيرى قد فتح شهيتها ، ولم تكن قد تناولت شيئا منذ مساء الأمس ورأت انها تموت من الجوع .

ولكن بريسكوت كان قد استعاد هيئته المتباعدة ورزانته ، واصر على ان تأكل آن كل الانواع ، ولكن فى تحفظ وتوتر ، وقال فجاة وفى شيء من الحدة :

ـ لا ريب انك لاحظت انه ليست لى اية علاقات اجتماعية مع ممرضات هيبرتون ، فانني احتقر جدا الأطباء الذين يرتبطون باية علاقات مع الممرضات اللاتي تستدعى الظروف ان يعملن معهم ، فانني أري انهم بذلك يستغلون ثقتهن ويخونون مثل المهنة .

أومات آن براسها وقد سرها ان تسمع بكل وضوح مفهومها فى هذا الموضوع بالذات ، واجاب فى صوت هادىء :

ـ ان للطبيب عمله وللممرضة عملهـــا وارى الا يلتقيا فى اى مجال آخر .

ثم اردفت تقول وهى تبتسم ابتسامة رقيقة : وهذا لا يمنعني من أن أشكرك على الاكلة اللذيذة التى قدمتها لى .

وكان بريسكوت يفتت خبزه فى حركة ميكانيكية فقال : ان الظروف اليوم كانت غير عادية ، وقد التقينا فى مجال العمل ، وانتهز هذه المناسبة لكى أقول لك مرة أخرى انك انجزت عملا رائعا.

وساد صمت قصير قطعه بريسكوت اذ رأى ان آن قد فرغت من الطعام :

ـ الآن وقد أصبحت فى حال أفضل فسوف أهتم بوجهك : ان فى صدغك جرحا كبيرا ، واذا لم اخطه الآن فسوف يبقى اثره .

وخرج ثم عاد ومعه صينية بها بعض الأدوات الطبية ، ونظف الجرح بالكحول وخدر مكان الجرح ثم لأمه فى موضعين .

وكانت آن قد توترت مسبقا مدركة مبلغ الألم الذى يشعر به المرء اذا ما دخلت الابرة لحمه . ولكنها لم تشعر بشيء تقريبا. وكانت تكره أن يلمسها أحد ، وكان ذهابها الى الكوافير بمثابة عذاب لهـا يجعلها تجز على أسنانها طوال الوقت ، ولكنها لم تشعر بأى شعور بغيض عند ملامسة أصابع بريسكوت لها ، ولا حتى عندما شيعها حتى باب البيت وضغط على يدها طويلا . واتجهت الى المستشفى وهى تعترف دون خجل بأنها وجدت صديقا لها .

الجزء الثالث

الفصل الأول

وكما توقع بريسكوت احتلت أنباء حادث الأوتوبيس الفظيع والعمليات الجريئة التي قام بها في مطبخ المزرعة الصفحات الأولى بجميع جرائد ما نشستر ، وكان الجرحى الذين عالجهم في طريق الشفاء في حين زال الخطر عن باقي الركاب ، وصدرت الجرائد وبها عناوين ضخمة « جراح وممرضة ينقذان ثلاثين شخصا من الموت » . وتكلمت عن آن كما لو كانت بطلة حقيقية ، وتحدثت أشد الجرائد تحفظا عن اطمــاع بريسكوت في انشاء مستوصف لجماعة المخ وأوعزت ان ماتيو بويلي يوافق على هذا المشروع ، وان المستوصف سوف يخرج الى حيز الوجود اذا هو قدم له عونه المالي والسياسي .

وتابعت آن كل هذه الأنباء باهتمام كبير وتمنت من سويداء قلبها ان يحقق بريسكوت حلمه ، فقد أفلح هذا الرجل البارد الصموت في أن يحملها على مشاركته حماسه ، ثم انها كانت تشعر من نحوه بامتنان تام ، فبعد عشرة ايام من عودتها الى المستشفى جنت ثمار بطولتها وذاقت أول نجاح حقيقي لها فمن ممرضة بسيطة في القاعة (ج) ارتفعت الى رئيسة الممرضات الزائرات .

كانت هذه الوظيفة بالذات مطمع الكثيرات ، وعلى الرغم من ان مس ايست قد منحتها هذه الخطوة مكافأة لها على سلوكها الرائع أثناء الحادث ولكي تشكرها على المجد الذي انعكس على المستشفى نتيجة لذلك ، فان آن أدركت تماما ، كمــا ادرك جميع العاملين بالمستشفى ان رئيسة الممرضــات لم تفعل ذلك الا انصياعا لاوامر الدكتور بريسكوت ، وقد اغاظ ذلك الممرضات القديمات طبعا ، وكانت هناك همسات وتلميحات الى « هذه المحظوظة آن لي » . ولكن نسبت ترقية آن على العموم الى جدارتها واستحقاقها .

وكان المعنى من هذه الوظيفة ان الأفق يتفتح أمامها ، فبصفتها رئيسة الممرضات الزائرات ، ومعها ست ممرضات تحت ادارتها ، كان يتعين عليها ان تشرف على الناحية الصحية بالمستشفى وأن تعود

المرضى في بيوتهم وأن تقدم لهم العــــون اللازم وتعنى عند اللزوم بالمرضى الأثرياء في قصورهم الفخمة .

وراحت تفكر في وظيفتها الجديدة ... لم ينتج عن هذه الحادثة البشعة الا كل الخير لها ، ولكن مما يؤسف له انها كانت كارثة حقيقية لجو ، فان شركة التأمين كان في مقدورها ان تعوضه عن الأوتوبيس الضائع طبعا ولكن التعويضات المدنية ستكون خيالية طبعا .

ورأت جو عندما جاء في يوم ١٧ مايو لحضور جلسة التحقيق التي قامت بها وزارة النقل ، وكانت مقابلة قصيرة لم تتجاوز بضع دقائق ، ولكن آن لاحظت ان جو كان شديد القلق ، وكانت مسألة التأمين هي التي تشغله بالذات ، فقد كان تيد جرين يتكفل بالناحية المالية ، ويبدو أنه لم يسدد قسط وثيقة التأمين الخاصة بالأوتوبيس الذى وقعت له الحادثة ، بل ان آن اشتبهت في أن تيد جرين المفرط الأناقة والمسؤول الكلمة الى حد كبير وضع قسط التأمين في جيبه . ولم يقل جو لها ذلك ولكنه حين غادرها لكى يمضى الى المحكمة كانت ملامحه تنطق بالـكثير .

وتأجل التحقيق شهرا حتى يستطيع الصابون الحضور للادلاء بأقوالهم . ولم تر آن جو قبل رحيله الى لنـدن ، وكتبت للوسى رسالة طويلة تعزيها فيها ، وعلى الرغم من انشغالها عليها وعلى زوجها فانها لم تلبث أن جرفتها واجبات عملها الجديد الى حد الارهاق .

أبدا لم تدرك المعنى العميق لمهنتها الرائعة كما ادركتها عندئذ ، فقد راحت تمارس التمريض على الطبيعة فتدخل بيوتا حقيرة ينقصها كل شيء حتى الطعام ، وأكشاكا ليس فيها من المفروشات غير حصيرة بالية ومقعد مخلخل يعيش فيها اناس مقعدون ، ومساكن ثرية أو فقيرة ، يمشي فيها الناس على اطراف اصابعهم ويترقبون في قلق على وجهها بارقة أمل . وعرفت النـداء الملح للحالات العـاجلة ، والطرقة على بابها اثناء حراسة الليل . وكانوا يطلبونهـا في أماكن الحوادث ، فهذا عامل اصيب اثنـاء معركة دارت بين جمـاعة من السكارى ، وهذه ممثلة استغلها منتج خرب الذمة فألقت بنفسها من الطابق السادس ، وهذا موظف بسيط قامر بالمال الذى عهد به رئيسه اليه وحاول أن ينتحر بالغاز ... وادركت ان مهنة التمريض بالنسبة لها جواز مرور ، فان اكثر النـاس شرا وضراوة كانوا يتنحون عن طريقها لكى تمر ، وكان زيها يقيها ويحميها في أكثر الأحياء المدنية ريبة . ورات أسوأ جانب من الحياة ولكنها رأت

اسمى جانب منها فى نفس الوقت ، وكان لهـا أيضا ، بين همومها وعملها العنيف لحظات من المرح والارتخاء التى لولاهم لا تستطيع اية ممرضة الصمود ، ومن بين هذه اللحظات زواج طبيب الامتياز الانيق بمستشفى هيبرتون ، ونعنى به الدكتور جورج كالى ، فقد كان زواجه فرصة لمقلب كبير كان لا يزال يثير ضحكها كلما فكرت فيه .

الفصل الثانى

كانت نورا هى التى أتتهن بالنبا ... نبا زواج جورج كالى ، فقد جاءت الى قاعة المطعم وجلست مكانها ، وبركن من فمها أطلعت الجميع على النبأ السعيد ، ولم يكن هناك أية غرابة فى ان تتكلم بسخرية شديدة ، فقد حلت محل آن فى القاعة (ج) ، وكان كالى يعاملها بنفس الاحتقار ونفس العجرفة .

قالت وهى تاخذ قطعة من البطاطس بشوكتها وتقلد لهجة طبيب الامتياز حين يتكلم فى تواضع زائف ، ستتم حفلة الزفاف يوم الخميس القادم فى كنيسة سانت بوتولف ، وسيعقبها حفل استقبال فى فندق ميدلاند ، وسيقام فى بيت العروس معرض يضم ملايين الهدايا من أوان فضية وكريستال منقوش وغيرها ، وفوق كل هذا جبال من بطاقات الدعوة ... جميع الشخصيات البارزة والنخبة الممتازة من الاهالى . ولكننا لن ندعو الممرضات ... ولا ممرضة واحدة . ربما ندعو رئيسة الممرضات اذا كانت عاقلة طبعا . هكذا قال لى جورج بعجرفته المالوفة . ولم يتكلم طوال اليوم الا عن هذا ، وقد اضطررت الى سماع كل هذا الهذر ونحن ننظف جرحا بعظمة ساق أحد المرضى ولم أستطع الهرب ... انه مغرور وفظ وسمين كالخنزير ومتعجرف . وحين أفكر يا آن فى كل ما احتمله من هذا الوغد بعد أن حللت محلك بجواره أكاد أبكى من الغيظ . وقد اقسمت أن أنتقم منه بطريقة ما ولكن ها هو ذا يفلت منى قبل أن اتمكن من ذلك .

قالت جلينى بتلك اللهجة الحالمة التى تدل على انها تفكر تفكيرا عميقا : نعم . هذا أمر مزعج . ان لى انا الاخرى حسابا عسيرا اريد تسويته مع فخامته .

وسألتها احدى الممرضات : ومن تلك التى يتزوجها ؟ .

أجابتها آن : انه سيتزوج ابنة الدكتور باركين ، وهو أستاذ فى كلية الطب وله عيادة فخمة فى ستالماركت ، من أحياء الطبقة الراقية .

وقالت جلينى فى لهجة خشنة : هذا صحيح ، وهو محظوظ حقا . نصف العملاء وأتعاب مريحة وكل هذا دون أن ينفق قرشا واحدا ، فلا عجب ان يزهو ويتبختر . انني أكاد اجن حين أفكر فى كل هذا .

قالت مس تود : ماذا لو اقتحمنا ابواب الكنيسة واحدثنا ضجيجا لا مثيل له .

اعترضت آن وهي تبتسم : اخشى ان تغلق مس ايست أبواب المستشفى فى وجوهنا .

قالت مس دو : يجب أن نخترع شيئا على كل حال . ماذا لو وضعنا مسحوقا يجعله يهرش طول الوقت أثناء حفل الزفاف . أن من السهل آن نتسلل الى غرفته فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة ، فهو يستحم فى هذه الأثناء ، ويقـــول ان الإستحمام هو تسليته الوحيدة كل مساء .

قالت جلينى : كلا . ان مسحوق الهرش لا يكفي . ولكننى أفكر فى شيء آخر يتعلق بالاستحمام .

ــ وما هو ؟ .

ــ أعنى الحمام الأزرق .

وقوبل هـــذا الاقتراح بصمت مذهل ، ثم ضجت آن بالضحك وقالت : ماذا ؟ .

أجابت جلينى فى رباطة جاش : حمام ساخن بازرق الميثيلين . وقد فعلنا ذلك مرة مع طبيب امتياز بغيض فى مستوصف جرانتون ، وصبغناه باللون الأزرق بحيث بدا أشبه بلون البحر .

قالت نورا فى لهجة حالمة : أزرق الميثيلين ! .. اننا نستطيع أن نحصل منه على ما نشاء من المعمل ، وأنا مكلفة بالعمل فيه بالذات مساء الاربعاء .

تمتمت آن : لعمري ان هذا هو ما يجب ان نفعل .

وكان ان صعدت أربع ممرضات في نحو الساعة العاشرة الى الجناح (ج) وتسلل الى مخزن البياضات ، أمام غرفة الحمـــام ، واختبأن فيه انتظار قدوم الدكتور كالي .

ومر كل شيء كالمعتاد ، واقبل طبيب الامتياز فى نحو الساعة العاشرة والنصف ، ودخل غرفة الحمام وفتح صنابير المياه ثم عاد

الى غرفتــه ينضو عنه ثيابه ويلبس الروب دى شامبر . وسمعته المرضات الاربع يصيح وهو فى غرفته قائلا :
ــ مس دان ... اغلقى صنابير المياه .
وردت عليه نورا تقول على الفور : سمعا وطاعة يا دكتور كالى .
وما هو الا ثوان حتى انقطع صوت الماء ثم سمعن نورا تقترب من مخزن الثياب فى خطوات متلصصة وتهمس من ثقب الباب :
ــ كل شيء على ما يرام . انني وضعت فى البانيو كمية من ازرق الميثيلين تكفى لصبغ مئة رجل . انتظرن اشارتى ثم أسرعن .
وكان مخزن الثياب ضيقا والحرارة فيه خانقة . وكتمت آن هى والمرضات الثلاث الاخريات وهن جلينى وتود ودو انفاسهن ولم ينتظرن اشارة نورا فما كدن يسمعن خطوات كالى متجها الى غرفة الحمام حتى فتحت جلينى الباب . وكانت نورا واقفة تنتظر ، وكانت قد حرصت على تخفيف الاضاءة ، ولكنهن استطعن مع ذلك رؤية كالى ملتفا فى الروب دى شامبر وهو يهم بدخــــول غرفة الحمام فاجتزن الطرقة كلمح البرق ووقعن عليه فى نفس اللحظة التى هم فيها باغلاق الباب خلفه ، واطفأن النور ، وفى لحظة خاطفة كان كالى داخل البانيو بمعطفه . وحاول أن يقاوم وراح يضرب الماء بيديه وان يطلب النجدة ، ولكن عشرة أياد أبدت اهتماما كبيرا به ، ففى كل مرة يفتح فمه محاولا الصراخ كانت تعيد رأسه تحت الماء الذى أصبح لونه أزرق كالحبر ، وكلما حاول المقاومة كلما أعادته تحت الماء وصبغة الميثيلين الزرقاء تفعل مفعولها فى بشرته . وفجأة انتهى كابوسه كما بدأ فجأة . حفيف أثواب ثم صوت فتح الباب وغلقه ، وبقى جورج المسكين وحده يتساءل وهو لا يزال مذهولا أى اعصار أصابه .
وفى صباح اليوم التالى كان المرح يسود بيت المرضات ولم تبد أية منهن أى شكوى ، وعاملت كل منهن الاخرى فى رفــق تام ، وخيم الهدوء فى الجناح (ج) ، ونفذت الاوامر فيه بمنتهى السرعة . ولكن الدكتور كالى لم يظهر . وقالت نورا تخاطب آن وقت الغداء وهى تكتم ضحكة :
ــ هذا غير ممكن . لاريب أننا اغرقناه . انه لم يظهر منذ الصباح .
أشارت آن لها ان تسكت ثم تحولت الى المشرفة وسألتها بكل براءة : مس جيلسون ، أرجو الا يكون الدكتور كالى متوعكا .
أدارت مشرفة القاعة (ج) وجهها الشاحب الى مائدة المرضات وقالت :

ـ يا للفتى المسكين ! أظن انه ليس فى صحة جيدة ، فقد لزم غرفته طوال الصباح ، ورفض أن يتناول طعام الافطار وأبى أن يقابل أحدا ، واظن .. غريب ان يقلب الزواج حال الرجل هكذا .

وأردفت مس جيلسون تقول وهى تهز راسها فى حيرة : والأغرب انه لا يكف عن طلب حجر هش وصابون أسود .

ضحكت جميع الممرضات ضحكة جنونية تدل على الابتهاج الشديد وابتسمت مس جيلسون ابتســـامة متسامحة مقتنعة بأنها نطقت بدعابة غير مقصودة .

وفى الساعة الثالثة من نفس اليوم وقفت جماعة من الممرضات أمام كنيسة سانت بوتولوف ، ولم يكن قد دعاهن احد ولكن مس ايست أذنت لهن بمشاهدة الحفل ، ولا ريب ان المدعوين داخل الكنيسة كانوا كثيرين ، وكلهم من معارف الدكتور باركين ، وكان هناك طابورا طويلا من السيارات تنتظر فى الشوارع القريبة .

وكانت الممرضات ينتظرن وهن على أحر من الجمر . واخيرا دوت أصوات الأرغن معلنة انتهاء الحفل وأمسك الجميع أنفاسهن وظهر الدكتور كالى بعتبة الكنيسة متابطا ذراع عروسه .

وما ان راته آن حتى كادت تقع لفرط الدهشة . كان جورج انيقا جدا فى ثيابه . كانت ياقته ناصعة البياض وكذلك قفازاه ولكن بشرته كانت على العكس من ذلك ، فعلى الرغم من أنه ظل يحك جلده بالحجر الهش حتى دمى فانه كان مبقعا ومخططا . وكان وجهه يبدو ازرق كما لو ان موجة من البرد غيرت لونه وكان يبدو انه لا يزال يرتعش من ذكرى بغيضة .

واثار مظهره الفضول والاشفاق . ونظر اليه الجميع كما لو كانوا ينظـــرون الى ظاهرة عجيبة ، وهتفت احدى النساء : يا للفتى المسكين . ان حالته تدعو الى الرثاء .

وقالت امراة أخرى بجوارها : يبـــدو أنه طبيب . لعله اصيب بحمى خبيثة .

اغرقت هذه الملاحظة الممرضات فى الضحك لفرط ابتهاجهن . ولم يحفلن بالنظرة القاتلة التى رماهن كالى بها . وبقين مكانهن مدة طويلة بعد أن تفرق الجمهور ، يضحكن ويجففن دموع الفرح ويرددن من شخص لآخر :

ـ يا للفتى المسكين ! .. لعله أصيب بحمى خبيثة .

الفصل الثالث

بعد ثلاثة أسابيع وقع حدث على جانب كبير من الأهمية غير مجرى حياة آن ، فقد عهدت اليها ادارة المستشفى بأول عمل خاص ، وادركت انه أصبح لها أصدقاء من ذوى النفوذ .

كان قد سبق لها أن قامت بالتمريض في بعض البيوت ، ولم يكن يتعين عليها هذه المرة أن تبيت خارج المستشفى وانما كان يجب أن تولي بعنايتها احدى الشخصيات البارزة .

والواقع ان ماتيو بويلى طلبها هى بالذات لتعنى بزوجته المريضة ، وقد استدعتها مس أيست الى مكتبها وقالت لهـا بصرامتها المعهودة :

ــ أنت ما زلت شابة يا مس لى للاضطلاع بهذه المسئولية ، ولكن مستر بويلى طلبك أنت بالذات ، والدكتور بريسكوت كبير الثقة فيك ، فأرجو ان تكوني عند حسن ظنهما وأن تحافظى على سمعة مستشفى هيبرتون وتقاليدها .

ــ سأبذل جهدى يا مس ايست .

ــ هذا حسن . يمكنك أن تنصرفي .

عادت آن الى بيت الممرضات لكى تعد حقيبتها ، وكانت فرحة مسرورة لمجرد فكرة انها ترتقي درجات مهنتها سريعا وانتهت من اعداد حقيبتها في ربع ساعة . وفي الساعة العاشرة أقبلت سيارة لكي تنقلها كما تم الاتفاق ، وكانت سيارة فارهة من طراز رولزرويس يرتدى سائقها بزة رسمية مزركشة .

وكان الجو شديد الحرارة والشمس ساطعة وجلست آن في مؤخرة السيارة الفخمة وانطلقت في الشوارع الصاخبة المتربة التى كانت تجتازها مسرعة في العادة مشيا على قدميها ، واضطجعت في مقعدها الى الخلف مدركة مدى الترف والمزايا التي يحققها المال .

وأيد قصر بويلى هذه النظرية ، فقد كان قصرا منيفا ذا أبراج ، يحيط به بستان جميل ومقاما فوق ربوة على بضعة كيلو مترات من مانشستر . وكان كل ما فيه من رياش ومفروشات ينطق بالثراء العظيم وبكل ما يمكن أن يمنحه المال .

وراق لها المسكن الصغير الذى خصص لها ، وكان يقع في الجناح الجنوبي ويجاور غرفة نوم مسز بويلى ، وتطل نوافذه على مرجة صغيرة خضراء . وما ان وصلت حتى جاءتها خادمة وسألتها ان كانت

تريد فنجانا من القهوة ، ولم يسعها الا أن تشعر باحساس الكبرياء المرضية ، فلا شك أن هناك واحات ممتعة في الحياة القاحلة التي تحياها الممرضات ، وما أشد التباين بين هذا القصر المنيف وبين بيوت هيبرتون الحقيرة التي كانت تنتقل بينها قبل ذلك . وبعد أن شربت قهوتها لبست زيها وذهبت الى مريضها .

وكانت مسز بويلي امرأة في الخمسين ، لها شعر أسود وبشرة شاحبة ، ذات وجه عادي وصدر ناهد وفي عينيها أمارات حزن دائم . كانت ترقد في فراش كبير في منتصف غرفة فسيحة شبابيكها مسدلة الى النصف ويحيط بها عدد كبير من القناني والعقاقير . والواقع أن مسز بويلي كانت مصابة بانهيار الأعصاب ، فانها عندما تزوجت ، منذ ثلاثين سنة الشاب مات بويلي ، وكان فقيرا ومغمورا في ذلك الوقت . كانت فتاة نشطة مكدة ، ولكن صعود زوجها كان له أسوأ الأثر على جهازها العصبي ، فقد أحدث الثراء فيهـا ردود فعل لا يعرفها القوم الفقراء . وعلى الرغم من أنها كانت متعلقة جدا بزوجها فانها كانت تلزم الفراش دائما تقريبا وهي فريسة ازمات عصبية لم يكن هناك شك في أن سببها الكفاح الذي اضطرت اليه في السنوات الأولى من زواجها .

نظرت إلى آن مليا وهي منقبضة النفس ثم ما لبثت ان انبسطت أساريرها وقالت : أظن اننا سنتفق يا بنيتي . ان الدكتور بريسكوت قال لي عنك كل خير وأرجو أن يكون مسكنك قد راق لك . اعطني زجاجة الكولونيا وتعالي اجلسي بجواري . تستطيعين أن تدلكي صدغي ونحن نتبادل الحديث .

وأطاعتها آن بطبيعة خاطر ، ولم يمض بها وقت كبير حتى عرفت طبيعة المرض الذي تشكو منه هذه المرأة الطيبة على الرغم من تشددها ، وأحست وهي تمر بيديها على جبين مريضتها بعطف وود حقيقيين نحو المرأة المسكينة .

وفي نحو الساعة الثالثة اقبل الدكتور بريسكوت ليعود مريضته كما يفعل كل يوم . وهو جراح قدير وهذه الحالة بالذات ليست من اختصاصه ، ولكنه كان يعنى بها بسبب الصدمة التي تربطه بزوجها من جانب ، ومن جانب آخر لان مسز بويلي لم تشأ أن يعنى بها أحد غيره . وأعجبت آن بالطريقة التي يتصرف بها بريسكوت مع مريضته . كان يجلس في هدوء وتحفظ ولكن بدون تكلف على حافة الفراش ويصغى اليها جامد الأسارير وهي تذكر له كل العلل

التي تشكو منها . ومع ذلك ، فقد احست آن انه لم يتأثر أبدا بشكاواها . وعندما كانت تبالغ كان يرفع حاجبيه في حركة تغنى عن الكلام . وعندما فارقها أخيرا كانت مسز بويلي داخلها الهدوء والاطمئنان وقد اقتنعت تقريبا بأنها سوف تشفى ذات يوم .

وهبطت آن السلم العريض مع بريسكوت ، وكان يصدر اليها تعليماته . وتحول اليها حين بلغا الباب الخارجي وقال :

ــ هل تذكرين انني سبق أن قلت لك ان الطبيب يهمه قبل كل شيء أن نفهمه الممرضة وأن تساعده ... هذه الحالة بالذات يمكن للممرضة أن تبدأ فيها أكثر مما يبذله الطبيب نفسه ، فانا لا أرى هذه المراة المسكينة الا عشر دقائق كل يوم في حين انك تقضين معها طوال اليوم . ويمكنك أن تؤثري فيها تأثيرا كبيرا ، ولهذا السبب بالذات يسرني أن أراك بجوارها . وعندما اقترح بويلي ذلك رأيت على الفور ان هذه فكرة رائعة .

وأمسك لحظة ثم عاد يقول ، وسوف يكون همتنا لك جدا ، وربما لي أنا أيضا اذا استطعنا أن نخفف آلام هذه المراة المسكينة .

أدركت آن على الفور المعنى الذى تضمره هذه الكلمات . وكان بريسكوت يهم بهبوط الدرجات الأمامية للقصر لكي يركب سيارته عندما قالت له كما لو على الرغم منها : اما زلت تفكر في ذلك المستوصف ؟ .

واصطبغ وجهها ازاء النظرة الحادة التي رماها بها ، وأجاب في شيء من السخرية : نعم يا مس لي ، فعلى الرغم من الدعاية الكبيرة التي تسببت فيها حادثة الأوتوبيس ، فان صديقنا العظيم بويلي لم يصمم بعد على تقديم المبالغ اللازمة لذلك . أوه ، أظن انه يفكر فيها جديا . ان مات بويلي هذا رجل شديد المراس ويأمل أن ينتخبه أهالي مانشستر عمدة لهم . ولعله يخشى ان هو ساعدني في هذا المشروع الثورى أن يصفه المحافظون بأنه راديكالي ، ولكنني أعتقد ... نعم ، أعتقد حقا انه لابد من شيء يسير لكي تميل كفة الميزان في صالحي ، وبما انني أعرف بويلي فانه اذا أراد أن يفعل شيئا فعله كما يجب . أما اذا رفض (وهنا تصلبت عضلات وجه بريسكوت عند هذه الفكرة) فانني لا أرى أحدا في مانشستر يمكن أن يحل محله . أوه ، ولكن لن يوقفني ذلك عن مشروعاتي ، واذا ما رأيت انني لن أصل الى شيء فسوف أبرح المدينة ولهم أن يفعلوا ما يحلو لهم .

ونظر بريسكوت الى ساعته ثم قال وقد توترت ملامح وجهه :
ـ يجب ان انصرف الآن . لا تقتلي نفسك بالعمل . اخرجي وتنزهي في البستان واستفيدي من الطعام الجيد الذي يقدمونه لك فهو يختلف كثيرا عن ذلك الذي يقدمونه في مستشفى هيبرتون .

وعندما اختفت العربة في منحنى الطريق صعدت آن الى مريضتها وهي تفكر في كرم بريسكوت وفي معاملته الطيبة لها . كانت واثقة من انها تدين بعملها الحالي اليه ، وأحست برغبة شديدة في ان ترد له الجميل . كان يشرف مهنته حقا ولا مطمح له الا تلك الغاية السامية التي يواصلها . نعم . سوف تساعده بقدر ما تستطيع وسوف تستخدم في هذا السبيل كل الفرص التي تسنح لها ، وسوف تشعر بسرور وغبطة كبيرين ان هي أفلحت في ذلك .

الفصل الرابع

نظمت آن عملها في أقل من يومين . احست بانها بدات بداية طيبة وبدا ان مسز بويلي تميل اليها ، وكان من المهم أن تحظى بثقة مريضتها وودها .

وفي الساعة الواحدة من يوم الخميس كانت تتهيأ لتناول الغذاء والاستجمام لحظة عندما سمعت هرجا غير عادي في ذلك القصر فوقفت عند البسطة وانحنت فوق الدرابزون لكي ترى ما يدور في البهو ، وعرفت مات بويلي ، وقد عاد من ليفربول حيث قضى ثلاثة أيام لبعض أعماله . وكان خادمه الخاص كولينز يساعده في خلع معطفه السميك بينما كان هو يسأله الف سؤال ، ورفع راسه فجأة فرأى آن فامسك عن أسئلته وصاح :
ـ آه . اهلا أنت يا مس لي ؟ كنت أريد ان أراك أنت بالذات ، ففي مقدورك أن تذكري لي كل ما حدث . تعالي ، أريد منك تقريرا وافيا عن حالة زوجتي .

وبينما كانت آن تهبط السلم على مضض تحول الى خادمه وقال :
ـ ستتناول مس لي غداءها معي اليوم . ستقوم أنت بخدمتنا بمجرد أن أرى مسز بويلي .

وكان من العسير عليها أن تتهرب من هذه الدعوة المفروضة . على أن بويلي لم يترك لها الوقت الكافي للجدال فقد صعد السلم أربعا أربعا ومضى الى غرفة زوجته ثم عاد بعد خمس دقائق وهو يدعك يديه

واصطحب آن الى الصالون الصغير الذى تسطع فيه اشعة الشمس حيث امر ان يقدم الطعام فيه بدلا من غرفة الطعام الفسيحة الفخمة .

ولا ريب ان بويلى أحس بتحفظها فصاح يقول : ما هذا التجهم . انت لست خادمة على ما اعلم ، فانت معنا على قدم المساواة ، ثم اننى دعوتك ، أليس كذلك ؟ .

ثم أردف يقول وفمه مملوء بالطعام : واذا اردت الحقيقة يامس لى ، فانني مسرور بوجودك في بيتى . ولعلك تذكرين حديثنا الاخير في المستشفى ؟ انني قلت لك ان المرء اذا وقع فريسة للمرض أو اذا دخل المرض بيته فان من دواعي سروره أن تعنى به فتاة جميلة . انا الذى أوعزت بهذه الفكرة الى بريسكوت ، وانا الذى اصررت لكى تأتى للعناية بزوجتي .

واستطرد يقول وقد انبسطت أساريره : وعندما تجدين الوقت فسوف تلازمينني .

وأمام هذه الدعوة الفظة لم تدر آن ماذا تقول ، وتمتمت اخيرا :

ـ انني اشكرك لهذه الثقة التى تضعها فى وثق انني سأبذل كل شيء لاستحقاقها .

قال بويلى وهو يهز رأسه فى قوة : انني واثق من هذا يا مس لى . ثم راح يأكل ويتكلم في نفس الوقت ويصر على أن تأكل آن من كل الأطباق ، ولم يترك لها الفرصة لكى تنطق بكلمة واحدة ، وشأنه كشأن الرجال العصاميين الذين بدأوا من لا شيء راح يحدثها عن نفسه فقال انه بدأ كصبي فى شركة للغزل ، وانه أصبح الآن من أصحاب الملايين ولكنه عندما تكلم عن أسرته تجهم وجهه ولم ينطق بكلمة رثاء واحدة بخصوص زوجته ولكنه قال أن ابنه تزوج من غير رضاه بامرأة لا تحتمل وانه لم يبق له الآن أحد لتدليله غير حفيدته روز ، وهى طفلة فى الثالثة عشرة من عمرها وانه يعبدها ويربيها فى أحسن معاهد انجلترا وانها تتلقى دروسها مع أولاد الارستقراطيين . واخرج من محفظته صورة لطفلة بدت لآن هزيلة وشاحبة ، ومع ذلك فقد تكلم بويلى عنها بكل الحب والحنان .

وكانت آن تنظر من وقت لآخر الى الساعة الموضوعة فوق المدفأة ، وعندما دقت دقيقتين اسرعت تقول : حان الوقت لكى اعود الى مريضتى يا مستر بويلى ، فقد انتهت ساعة راحتي .

ــ لا داعي للعجلة يا عزيزتي . اذا تاخرت خمس دقائق فلن يضير زوجتي ذلك .
ولكن آن هزت راسها وهي تبتسم وقالت : كلا .. يجب ان اصعد حقا يا مستر بويلي . ان مريضتي تنتظرني ولن اكون عند حسن تقديرك اذا انا أهملتها .
ونهضت واقفة على اثر ذلك فبدت عليه الدهشة وخيبة الأمل ازاء هذا الحزم ، ولكن لم يسعه الا أن يقف متثاقلا ، وانحنى فوق آن وربت على يدها قائلا :
ــ انت على حق يا ابنتي العزيزة . الواجب قبل المتعة . كان هذا هو شعاري دائما ولن اغيره الآن .
وانفجر ضاحكا ثم اردف يقول : اسرعي اذن وقبلي لي زوجتي . الى الملتقى . أرجو الا ينقصك شيء ، واذا احتجت الى اى شيء فيكفيني كلمة منك .

الفصل الخامس

مر الأسبوعان الأولان سريعا ، ولكن على الرغم من كل جهدها لم تلحظ آن أي تحسن في صحة مريضتها . كانت الثقة التي اولتها مسز بويلي اياها منذ لقائهما الأول جعلتها تتوقع شفاء سريعا ، ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، وانما ، على العكس ، بدت مسز بويلي، متحفظة واصبحت في الأيام الأخيرة صموتة ومقطبة وبذلت آن كل ما في وسعها لكي تدخل اليها البهجة ولكن عبثا . وكانت ترفع عينيها اليها أحيانا فتفاجئها وهي تنظر اليها نظرة فاحصة حذرة . واقلقها هذا المسلك من مريضتها خاصة وانه لم يكن هناك ما يبرره .
وآلمها ذلك لأنها بذلت جهدها لكي تستحق الثقة التي منحها لها أهل الدار واظهرت لهم امتنانها وشكرانها لمعاملتهم لها فانها ما كانت لتدخل صالونها الصغير الا وتجده زاخرا بالزهور وفيه قدح كبير مملوء بالفاكهة من خوخ وعنب او شكولاتة من افخر الأنواع . وقد قالت لكولينز مرارا أن هذا كثير جدا ولكنه كان يكتفي بأن يقول لها انه انما ينفذ الأوامر الصادرة اليه .
وذات يوم ، في آخر الأسبوع ، كانت خارجة من المطبخ وفي يدها كوب من التليو والتقت بمات بويلي ، وكان على عجل اذ كان يتعين عليه أن يحضر اجتماعا بمناسبة الانتخابات الوشيكة ، ولكنه توقف

وابتسم لها في ورد وقال مثيرا دهشة آن لأنها لم تكن تظن انه على هام بمثل هذه التفاصيل :

ــ عصر اليوم عطلتك ، اليس كذلك ؟ لماذا لا تأخذين السيارة . ان احدا لا يستعملها . يمكنك ان تذهبى الى الريف وان تستمتعى بالهواء الطلق .

هزت آن راسها في ارتباك وقالت : لا داعى لذلك يا مستر بويلى .

قال بويلى في مجاملة ثقيلة : ما هذا الهراء ؟ ليس هناك أى سوء فى أن تركبى السيارة وتذهبى وحدك للنزهة في الريف . سأصدر اوامرى لـكولينز . سوف تقطع مثل هذه النزهة رتابة عملك .

ثم حياها باشارة من يده ومضى الى الباب . وتابعته آن بعينيها وهى تشعر بالحيرة . كانت قد التقت ببويلى خلال هذين الأسبوعين مرارا ، وقد سألها اكثر من مرة أن تأتى الى مكتبه وان تقدم اليه تقريرا رسميا عن حالة زوجته . وكان يحدث كثيرا كذلك أن يأتى لتناول الشاى مع زوجته ، حين يكون واثقا من وجود آن الى جوارها ، وقد طلب منها ذات يوم أن تمضى لشراء بعض الأشياء لحفيدته روز ولكن الامر هذه المرة كان مختلفا ، ودفعتها غريزتها دون أن تحدد السبب الى أن ترفض جمائل صاحب البيت ، وقبل أن تذهب بجوار مريضتها هبطت الى المطبخ والغت الأوامر التى صدرت لكولينز باعداد السيارة .

واظهرت هدوءا اكثر من المعتاد اثناء عملها فى ذلك اليوم . وعندما همت بمغادرة الغرفة فى الساعة الثانية سألتها مسز بويلى فى غير اهتمام :

ــ ماذا ستفعلين عصر اليوم يا مس لى ؟ .

ــ أجابت آن وقد اصطبغ وجهها رغما عنها : لا أدرى بعد . ربما اقوم بنزهة قصيرة .

قالت مسز بويلى وهى تحول عينيها عنها : آه .

واستاءت آن لاحمرار وجهها بمثل هذا الغباء ، وحدقت فى مسز بويلى واستطردت : نعم ، سأقوم بنزهة قصيرة ثم اعود واقرأ لحظة ، واذا احتجت الى فسأكون فى غرفتى .

اجابتها مسز بويلى فى برود : كلا . لا اظن اننى سأحتاج اليك .

مضت آن الى البستان وتنزهت فيه كما قالت وهى متوترة الملامح وقد استغرقها الفكر والقلق . وأصابها السير بخير كبير وتناولت كوبا من الشاى وكعكة فى محل للحلوى أمام البستان ، وعندما عادت

كانت قد استعادت هدوءها وراحت تقول لنفسها انها « عملت من الحبة قبة » . واغتسلت ثم ارتدت ثوبا رماديا كان أثيرا لديها ثم استلقت على الأريكة لكي تقرأ . ولم تلبث أن غرقت في قراءة رواية « القلعة » واستهوتها أفراح وأتراح أندرو كريستين .

ومضى عليها وقت طويل وهي تقرأ ، وفي الساعة السابعة سمعت طرقا على الباب فقالت دون أن ترفع رأسها معتقدة ان الخادمة تأتيها بعشائها : أدخلي .

ولكن كان مات بويلي هو الذي دخل ، وصاح يقول وعلى شفتيه تلك الابتسامة الرائعة الحارة المألوفة : لعمرى ، لم أر أبدا منظرا أجمل من هذا ! .

وما أن سمعت آن صوته حتي هبت واقفة فصاح يقول : ما هذا يا عزيزتي ولم هذا الغضب . انني أتيت أعنفك لانك لم تأخذي السيارة .

ألقت آن كتابها ونظرت اليه في برود وقالت : ما كنت أتصور أن أراك تدخل غرفتي يا مستر بويلي .

قال في ابتهاج : ولم لا ؟ أليس لي الحق في أن أتجول في بيتي كما أريد .

وأغلق الباب وجلس في مقعد وهتف في اعجاب : يا الهي ! ما أجملك ! هذه أول مرة أراك من غير زيك الرسمي . أرى أنه يحسن بك الا ترتديه أبدا بعد ذلك .

ابتسمت آن في ضيق وقالت : انني أحب مهنتي كثيرا بحيث لا أستطيع التخلي عنها .

أخرج بويلي من جيبه علبة سجائره واختار منها واحدة في عناية كبيرة ثم نظر الى آن نظرة اغراء وقال : ان فتاة ذكية مثلك تحب عملها الى هذا الحديجب أن تكون طموحة ، اتركي هذه المستشفى فالحياة فيه لا تطاق . انك بحاجة الى ادارة عيادة خاصة ، وانك لتستطيعين أن تكسبي الكثير شريطة أن يمولك شخص .

سألته آن في حدة : ومن يكون هذا الشخص ؟ .

سألها في مداعبة سمجة : ما رأيك في مات بويلي ؟ .

حبست آن كلمات السخط التي تصاعدت الى شفتيها . وجدت نفسها في موقف حرج ، ولكنها لم تكن طفلة بعد ولم تشأ أن تخاصم بويلي أو أن تعاديه مهما يكن الأمر ، ولهذا أجابته في صوت هادىء جدا : قد يبدو ذلك غريبا لك ولكنني لا أهدف الى الكسب أبدا ،

ولي ـ ن لي غير هدف واحد هو تحسين حالة المرضات وان اراهن يشغلن أخيرا المكان اللائق بهن . هذا هو مطمح حياتي .

سألها بويلي على الفور : هل أفهم من هذا انك ترفضين العرض الذي اتقدم به اليك ؟ .

وهبط عليها الوحي فجأة ، فقد عرضت عليها الفرصة لتحويل أفكار بويلي وتوجيهها الى موضوع آخر يهمها . وقالت في هدوء تام :

ـ لماذا لا تعرض على الدكتـــور بريسكوت تمويل المستوصف الجراحي الذي لا يتمنى شيئا غيره .

نزع بويلي السيجار من فمه وقطب وجهه ونظر الى آن نظرة فاحصة وقال : لماذا تهتمين ببريسكوت كل هذا الاهتمام ؟ أتكونين وقعت أنت الاخرى تحت سحره ؟ .

صاحت آن ساخطة : كيف تجرؤ على مثل هذا القول ؟ .

عاد بويلي يقول وهو ما زال متشككا : ألست مغرمة به حقا ؟ .

اضطرمت آن لفرط الغضب والمهانة وقالت : لا شيء يسمح لك بمثل هذا الافتراض . لا يهمني في الدكتور بريسكوت الرجل وانما الطبيب ومهنته .

خيم صمت انبسطت اسارير بويلي خلاله شيئا فشيئا وابتسم في ارتباك وقال : انني اعتذر يا عزيزتي ، ولكن عندما تروق لي امراة اغار عليها غيرة شديدة ، وأنت تروقين لي كثيرا .

أطرقت آن . عذبهـــا موقف بويلي ، ولـــكنها بذلت جهدا كبيرا وابعدت مخاوفها واستطاعت أن تبتسم وهي تقول :

ـ لنتكلم بصراحة ... اعترف معي ان فكرة الدكتور بريسكوت رائعة وانه متقدم على عصره وهو رائد حقيقي في هذا الاختصاص حين أفكر في كل هذه الحيوات التي تضيع وفي كل هذه المخلوقات التي تستطيع انقاذها بفضل عيادته ! .. ما أروع ذلك الدور الذي يمكن ان تقوم به بتحقيق هذا المشروع ! .

انحنى بويلي فوقها واخذ يدها وقال : إيسعدك حقا ان أمول بريسكوت ؟ .

قالت آن في اخلاص : نعم . جدا .

ـ سوف أرى مايمكنني عمله اذن . يجب ان اعطي ردي لبريسكوت خلال يومين ، وسيكون ردي عليه بالتأكيد تقريبا « نعم » والآن ، الا ترين انه لا داعي بعد لان تنادين بمستر بويلي ... ان اسمي ماتيو ... مات للأصدقاء الحميمين .

ونهض وهو يتكلم متكلفا الابتسام وجلس على الاريكة بجوار آن متنهدا :
ـ يا لهذا الانسجام المريح ! ... أتعلمين يا ابنتي انني أشعر بأنني وحيد جدا ؟ .
والقى بسيجارة في الموقد ثم قال : انني ترددت في التحدث معك عن ذلك حتى الآن ، ولكن لا ريب انك أدركت الأمر من نفسك . ان زوجتي ليست بالرفيقة التي تصلح لرجل مثلي . كلا ، كلا . لا تنهضي . انني لا ألومها في شيء وأنا معها وفي ولكن هذا لا يمنع من انني بحاجة الى شخص مرح متفاهم في حياتي ، الى فتاة ، اذا رأيت ما أعنيه ، تجمل اللحظات النادرة التي أتحرر فيها من عناء العمل .
تسمرت آن مكانها لفرط الرعب ونظرت أمامها مباشرة تبذل كل قواها لكي تهرب من الغرفة . أدركت بكل بشاعة بأنها برغبتها في مساعدة بريسكوت وضعت نفسها في موقف فظيع . وحاولت مرة أخرى أن تعيد بويلي الى العقل فقالت :
ـ لا أظن انني استحققت أن تحدثني هكذا يا مستر بويلي .
ـ ماذا تريدين يا عزيزتي ؟ انني رجل صادق وصريح . عندما دخلت غرفتي في المستشفى لأول مرة أحببتك على الفور . ان الممرضات يرقن لي دائما ، فهي مجربات خبرن الحياة . كلا . لا تضطربي ولا تنهضي يا حبيبتي . عندما تعرفينني أحسن ستجدين انني لست رجلا شريرا ، وسوف أغمرك بالمال .
توسلت آن اليه قائلة : أرجوك يا مستر بويلي . ألا ترى مبلغ ما أنا فيه من رعب ؟ .
قال بويلي وهو يضحك ويأخذها من خصرها : الم تعديني أن تناديني بمات ؟ .
وفي هذه اللحظة ، وبينما هو يحاول أن يضمها اليه فتح الباب وظهرت مسز بويلي ، ووقفت تنظر اليهما في صمت . وذهل بويلي وأراد أن يتكلم ولكن قبل أن ينطق بكلمة واحدة قالت زوجته تخاطب آن بلهجة الاتهام :
ـ كنت واثقة تماما من انني سأجدكما هنا ...
واستطردت تقول مقلدة صوت آن : سأقوم بنزهة قصيرة ثم أعود واذا احتجت الى فسوف أكون في غرفتي ... لم يخطر ببالك انني سأعمل بما تقولين . كنت تتصورين انني عمياء ، ولكنني فهمت

لعبتك بوضوح وعرفت آلام تعذيبي . لكن معشر الممرضات جميعا سواء . عندما تمرض الزوجة تحاولن سرقة زوجها تحت سقف بيتها بالذات ، هذه احدى مزايا مهنتكن الجميلة .

ريعت آن ونهضت تحاول ان تحتج بكل قواها ، ولكن مسز بويلي لم تترك لها الفرصة لذلك واستطردت :

ـ لا تنظري الي هكذا أيتها الحرباء . لن تتخلصي من هـــذه الورطة بمثل هذه السهولة . سأفسد مؤامرتك القذرة .

وتحولت الي زوجها وقالت : أما أنت يا مات بويلي فأنت غبي احمق اذ تقع في حبائل هذه الدساسة ، أنت الذي لا تحلم الا بأن تكون عمدة هــذه المــدينة . لا ادري ما الذي يمنعني من اثارة فضيحة . سيكون ذلك جميلا في الجزائد « مات بويلي تضبطه زوجته المريضـــة متلبسا مع احـــدى الممرضات » يمكنك أن تودع العمودية عندئذ الي الأبد .

وكانت تتكلم وهي تقطر سما زعافا بحيث أن رأس بويلي غارت بين كتفيه وتمتم : ولكنك لن تفعلي شيئا كهذا يا عزيزتي .

ـ آه . اتظن هذا ؟ انك مخطيء فانني لم أبق الي جوارك ثلاثين سنة لــكي أرى عاهرة كهــذه تسلبك مني ، واذا قلت كلمة اخرى سأدعو كل رجال الصحافة في البلد ... حتى اذا اضطررت الي بذل قواي الاخيرة .

وكان هياجها وغيظها شديدين . وتحرك رأسها كما لو كانت مصابة بشلل مرعش . وتحولت الي آن وقالت في صوت مختنق :

ـ أما أنت فسوف تغادرين بيتي حالا . وسأتحدث مع مس ايست بشأنك . سأحرص على أن تنالي مكافأتك الحقة .

القت آن نظرة الي مات بويلي . كان جالســـــا منهارا فــوق الاريكة ، وانتظرت ان يدافع عنها وأن يشرح لزوجته انها لم تذنب في حقها بشيء . كانت تعلم ان كل ما يمكن أن تقول لن يعيـــد مسز بويلي الي العقل . ولكن بويلي تحاشي نظرتها ، وعادت مسز بويلي تقول وهي تكاد تصرخ :

ـ اخرجي من بيتي . ماذا تنتظرين ؟ سوف نبعث حقيبتك فيما بعد ، اذا لم تخرجي الآن فسأدعو خدمي لكي يطردوك .

واجهت آن المرأة بهدوء ووقار وقالت : لا داعي لهذا يا مسز بويلي .

احست بانها اهينت وبان كرامتها جرحت بفظاعة ظلم كبير .

ولكن الآن ، واذا لم يعد هناك ما تخشى ان تفقده احست بهدوء غريب يكتنفها ، واردفت تقول فى لهجة ساخرة :
ــ ان اثارة فضيحة لن تكون دعاية طيبة لزوجك .
صاحت مسز بويلي : اخرجي . هذه آخر مرة أقولها لك .
مضت آن الى الباب من غير أن تلقى نظرة الى مات بويلى .

الفصل السادس

كانت الساعة قد أشرفت على التاسعة عندما بلغت المستشفى . وكان المشهد البشع الذى اضطرت الى احتماله قد ارهقها وملأها بالتقزز ، ولم تعد تتمنى غير شيء واحد وهو الا تلتقى بأحد ولكن موليجان الحارس استوقفها قائلا فى دهشة :
ــ مس لى . ماذا حدث لكى تأتى فى مثل هذا الوقت ؟ كنت أتحدث عنك بالذات . هناك رجل يسأل عنك منذ ساعتين ، وعلى الرغم من انني قلت له انك لاتقيمين في المستشفى فى هذه اللحظة فقد ركب راسه وابى الا ان ينتظرك . انه فى صالة الانتظار وهو فى حالة يرثى لها .
ذهبت آن الى غرفة الانتظار على مضض ، وهناك رات جو جالسا وهو بادى الانهيار . وعندما رآها حاول أن ينهض ، ولكنه تعثر ووقع على مقعده . كان شاحب الوجه مشعث الشعر ... ربطة ياقته مفكوكة وتدل حالته على انه مخمور جدا ، وصاحت وقد ردت الى الواقع فجاة : جو ... ماذا تفعل هنا ؟ ماذا حدث ؟ .
أجاب جو فى صوت خشن : كل شيء ... خسرت كل شيء . كان يجب أن اراك يا آن .. انت فتاة نزيهة شريفة .. بارة .. يا الهى ! .
واخذ راسه بين يديه وراح يئن . وقال الحارس ، وكان قد تبعها :
ــ الم اقل لك يا آنسة ... انه حقا في حالة يرثى لها .
تحولت آن اليه على الفور وقالت : ساعدنى يا موليجان وكن ظريفا . ساعدنى فى اعادة ثباته اليه .
واعدت له بمساعدة الحارس فنجانا من القهوة القوية ، ولفت حول راسه ممسحة مبلولة . وخرج جو أخيرا من ضبابه ، وبعد أن انصرف موليجان حكى لآن قصته وهو يئن ويسعل من لحظة لاخرى . وكانت

قصة وجيزة ومحزنة ، فقد أصدرت المحكمة قرارها وأبت شركة التأمين تحمل المسئولية ، والواقع ان جرين لم يكن الا نصابا سوقيا فقد سارع بالهرب ومعه ما تبقي من مال سائل فى الخزانة ، وأعلن جو افلاسه وانتهى كل شيء وخسر كل نقوده .

وراح يقول وهو يتأوه : لم يكن ينبغى أن اترك شيريهام أبدا ، فانني خلقت لـكى أعيش هناك . ان الجميع يعرفوننى . وكان لى أصدقاء مخلصون فى حين انني كنت فى لندن ، تلك المدينة الملعونة ، على الرغم من أناقتى كالسمكة على الشاطيء . وكنت أرتاب دائما فى هذا الجرين . ولكن لوسى هى التى جرتنى الى هذه المغامرة وراحت تطن فى أذنى لكى أنتقل الى لندن ، كل ذلك لأنها كانت تريد بيتا لها وثيابا جميلة ، ولأنها كانت تريد ادهاش الجميع ... ولم أقاومها ولم أقاوم أيضا حين عرضت على أن أتزوجها ، وأنت تعلمين ذلك جيدا يا آن ، فأنت التى كنت تروقين لى وكنت اريد ان أتزوجك أنت لا هى . كنت أوثر أن تنكسر رجلى على أن التقى بها .

قالت آن فى قسوة : اسكت يا جو . انني أمنعك عن التحدث عن لوسى بهذه الطريقة . ولكن أين هى ؟ .

أجاب جو فى مرارة : انها هجرتنى . دب الخصام بيننا ، وعندما عدت من المستشفى قابلتنى أسوأ مقابلة وعنفتنى فطردتها .

وسكت لحظة وهو يستعيد المشهد ثم قال فى لهجة كئيبة : وقد استعادت مهنتها كممرضة .

ــ أين ذلك ؟ .

ــ فى مكان ما من لندن .. أعتقد فى احدى العيادات الخاصة .

أطلقت آن زفرة حارة وقد تملكتها الحيرة . كان يجب أن ينتهى الزواج هذه النهاية فقد أدركت منذ البداية انه لن يكون زواج وفاق لأن لوسى امرأة ذات قلب عنيد ، وجو ضعيف لين الارادة . ولكنها تغلبت على نفسها وتمالكت ، وقالت فى هدوء :

ــ أصغ الى يا جو . ان ما حدث لك امر خطير طبعا ، ولكن ليس هذا بسبب لكى تنهار هكذا . يجب أن تقوم أمورك من جديد ، وستجد عندئذ انه لا مكان هناك لليأس فما رأيك ؟ .

ــ لم يعد امامي الا ان أعمل سائقا . ان شركة التأمين تفكر فى « تعويض » شركتنا ... على الأقل ما تبقى منها .

وسكت ، وبدا فى حالة يرثى لها ثم استطرد : لعلهم يعينونني سائقا لديهم .

قالت آن على الفور : هذه فكرة طيبة . ولعلك تصبح ذا شأن لديهم اذا أنت أبديت لهم كفاءتك .
ـ اتعينني انني يجب أن أدوس على كبريائى وان أطلب وظيفة لديهم ؟ ..
قالت آن فى لهجة يشوبها الود والتشجيع : ولم لا ؟ انني مقتنعة بأنهم سوف ينتهزون هذه الفرصة ويقبلونك على الفور . سيسرهم طبعا أن يعينوا ميكانيكيا قديرا مثلك ، وسوف تعود لوسى اليك عنـدئذ ..
وخيم الصمت لحظة ، وكان جو قد افاق تماما . ولم تكن دموع مخمور تلك التى تصاعدت الى عينيه وهو يقول عندئذ :
ـ أنت فتاة لطيفة يا آن . كنت اعلم انك وحدك تستطيعين انقاذى من ورطتى . سلام على الشراب من اليوم ، وسأذهب الى شركة التأمين وأطلب منهم عملا حتى ولو اضطررت الى الزحف أمامهم . وسيرون اننى لم انته بعد .
ـ مرحى يا جو . هكذا يجب أن يتكلم الرجل .
نهض جو متثاقلا وعدل قامته وشيعته آن حتى الباب العمومى ، وهناك شد على يدها طويلا ووعدها أن يبقى على أتصال بها وأن يكتب للوسى ، ثم مضى فى طريقه ولم يلبث ان ابتلعه الظلام .
نظرت آن اليه وهو يختفى . لم تدعه لحظة واحدة يحدس انها تواجه أخطارا جسيمة ، ولكن ما أن بقيت وحدها حتى عاد المنظر الأليم الى ذهنها بصورة حادة ، وعندما بلغت غرفتها ببيت المرضات وجدت رسالة من رئيسة المرضات تطلب فيها المثول اليهادونتأخير .

الفصل السابع

لم تقل آن أبدا لأى أحد ما دار بينها وبين رئيسة المرضات فى تلك المقابلة الليلية . كانت مس ايست امرأة واقعية قبل كل شىء ، وعلى الرغم من انها ارتابت فيما حدث ، وعلى الرغم من اعتقادها التام ببراءة آن فانها لم تظهر شيئا من شعورها ، وكان كل ما تريد هو تجنب الفضيحة قبل كل شىء . وقد أبلغتها مسز بويلى انها اذا لم تطرد آن من المستشفى فسوف تثير هى الفضيحة ، وبهذا لم يكن أمامها غير حل واحد وهو ان تطرد آن .
على انها قبل أن تنهى اليها القرار الذى لابد من اتخاذه ضدها

قالت لها ان من الغباء الوثوق برجل مهما يكن مركزه ، وهدمت في بضع كلمات تلك الأسطورة القائمة على أن الممرضات لا يفكرن الا في شيء واحد وهو سرقة أزواج مريضاتهن ، وتكلمت أخيرا في رفق وقالت لأن انها اذا أقسمت على ان تحتفظ بالامر سرا فانها تصرح لها بأن تقدم استقالتها بنفسها بدلا من أن تطرد شر طردة .

ماذا يمكنها ان تقول ؟ ادركت انه لابد لها من ان تنحني . وفي صباح اليوم التالي عرفت كل المستشفى في دهشة ان آن قدمت استقالتها وانها ستترك وظيفتها بعد شهر .

وامطرتها كل زميلاتها بالأسئلة ، ولكنها لزمت الصمت ولم تذكر شيئا حتى لصديقتيها نورا وجليني . ولم تلبث ان جرت اشاعة بأن آن تغادر المستشفى لأسباب عائلية . وباشرت آن عملها وقد اثقلتها هذه الضربة التي رماها بها القدر ظلما . وكانت لا تزال تأمل في البداية أن يصلح بويلي الأمور ، ولكن هـذا الرجل الشقي الجبان كان مذعورا من تهديدات زوجته فحرص على الا يتحرك فلم تلبث أن تخلت عن كل أمل .

ولم تلتق بالدكتور بريسكوت ولا مرة واحدة خلال الاسبوع الذي تلا الفضيحة . وصادف أن قابلها في الطرقة وتجاهلها . ولكن في يوم الأربعاء من الأسبوع الثاني عينت لمساعدته في اجراء احدى العمليات . وبينما هي تساعده في خلع جاكتته في غرفة الملابس قال من غير أن ينظر اليها ، بذلك الصوت الجاف المعروف عنه :

ـ علمت انك تتركين المستشفى لمكان آخر .

أجفلت آن عند سماعها لهجته الجارحة ولكنها تغلبت على نفسها وأجابت في هدوء : هذا صحيح يا دكتور .

ـ وأين تذهبين ؟ .

ـ الى لندن ... ففيها أختي ... ولأسباب عائلية ...

وسكتت وأطرقت وقد عجزت عن قول المزيد . وكان الصمت الذي التزمه مثقلا بالاحتقار . واخذ المسحة التي ناولته اياها وجفف يديه طويلا ، فاحصا كل أصبع من أصابعه بعناية تامة ثم تكلم في الصميم فقال :

ـ انني لا اهتم أبدا بهذيان مسز بويلي فهي مريضة باعصابها . ولكن يجب أن أشكرك لاهتمامك بشئوني . وغرضك كان نبيلا بلا شك ولكن اعلمي انني لا أسمح لأحد في العالم كله بالتدخل في شئوني ، ولممرضة على الخصوص .

تمتمت آن : انني آسفة يا دكتور .
قال بريسكوت في سخرية لاذعة : أود لو اصدق ذلك . ومهما يكن فان تدخلك قد ضيع على فرصتي في أن يكون لي مستوصف بمانشستر ولم يبق الا أن أشكرك على ذلك .
جف حلق آن ، ولم تستطع أن تنطق بكلمة . واطرقت برأسها وهي تكبح دموعها . وخيم صمت ثم ختم بريسكوت حديثة قائلا :
ـ لا أعرف شيئا عن مشروعاتك ، ولا أريد ان أعرف عنها شيئا ، ولكن أظن انك اذ تغادرين هيبرتون في هذه الظروف ستجدين بعض الصعاب في الحصول على وظيفة مناسبة ، ولكنني أعترف بأنك قمت هنا بعمل جيد . قدمي هذا ، من طرفي ، لرئيسة ممرضات مستشفى ترافلجار بلندن ، وستعينك بالمستشفى بناء على توصية مني . الى الملتقى يا مس لي .
أخذت آن المظروف الذي أعطاها اياه وهي في حالة بالغةمن الانفعال .. ولكنه لم يمد لها يده . واذ رأت ذلك خرجت دون أن تنطق بكلمة تدافع بها عن نفسها . والتقت بمس كار في الطرقة واستوقفتها هذه الاخيرة في فضول طبيعي :
ـ ماذا حدث يا آن . هل كان بريسكوت بغيضا معك ؟ .
واذ هزت آن راسها استطردت مس كار تقول : ان من يراك يعتقد ذلك . انه كان بغيضا معي اليوم . وهذا لا يدهشني منه على كل حال . له أن يقول كل ما يشاء ولكن لابد انه حزين لانه يترك المستشفى .
صاحت آن مشدوهة : أيترك المستشفى ؟ .
ـ الم تعرفي ذلك . انا نفسي لم اعلم الا منذ قليل . سمعت بريسكوت يتحدث عن ذلك مع الدكتور سنكلير قبل اجراء العملية . أن بويلى يرفض أن يتبرع بالمال لانشاء مستوصف جراحي . وقد سمعته يقول لسنكلير : كفاني ما يضعونه أمامي من عراقيل . سأعيش مئة سنة من غير ان يمنحني احد فرصتي . سأذهب لكي أناضل في مكان آخر .
ذهلت آن وهي تسمع هذا النبأ العجيب ولم تدر لاى سبب قرر بريسكوت مغادرة مانشستر ، ولكنها أحست في غموض بأن تدخلها المزعج قبل بويلي ساهم في أن يأخذ هذا القرار . ومن غير أن تعلق بكلمة فارقت المشرفة التي وقفت تتابعها بعينيها وهي مشدوهة .
واذ عادت آن الى القاعة (ج) جلست في ركن من غرفة الخدمة ،

وهناك وقعت عيناها على الخطاب الذي في يدها ، فراحت تقراه آليا . كان بريسكوت يوصي بها بحرارة لشغل وظيفة مشرفة شاغرة حاليا في مستشفى ترافلجار .

وكان هذا كثيرا لآن . وكان قد طفح بها الانفعال . مرة أخرى انهار كل شيء حولها . وتضاربت مشاعرها المتباينة . ولم تستطع أن تتغلب على نفسها فراحت تبكي وقد بلغ بها اليأس مداه .

الفصل الأول

لندن فى يوم قارس من أيام الشتاء : سماء مكفهرة داكنة تثقل على آلاف البشر . وفى صخب حركة المرور الواسعة تسير أوتوبيسات مشحونة بالركاب وتتسلل سيارات الأجرة بينها ، فى حين يهرع ملايين من الأهالى الى أعمالهم . لم تفقد المدينة شيئا من عظمتها وسحرها بالنسبة لآن ، فقد كانت فى أجازة اليوم بالذات وانتهزت الفرصة لكى تلتقى بأختها ، وراحت تنظر حولها وهى مبهورة مفتونة ، وتقارن هذه المدينة الصاخبة بميدان حرب كبير تقوم هى فيه أيضا بمعركتها الخاصة .

كانت قد عينت بمستشفى ترافلجار ، فان مس ملفيل كبيرة الممرضات ، وهى امرأة طويلة القامة نحيلة العود كريمة الأخلاق كانت صديقة حميمة لوالدة الدكتور بريسكوت ، وما أن قرأت رسالة هذا الأخير أصبح تعيين آن مجرد شكليات ، واحتفظت آن من هذه اللحظة بذكرى جميلة ، وكان عزاؤها الوحيد بعد رحيلها الاجبارى من مستشفى هيبرتون تعيينها مشرفة فى قاعة بأكبر مستشفيات لندن ..

ومستشفى ترافلجار مستشفى حديثة تقع فى حى الستراند فى قلب المدينة ، وهى بناء ضخم مزود بأحدث الأجهزة العلمية والطبية . ولم يكن قد مضى على آن فيها أكثر من اسبوعين ، فلم تندمج بعد مع نظم وأساليب ميدانها الجديد . وكانت مشغوفة بالجراحة ولذلك أحست بخيبة أمل عندما اكتشفت أن قاعة بولنجبروك التى عينت مشرفة عليها طبية ، ولكن بدا أن رئيسها الدكتور فيرنى يقدرها وأن الممرضات والعمال الذين تحت ادارتها يتعاطفون معها وبدأ الجرح الذى أدماها فى تجربتها المحزنة بمانشستر يلتئم .

ومع ذلك فقد بدا عليها القلق والانزعاج وهى تمضى فى طريقها الى بلاك كات ، وهى صالة شاى تواعدت على اللقاء فيها مع لوسى ، ولكن ما ان رأت أختها حتى انبسطت اساريرها وحثت خطاها

وضمتها الي صدرها في حنان وهي تقول : لوسي ، ما أسعدني برؤيتك . كنت اخشي ان تكبديني خيبة أمل جديدة .

قالت لوسي وهي تبتسم : في المرة الاخيرة لم يكن الذنب ذنبي ؛ فقد انيط بي عمل عاجل في العيادة في آخر لحظة .

تغيرت لوسي منذ الأيام البعيدة التي كانت تهيمن فيها على بيتهـا الصغير في موزويل هيل . كان يبدو أن فيها شيئا من القسوة وشيئا من الحذر من الحياة . كان وجهها الجميل مصبوغا الى حد كبير وثيابها أنيقة جدا ولحسن الحظ ان آن لم تدرك ذلك ولكن كم يكون جزعها ودهشتها في نفس الوقت اذا علمت ان اى رجل ما ان ينظر الى لوسي حتى يضعها على الفور بين طبقة الفتيات التي يمكن قضاء وقت طيب معهن .

وسألتها آن قبل أي شيء آخر : ألديك انباء عن جو ؟ .

هزت لوسي رأسها ثم استدركت قائلة : نعم . لدى انباء عنه ، فهو يلح في أن أعود اليه ؛ ولا شيء أبغض الي من ذلك يا آن ، فهو يسوق أوتوبيس كما لو كان سائقا سوقيا بعد كل ما كان لدينا أو بعد كل ما كان يمكن أن يكون لدينا ... بيتي بكل ما فيه من أثاث ومفروشات ، كل هذا طار بسبب حماقته . لن أغفر له أبدا ، ولن أعود اليه بأى حال . انني لم اخلق للزواج أو على الاقل لهذا الزواج بالذات . انني افضل أن أدبر أمري بنفسي ، ومهنة الممرضة لها ميزاتها ، وفي المكان الذى أنا فيه الآن اكسب عيشي جيدا .

فكرت آن لحظة قبل أن ترد . كان يمكن أن تترافع عن جو ولكنها رأت الا تفعل شيئا من ذلك في الوقت الحاضر لأن لوسي بكلماتها الأخيرة اثارت مسألة ازعجت اختها ، وقالت مترددة :

— في هذا الموضوع بالذات اردت أن اتحدث معك . لا اريد أن اتسبب في حزنك يا عزيزتي ، ولكن كسب المال ليس كل شيء .

قالت لوسي على الفور : أوه . هل تعودين الى هذا الموضوع ثانية ؟ ..

— لابد من ذلك ، فانه يقلقني أن أراك تعملين في هذه العيادة التي لا تتمتع بسمعة طيبة .

— لا تضايقيني بهذه القصة بحق السماء . انك حقا « دقة قديمة » . كل هذا لأن رولجريف عيادة خاصة وليست من المستشفيات العامة ، ولأنك كنت تريدين أن أعمل معك . ولا اخفي عنك شيئا فعندما تخلى عني جو قررت أن أدبر امور حياتي وحدى وبقدر ما استطيع .

والعجوز سوليفان ، بعيادة رولجريف تنقد الممرضات ثلاثة اضعاف ما تنقـــده المستشفيات لهن ، والزى من الحرير الطبيعى والأكل ممتاز ، وهى تختار المرضى بشكل دقة . وانا منذ اسبوع الممرضة الخاصة لايرين دالاس نجمة السينما المعروفة ، ولعلك سمعت عنها . وهى تفكر في أن تصحبنى معها الى كاليفورنيا . ثق أن تصدقيني ، أنها لفرصة كبيرة أن تعمل آية ممرضة فى عيادة « رولجريف » فان شتى الامكانيات تتفتح لها هناك ... فى كل المجالات ... ولكن لماذا احاول اقناعك ؟ انك لا تحبين ابدا الميادات والمنتجعات الخاصة .

قالت آن فى هدوء : ليس هذا صحيحا ـ ولكن لدى أسبابى لكى أرتاب فى عيادة رولجريف .

ولم تزد خشية ان تثير حنق لوسى . ولكن صمتها كان له معنى أكثر من الكلمات ، فان رولجريف كانت عيادة فخمة فى حى مايفير وتتمتع بسمعة مشكوك فيهـا . وكانت مسز سوليفان ، صاحبة العيادة تفرق ممرضاتها بالمال ، وهى الوسيلة الوحيدة للحصول على الممرضات ، ولم يكن يرضى بالعمل فيها غير الفتيات الطماعات اللاتى لا يردعهن ضميرهن . والواقع ان العيادة كانت فى القائمة السوداء ، فقد كانت من تلك المؤسسات التى تجرى فيهـــا بأثمان باهظة نوع العمليات التى يحرمها القانون وحيث المدمنون والفاسدون يحصلون على المخدرات التى لا يمكنهم الحصول عليها فى أى مكان محترم . ومنذ ان عرفت آن أن لوسى تعمل فى هذه العيادة وهى تعيش فى خوف دائم من فضيحة تنعكس عليها .

وكانت لوسى هى أول من قطع حبل الصمت فقالت : ليس هذا جميلا . اننا لم نر بعضنا البعض منذ أسابيع واول شىء تفعلينه القاء موعظة .

قالت آن فى حنــان وهى تنحنى فوقهـــا : كلا يا عزيزتى . انمـــا أتيت أعرض عليك اقتراحا . اتركى عيـــــادة رولجريف وتعالى معى . ان عندى وظيفة شاغرة ، وقد تكلمت مع مس ملفيل فى هذا الشأن ، وهى موافقة . اتركى هذا المـكان وتعالى معى . ان الحظ يبتسم لنا يا لوسى . أننا عرفنا حلو الحياة ومرها ، ولكننا الآن فى لندن ، فى قلب كل شىء . وقد ذهبت فى الاسبوع الماضى الى « اتحاد الممرضات » والتقيت بمس جلادستون السكرتيرة . وقد جمعت هناك معلومات جمة ، ويمكننا أن نعمل أشياء كثيرة معـــا يا لوسى ، اذا اردت . أرجوك ، أتركى رولجريف . ان قلبى يمتلىء

رعبا لمجرد فكرة انك تعملين هناك .
لم تجب لوسي على الفور ، واخذت تلعب بملعقة الشاي . واخيرا قالت في دلال واصرار :
ــ هذه مكرمة منك يا آن ، ولكنني لا ارى الامور كما ترينها انت . انني أعرف انه ليست لديك الا فكرة واحدة وهي تحسين اوضاع الممرضات ، ولكن سيتم ذلك بعد مئة سنة ، وسنكون قد لقينا حتفنا معا عندئذ منذ وقت طويل . كلا . انني اريد ان استمتع بحياتي . ما فائدة الحياة من غير المال .
أتت آن بمحاولة أخيرة فقالت : لعلك تجدينني سخيفة بالحاحي هذا ، ولكنني اسالك للمرة الأخيرة أن تتركي زولجريف .
هزت لوسي رأسها نفيا وقالت في حدة : انني آسفة . لن أفعل شيئا من هذا .
تكلمت لوسي بلهجة لا تقبل الجدل . وكانت آن تعرف أختها وادركت ان الالحاح أكثر من ذلك لن يأتي بأية فائدة فسكتت لحظة ثم استدعت الجرسونة وسددت الحساب . وكانت عابسة الأسارير ، واذ رأت لوسي أفلتت من بين شفتيها ضحكة قصيرة وقالت وهي تلبس قفازيها :
ــ دعك من هذا الوجوم يا عزيزتي . ساصطحبك الى السينما ، فان مس دالاس اعطتني تذكرتين لسينما الامبير ومبلغا صغيرا لتغطية النفقات . انها مدهشة ... عندما لا تكون مخدرة .
وضحكت وهي تقول ذلك ثم استطردت : تعالي يا حبيبتي . سوف نستقل سيارة أجرة ونقضي وقتا طيبا .
نهضت آن وهي تغالب نفسها لكي تبتسم وتبعت أختها وقلبها مثقل بالقلق ، وكانت لوسي قد استوقفت سيارة أجرة بحكم العادة

الفصل الثاني

في صباح اليوم التالي قامت مس ملفيل بالفحص الأسبوعي لقاعة بولنجبروك ، وكانت تتألق نظافة ونظاما . وسرها ذلك ايما سرور . وكانت آن قد قامت بالتجول معها ، وفي البهو تخلت مس ملفيل عن وقارها الارستقراطي وقالت في لهجة ودية :
ــ انني قمت بعمل طيب يا مس لي ، وانا شاكرة للدكتور بريسكوت اذ اهداني بك . وبهذه المناسبة ، اظنك تعرفين انه عين رئيسا بقسم الأمراض العصبية بمستشفى سانت مارتن .

وثب قلب آن بين ضلوعها ، ولكنها تمكنت من التغلب على انفعالها وقالت فى صوت هادىء : لم اكن اعلم انه فى لندن .

قالت مس ملفيل فى تسامح : كنت واثقة من ذلك . واستطيع أن أؤكد لك ان تعيينه قد أحدث تأثيرا كبيرا . وقد اتخذ عيادة له فى شارع ويمبول ، وسيلقي محاضرة عن جراحة المخ فى مؤسسة ليستر الشهر القادم . وقد قال لي الدكتور فيرنى ان نظرياته ستثير ثورة وان أعماله متقدمة كثيرا عن أعمال فون كرنيج ، الجراح النمسوى الكبير الذى كان هنا فى العام الماضي . ولا يمكن أن تعرفى مدى سرورى بذلك ، فانني عرفت بوب بريسكوت وهو ما زال طفلا صغيرا .

لم تنطق آن . أحست بسرور كبير عندما عرفت ان بريسكوت موجود فى لندن وان تخلي بويلي عنه لم يسبب له أى انهيار وانه ينطلق من جديد لكي يحقق أمنيته . وانتظرت أن تستأنف مس ملفيل حديثها عنه ولكن رئيسة الممرضات استعادت هيئتها الرسمية ، وراحت تتكلم عن العمل . وفيما هما تجتازان البهو عادت تقول :

ـ يؤسفنى أن أختك لم تستطع التحرر لكى تأتى وتعمل معك كما سبق ان قلت لى ، وقد عينت ممرضة جديدة ستأتى لتتسلم عملها غدا صباحا .

لم يسع آن الا أن تقول : حسن جدا يا مس ملفيل .

ورافقت رئيسة الممرضات حتى المصعد ، وابتسمت لها هذه الأخيرة ابتسامة حلوة كانت بالنسبة لها احسن مكافاة كوفئت بها عن كل العمل الذى قامت به ثم عادت الى جوار مرضاها .

وراحت تقوم بعملها وهى تقول لنفسها أنها لم تحس بمثل هذا المرح منذ وقت طويل . وعلى الرغم من البرود الذى اظهره بريسكوت فى لقائهما الأخير فقد كانت تحس بأن بينهما رابطة سرية وأنهما يتابعان هدفا واحدا وأنهما يصبوان الى نفس المثل وتمنت له من سويداء قلبها النجاح . لم يكن فى اهتمامها به أى شيء أو أية مصلحة . من ذلك كانت واثقة تماما .

ودفعها تفكيرها فى بريسكوت الى الهام جديد فما ان فرغت من عملها فى ذلك المساء حتى أسرعت الى بيت الممرضات ولبست معطفا فوق زيها وغادرت المستشفى وهبطت الى ميدان المتحف حيث يقع المركز الرئيسي لاتحاد الممرضات . وكانت المكاتب مغلقة ولكن مس جلادستون ، السكرتيرة وصديقتها الجديدة قابلتها أحسن مقابلة

فى المسكن الصغير الذى تقيم فيه فى الطابق العلوى ، وخاطبتها تقول من غير أن تنزع السيجارة من بين شفتيها :

ــ مساء الخير يا مس لى . كنت أرجو حقا ان اراك الليلة . صبى لنفسك فنجانا من القهوة ، وهنـــــاك بعض الشـــطائر اذا كنت جائعة .

واقتربت من المائدة ، وكان عليها بعض الكتب والمستندات والأطباق القذرة وأعقاب السجائر وبقايا طعام وتقارير رسمية وأيشارب مغزول الى النصف وفازة مملوءة بالزهور وصورة لبعض الممرضات وأزاحت بعضا منها لكى تضع آن فنجانها مكانها .

كانت سوزان جلادستون امرأة قصيرة القامة وخط المشيب شعرها تشرف على الستين من عمرها ذوى جمالهـــا قبل الأوان . وكان يبدو أنها لا تحفل اطلاقا بمظهرها ولا براحتها وأنها كرست حياتها لغرض نبيل .

قالت بعد أن جلست آن وهى تناولهـــا عددا من جريدة ايفننج تايمز . اقرئى هذا . انه خبر معز فى أمسية من امسيات الشتاء . اليس كذلك ؟ .

وكانت قد أحاطت الخبر بدائرة من الحبر الأحمر وفحواه ان امرأة مسنة تدعى مس روبرتسون أنتحرت فى مسكنها الحقير بحى مايسووتر بأن تركت صنبور الجاز مفتوحا . وانتهى الخبر بهذه الكلمات : وكانت هذه السيدة تعيش فى فقر مدقع ويبدو أنهــــا ممرضة سابقة ..

وقالت مس جلادستون ردا على نظرة آن : كانت ممرضة فى الواقع ، وقضت فى هذه المهنة أربعين سنة . كنت أعرفها ، وقد طلبت المعونة من مؤسستنا ، وبذلنا كل ما استطعنا ، ولكن ذلك لم يكن كافيا .

قالت آن وقد ضاق صدرها حزنا والما : هذا فظيع ! .

أيدتها مس جلادستون تقول فى لهجة خطيرة : نعم . هذا فظيع . والأفظع انها ليست الوحيدة فلدى هنـــــا قائمة بأسماء ممرضات مسنات أفنين حياتهن فى العمل بكل اخلاص ، ولم يستطعن توفير قرش ينفعهن فى الكبر ، وليس الذنب فى هذا بذنبهن وانما لأنهن كن يتقاضين مرتبا يكاد يكفيهن الـكفاف . وعندما يبلغ بهن الكبر ولا يستطعن العمـــل يطـــردونهن ولا يجـــدون أمامهن الا ملاجىء العجزة ..

قالت آن فى انفعال : ليس هذا عدلا .

— هناك عشرات الالاف من الممرضــات كددن طوال حياتهن ، وما زالت المستشفيات تستغلهن بأسوأ الطرق . يمكنني أن أريك آلاف الرسائل التي تأتيني منهن من مختلف الأماكن بانجلترا وكلهــا خطابات احتجاجات ونداءات عاجلة . وعلى الرغم من أن قلبي قد تحجر من قراءة نفس الشيء دائما فانني حين أفكر فيهن يغلي الدم في عروقي ... والحقيقة المؤلمة هي أننا لا نعرف كيف ننظم انفسنا . أيجب أن تكون لنا نقابة حقيقية .

وكانت آن غارقة في أفكارها فقطبت جبينها وقالت أخيرا : هذا لا يكفي . ان ما يجب علينا عمله هو اثارة الرأي العام وأن نخرج هذا الشعب من لا مبــــالاته ، وأن نريه الى أي حد يستغلون الممرضات ، عندئذ ، وعندئذ فقط نكون قد كسبنا قضيتنا .

وافقتها سوزان جلادستون على الفور قائلة : مرحي . انك وضعت اصبعك على النقطة الحساسة . لو نستطيع أن نقوم بحملة حقيقية وان نهز الشعور العام .. حين انكر ان الجريدة التي نشرت انتحار العجوز المسكينة روبرتسون نشرت في نفس الوقت نبأ تقول فيه أن جنوب الغال تطلب ممرضات لمكافحة وباء الحمى الشوكية التي انتشرت هناك ! .. اوه ، يا لغبائي . انني قضيت حياتي كلها في كفاح لم يؤد الى نتيجة ، ولم يعد بمقدور امرأة عجوز مثلي أن تستيقظ من جديد .

وفجأة تلألأ وجهها بابتسامة عريضة وقالت : اوه اود لو ان تقفي بجانبي وتساندينى يا آن ، فانك بصفتك مشرفة في مستشفى ترافلجار تتمتعين ببعض الحرية ويمكنك أن تساعديني مساعدة فعالة في أوقات فراغك ، متطوعة طبعا اذ ليس في خزانتنا نقود ، ولكن قد تستطيعين تحريك بعض الجبال .

قالت آن مبتسمة : أنا هنا لذلك . وسأكتفي في البداية بتحريك بعض الاكمات .

وتبادلت المرأتان الحديث بعد ذلك مدة طويلة في الغــــــرفة المشوشة . وأحست آن من نحو السكرتيرة المكافحة بود واحترام متزايدين ، وأحست أن شعورها هذا متبادل ، وعندما فارقتهــا أخيرا شعرت بأن رباطا وثيقا يربطها بسوزان جلادستون ، وبأنها تشاركها جهودها .

كانت مقتنعة تمام الاقتناع وهي تشق طريقها الى ميدان ترافلجار بأنها قد اتخذت قرارا هاما وخطيرا فان اتحاد الممرضات ، وأن

كانت تنقصه الأموال اللازمة الا أنه كان منظمة متينة وجادة وأنه الجهاز المثالى للحملة التى لابد منها لتحسين أوضاع الممرضات ، وانها اذا تعاونت معه فان فى استطاعتها أن تقوم بدور فى النضال من أجل هدفها .

وعندما عادت الى المستشفى لم تشعر باية رغبة فى تناول العشاء ومضت مباشرة الى غرفتها ، واكتشفت لدهشتها أنها أقامت دون وعى منها رابطة بين الأنباء التى أخبرتها بها مس ملفيل صباح اليوم بالذات وبين القرار الذى اتخذته . وقالت تحدث نفسها وهى تفكر فى بريسكوت انه يتقدم فى طريقه كما اتقدم انا فى طريقى ... وفى تلك الليلة نامت نوما عميقا لم تتخلله أية أحلام .

وفى صباح اليوم التالى أبلغتهـــا أحدى المتمرنات ان الممرضة الجديدة قد أقبلت .

الفصل الثالث

لم تستدع آن الممرضة الجديدة على الفور ، فقد كان لابد لها أن تقوم بداوريتها فى قاعتهـــا وأن تتأكد من ان السجل قد اعد هو والبطـاقات وتوقفت لحظـــة عنـد المريضـة رقم ٦ ، وهى تشكو من قرحة فى المعدة . ولم تستدع الممرضة الجديدة الى مكتبها الا بعد ساعة ونصف . وكانت تجلس الى مكتبها والقلم فى يدها وعلى شفتيها ابتسامة ترحيب سرعان ما تلاشت وحلت محلها تقطيبة كبيرة ، فان الممرضة التى وقفت أمامهـــا لم تكن الا مس جريج ، الممرضة بمستشفى شيريهام .

وعندما رأت مس جريج آن أجفلت لفرط الدهشة ولكنها تمالكت على الفور وارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة وقالت فى ثقة :

ـ صباح الخير يا مس لى .

أجابتها آن فى تحفظ : صباح الخير .

كانت قد تحاشت وهى فى شيريهام ، بقدر ما سمح لها عملهـــا الاختلاط بمس جريج لأنها كانت تحس بقليل من الميل نحو هذه الفتاة ذات البشرة الباهتة والشعر المصفر والطبع الشكس ، ثم انها أدركت دائما ان اليزا جريج تناصبها العداء دون ما سبب . وغمرها احساس من الضيق والقلق فقد شق عليها أن ترى أمامها ما يذكرها بالماضى .

وعادت اليزا جريج تقول : هل تعرفينني يا آن لى ؟ أوه ، نسيت انك مشرفة الآن ، ولكن يدهشني حقا ان اراك هنا يا مس لى .
تماسكت آن وقالت فى هدوء وهى تشدد الضغط بأصابعها على قلمها : ويدهشنى انا الأخرى ان اراك هنا . فى اية مستشفى كنت تعملين قبل قدومك هنا ؟.
اجابت مس جريج فى شيء من الخبث : فى شيريهام ، فلم اتركها منذ أن ... منذ آن غادرت أنت .
وكانت آن تملأ خانات الاستمارة الخاصة بها فسألتها : هل اتيت معك بشهاداتك ؟ .
— نعم ... نعم يا مس لى .
اصطبغ وجه آن ولكنها راحت تكتب المعلومات التى كانت تعرفها والتى يملى عليها واجبها أن تثبتها كتابة . وعندما فرغت أعتدلت فى مقعدها ونظرت الى غريمتها وقالت :
— ستبدئين عملك منذ صباح اليوم ، وأرجو أن يروق لك . ولا أشك فى انك سوف تبذلين جهدك لارضائى .
— يمكنك أن تعتمدى على يا مس لى .
هل كان فى هذا الرد ذى المعنى المزدوج مسحة من السخرية . لم تستطع آن التأكد من ذلك ، وتذرعت بكل شجاعتها ونظرت مليا الى حدقتى مس جريج وقالت :
— أرجو الا تنسيك زمالتنا وما حدث فى شيريهام المسئولية الملقاة على عاتقى عن هذه القاعة وان تنفذى الأوامر التى اصدرها بكل دقة .
قالت مس جريج بلهجة معسولة : اطمئنى يا مس لى ، من ناحية الضمير المهنى فأنا لا أخشى احدا .
— حسن جدا . يمكنك ان تنصرفى .
— شكرا لك يا مس لى .
ومضت مس جريج نحو الباب ، ولكن قبل أن تفتحه التفتت ونظرت الى آن وعلى وجهها ابتسامة عدوانية لها مغزاها بحيث احست آن بالقشعريرة تسرى فى كيانها .
وخرجت مس جريج واغلقت الباب خلفها . وكانت آن قد تحولت فى جلستها الى تمثال من الحجر وقد تكومت فوق جبينها الأفكار السوداء ، وراحت تقيس فى وضوح تام وبرود شديد خطورة موقفها . ولم يغير من ذلك فى انها لم تكن مذنبة اطلاقا فى موت طفل تحملت الذنب واصبح معها الآن ، وتحت ادارتها بالذات

ممرضة تعرف سبب طردها من مستشفى شيريهام ولن يؤنبها ضميرها فى استغلال هذا الموقف دون اى شك .
واستجمعت آن كل شجاعتها وقالت لنفسها : قد تمر الأمور على أحسن ما يكون ، وانني أرفض أن ارتجف امامها ، ثم إنني نذرتها بأنني أنتظر منها طاعة عمياء . ولكنها احست بخوف شديد مع ذلك استأنفت عملها بقلب مثقل .

الفصل الرابع

كان الشتاء قارسا والبرد زمهريرا والضباب ينتشر فى المدينة . وكان هذا الجو الصر بسبب زيادة كبيرة فى المرضى فغصت قاعة بولنجبروك بهم .
كان أكثر الوافدين الجدد يشكون من نزلات شعبية حادة ، وكانت حالتهم الخطرة تتطلب عناية خاصة واهتماما مستمرا ، ولكن العناية والاهتمام لم تتوفرا فى ذلك اليوم فى قاعة بولنجبروك على غير العادة ، فان بطاقات الحرارة لم تستوف والمباصق لم تعقم كما يجب . ولاحظت آن أكثر من مرة اهمـــالات كثيرة . وكان رئيسها الدكتور فيرنى يكافح المرض بجرعات من مصل روكفلر ، وهو مصل لابد من أخذه فى أوقات منتظمة ولكن آن اكتشفت ثلاث مرات ان المرضى لم يتناولوا المصل فى الأوقات المحددة .
ولم يكن هناك جدوى من تجاهل الأمر أكثر من ذلك ، كان لابد لها من الاعتراف بالواقع . كانت جريج هى المتسببة فى كل هذا الاهمال . كانت ترتكب أخطاء كثيرة لأنها لم تكن ممرضة قديرة ، وليت الأمر اقتصر على هذا فقد انتقلت العدوى الى الممرضتين الأخريين اللتين تعملان تحت ادارة آن . وحتى ليزى ، وهى فتاة ظريفة تحت التمرين ، كانت حتى ذلك الوقت مخلصة لآن قلبا وقالبا، تغير حالها ووقعت تحت نفوذ جريج ، وقد سمعتها آن ذات يوم تضحك فى صوت عال فى غرفة الخدمة فى حين كان هناك مريضان فى حالة خطرة تستدعى الهدوء التام . وقد جاءتها فى أصيل احد الأيام عابسة الأسارير وقالت لها فى وقاحة :
— تصورى يا مس لى ان جريج أخبرتنى الآن بنبأ غريب ، ونصحتنى ان اتحدث اليك عنه .
احست آن بقلبها يكاد يتوقف عن الحركة ولكنها تماسكت وسألتها

بهدوئها العادى : حقا ؟ وماذا قالت لك ؟ .
وارتبكت الفتاة ازاء نظرة آن الحادة وقالت متلعثمة : انها تزعم انك لا تحبين العناية بمرضى الدفتريا .
أجابت آن على الفور : اننى أحب العنـــاية بكل الأمراض ككل ممرضة تحترم نفسها . والآن ، اذهبي حالا وخذى حرارة المريض رقم ١٥ ولا تسلكى مسلك الأطفال .
قالت الفتاة فى ارتباك شديد : حسن يا مس لى ... وعادت الى عملهــا .
ولكن آن تزايد قلقها بعد هذا الحادث ، فقد عنفت جريج تعنيفا شديدا ، وأجابتها هذه الاخيرة فى خنوع كما تفعل كل مرة ، ولكن وهى تنظر اليها نظرة لهــا معناها . واحسـت آن بأن الأزمة تقترب .
وفى ذات يوم ، كان يتعين عليها أن تقوم بعمل ما فى المعمل الصغير الذى يقومون فيه بتحليل البول والبراز ، واستاءت أكبر الاستياء عندما رأت أن الغرفة مهملة اهمالا شديدا ، فاستدعت مس جريج اليها ، وابطأت هذه فى المجىء ، وسألتها فى غير اكتراث :
ــ هل استدعيتنى يا مس لى ؟ .
أجابت آن وهى تغالب حنقها : نعم . الا ترين حالة هذا المعمل ؟ .
ألقت جريج نظرة حولها فى غير مبالاة ثم قالت : نعم . اننى أراها . كان فى نيتى أن أنظفه اليوم ولكننى لم أجد دقيقة واحدة اليوم .
ــ ولا أمس أيضا . لعله يهمك أن تعلمى اننى نظفت هذه الغرفة مساء أمس .
نظرت جريج اليها نظرة انتصــــــار ، فقد بلغت أهدافها أخيرا واصبحت تملك الآن آن تحت رحمتها . كانت فرصة لم تشــــأ أن تتركها تفلت منها فقالت فى وقاحة :
ــ لا شىء يمنعك من أن تنظفيها اليوم كذلك .
ــ انى أمنعك من أن تكلمينى بهذه اللهجة . اننى مسئولة عن هذه القاعة ، ويجب أن تطيعى أوامرى .
ــ حقا ؟ .
ــ انك تعلمين ذلك جيدا . عليك أن تطيعينى ، فانا المشرفة ، وبناء على ذلك رئيستك .
ــ مشرفة عجيبة ! .
ضمت آن قبضتها وهى تحاول الاحتفاظ بهدوئها ، وأتت بمجهود

اخير لانقاذ الموقف فقالت :

ــ الى أي شيء تهدفين يا مس جريج ؟ انني اظهرت معك صبرا طويلا منذ أن قدمت هنا . انك مقصرة في عملك ، وانت تعلمين ذلك ، ومن الأهمية القصوى أن تطيعي الأوامر الصادرة اليك . ان علينا أن نعنى بمرضى في حالات خطرة .. مرضى يصارعون الموت ويتشبثون بالحياة .

ــ ولكنك لم تظهرى مثل هذا الاهتمام بالمرضى الذين كانوا بين الحياة والموت في شيريهام ... على الأقل اذا نظرنا الى الطريقة التي طردت بها .

وهكذا كشفت جريج عن لعبتها في فرح حقود ، ولكن اذا كانت قد حسبت أنها ستحصل على انتصار سهل فقد خاب فالها ، فقد ومض بريق في عيني آن وقالت :

ــ لن أستمر في هذا النقاش أكثر من ذلك ، وانني آمرك أن تنظفي هذه الغرفة ، واذا وجدتها في هذه الحالة غدا صباحا فسوف أقدم تقريري الى رئيسة الممرضات بخصوص عصيانك الأوامر .

اصفر لون جريج وبانت عليها الحيرة وهي ترى آن متمالكة لأعصابها ولا تدافع عن نفسها . وقالت أخيرا وهي تضع في ردها كل سمها :

ــ سآتي معك الى رئيسة الممرضات فان لدى انا الأخرى شيئا اريد أن أقوله لها . اذا أردت الفضيحة فسوف يكون لك ذلك ، وسنرى من منا ستخرج من هذا الأمر في حالة أفضل .

لم تنطق آن ، ومرت أمام الممرضة جامدة الأسارير ، وكان يومها قد انتهى فغادرت القاعة ومضت الى غرفتها رأسا .

وهناك جلست فوق فراشها وأخذت رأسها بين يديها ، وعلى الرغم من هدوئها الظاهر كان قلبها يخفق بشدة وأحست بدموعها تتصاعد الى عينيها ازاء هذا التهديد الذى يثقل عليها منذ أسابيع والذى انتهى الى هذا المشهد البشع . ولكنها بذلت جهدا كبيرا وتماسكت وهي تقول لنفسها لابد أن تلجأ الى كل شجاعتها .

وعاد هدوءها اليها أخيرا وفحصت الموقف . قررت أن تناضل حتى النهاية مهما يكن الأمر . ودرست كل الامكانيات التي أمامها . انها اذا انتظرت حتى تذهب جريج الى مس ملفيل وتذكر لها سبب طردها من مستشفى شيريهام فهى هالكة لا محالة ، فعلى الرغم من كل العطف الذى تبديه رئيسة الممرضات نحوها فلن يبق أمامها

الا ان تحزم حقيبتها من جديد وتغادر المستشفى . وماذا يقول الدكتور بريسكوت الذى أعطاها تلك التوصية الرائعة ؟ وماذا يكون رد فعله أمام هذا الاكتشاف .

وعادت اليها شجاعتها عندما فكرت فى بريسكوت ، فهو وحده الذى تستطيع الركون اليه ، وهو وحده الذى يستطيع انقاذها . ستذهب اليه وستتقلب على كبريائها وتطلب منه النصح والمشورة . ستشرح له الحقائق كما وقعت دون أن تضر بلوسي . ومهما يكن حكمه قاسيا فانه لن يشك فى قولها . كانت واثقة من ذلك كل الثقة ، واستبدلت زيها بثياب الخروج وغادرت المستشفى من الباب الصغير ، ومضت بخطوات حثيثة الى شارع ويمبول .

الفصل الخامس

وقف روبرت بريسكوت أمام نافذة غرفة استشارية وراح ينظر الى الشارع كان قد فرغ من عمله فى ذلك اليوم ، وكان يوما مرهقا حقا ، فقد قضى طول الصباح فى المستشفى وبعد الظهر فى عيادته ، ومن الناحية العملية فان اقامته فى لندن افادته من كل النواحى، وكان يفكر فى الاقامة فيها منذ وقت طويل ، ولعل من الخير له أن مشادته مع بويلى عجلت بالأمور .

كان شرفا كبيرا له أن يحظى بهذا المركز فى مستشفى سانت مارتن ، ثم ان المترددين على عيادته الخاصة اخذوا يتزايدون بطريقة تدعو الى القلق تقريبا ، فان محاضرته فى مؤسسة ليستر كان لها اثرها . وفوق ذلك كان له فى لندن كثير من الاصدقاء ، وكلهم من الشخصيات البارزة ذوى النفوذ ، وعلى الخصوص جون لو زميله القديم فى جامعة كامبريدج . وقد حصل لو الآن على لقب سير وأصبح من أكبر المحامين والمستشار الخاص للقصر الملكي ، وقد اظهر سرورا كبيرا للقائه بصديقه القديم ، وكان هو الذى عزز ترشيح بريسكوت لنادى ارلنجتون ، وهو ايضا الذى قال له ان هناك تيارا فى الأوساط البرلمانية لانشاء وزارة للصحة الاجتماعية ، وهو مشروع ثورى لانشاء مستوصف لجراحة المخ كما يتخيله بريسكوت .

كانت لديه اذن كل الأسباب التى تدعو للرضا والارتياح ، ومع ذلك فلم يكن بادى السعادة ولا السرور وهو ينظر الى الحمائم وهى تطير فى الجو . كان يبدو عليه أنه رجل يكبح أمنياته الخفية دون

وعى منه . ابى ان يعترف بذلك طوال شهور ولـــكنه لم يستطع تجاهله أكثر من ذلك . كان يعرف الآن ، دون اى ظل للشك ، لماذا فقدت الحياة حلاوتها ولماذا لا يغتبط بنجاحه .

وتحول عن النافذة وهو يكتم زفرة وراح يجمع الأوراق المتناثرة فوق مكتبه . وطرق الباب فى هذه اللحظة ودخلت سكرتيرته ، وكانت قد تأهبت للانصراف ، وقالت :

ـ هناك ممرضة تريد أن تقابلك يا دكتور . انها لم تأخذ موعدا ، وعندما قلت لها ان وقت الاستشارة قد انتهى أجابت بأنك تعرفها وأنك ستستقبلها بكل تأكيد ... اسمها مس لى .

بقى بريسكوت جامدا ، وظل لحظة لا يتحرك ، كما لو كان قد أذهله رد القـــدر على رغبـــاته الخفية ثم قال فى صوت أجش : دعيها تدخل .

وما هى الا لحظة حتى كانت آن فى مكتبه . كانت حركاتهـــا تدل على الانفعال الشديد ووجهها أشد شحوبا من المعتاد . واسرعت تقول دون أن تترك له متسعا من الوقت للترحيب بها :

ـ أعتذر لازعاجى لك فى مثل هذا الوقت المتأخر ، واذا رأيت ، يمكننى أن أعود غدا .

ولـــكن بريسكوت تقدم اليها وضغط على يدها فى ود كبير ثم أشار لها الى مقعد أمام مكتبه وقال فى مودة : كنت واثقا أننـــا سنتقابل ، بل اننى بدأت أقلق لأن الوقت طال دون ذلك .

اصطبغ وجه آن وخفضت عينيها . كانت قـــد جاءت تنشـــد مساعدته ، وقد أقلقها كرمه . لو أنه قابلها فى فتور لسهل عليها الأمر بعد ذلك . وأحست بالضعف أمام نظرته الودية ، ولـــكنها تغلبت على نفسها ورفعت رأسها وحدقت فى عينيه وقالت :

ـ ان ما آتيتك من أجله ليس سهلا يا دكتور بريسكوت . لا أريد أن أستغل وقتك ولكن الواقع ... اننى بحاجة الى مساعدتك .

قال بريسكوت وهو يبتسم لها مشجعا : حسنـا ... ولـــكن هذا جميل . اننى مصغ اليك .

ترددت آن لحظة ثم اندفعت تقول : انها قصة طويلة ، وأرجو أن تصبر على ، فلابد لى ان أبدأ من البداية .

وجمعت كل شجاعتها وذكرت له ما حدث فى شيريهام بقـــدر ما استطاعت من ايجاز ، ولم تنطق بأى اسم ، ولكنها اكتفت بأن قالت له كيف ولماذا تحملت خطأ ما حدث وما نتج عن ذلك .

واصغى اليها فى صمت دون أن يفارقها بعينيه ، وعندما فرغت قال فى رفق : لا ريب انك كنت شديدة التعلق بتلك المرضة لكى تفطبها هكذا . ولكن قولى لى من هى . لم يعد الوقت وقت تضحيات لا طائل منها .

واذا رآها تلزم الصمت عاد يقول : أهى اختك ؟ .

أجابته آن : نعم .

لم يسعها آن أن تكذب ثم انه قد خمن الحقيقة على كل حال .

وساد صمت قصير بدا أن بريسكوت كان يزن فيه مدى الاعتراف الذى ادلت به آن وأخيرا قال : أرانى مضطرا الى أن أقول لك انك أقدمت على عمل نبيل وشجاع . ولكننى لا أستطيع الا أن أقول انك ارتكبت حماقة بتحمل نتيجة اهمال جسيم كان يمكن أن يكون درسا نافعا لأختك ولعلها كانت تصبح بعد ذلك ممرضة جيدة فى حين أنها الآن ... وبهذه المناسبة ، أما زالت فى شيريهام ؟ .

ــ كلا . انها تعمل فى لندن .. فى عيادة خاصة .. عيادة رولجروف .

أجفل بريسكوت وقال : رولجروف ؟ ولكنها عيادة بغيضة ... لابد لنا من اخراجها من هناك بأسرع ما يمكن .

لم تعرف آن ماذا تقول ازاء هذه الطيبة . واضطجع بريسكوت فى مقعده الى الوراء وراح ينظر الى هذه الفتاة الهيفاء ذات الوجه الشاحب الجميل وقد أدهشه أن يشعر بسرور لرؤيتها . لم يكن مسلكه معها منذ البداية الا دفاعا لا شعوريا ضد عاطفة وليدة ، واذا كان قد أصر على أن تكون علاقاتهما علاقة عمل فذلك لأنه كان يخشى فى الواقع أن يستسلم لسحرها وفتنتها ولكن جدران حصينة تداعت فى هذه اللحظة واعترف بينه وبين نفسه أنه يحبها وأنه أحبها منذ البداية .

وقطع أخيرا حبل الصمت الطويل فقال فى صوت ينم عن مشاعره :

ــ لا يمكن أن تعرفى الى أى حد أنا سعيد بأنك لجأت الى ، خاصة وأن فى مقدورى مساعدتك ، فان مس ملفيل صديقة لى .

وأردف يقول وهو يبتسم ابتسامة رقيقة جعلته يبدو أصغر من سنه بكثير : والواقع أننى أعتبرها خالة لى ، وسأراها هذه الليلة بالذات ، وسأتناقش معها عن روح التضحية التى قامت بهما مشرفتها الجديدة . اما أنت فلا تتحركى ، فسوف نسوى هذه المسألة معا ، أنا ومس ملفيل .

تمتمت آن ببضع كلمات تشكره ، ولكنه قاطعها قائلا : ارجوك ، لا تشكريني . انني سعيد جدا اذ أكفر عن الطريقة الفظيعة التى عاملتك بها فى آخر لقاء لنا ، ولكنى كنت منفعلا ومضطربا ، فقد تخلى عنى صديقنا بويلى ببرود ثم ... كانت أفكارى مشوشة فى حين اننى أرى الآن بوضوح ... نعم بوضوح تام .

ملأت هذه العبارة الغامضة آن بالارتباك ، ونهضت وهى تحس بأنها بقيت اكثر من اللازم . وقال بريسكوت وهو يشيعها الى الباب :

— هل تسمحين لى بكلمة اخرى ... اننى أتساءل أن كنت تريدين أن تسدى الى معروفا .

صاحت آن فى حماس : بكل سرور .

— هل تذكرين ذلك الغداء السريع الذى تناولناه معا فى بيتى بعد حادث الأتوبيس ؟ اذا سويت الأمور كما أتوقع فهل تعديننى ، مكافأة لى ، على أن أدعوك مساء غد لتناول العشاء معى ؟ .

وأمام هذه الدعوة المفاجئة اتسعت عينا آن ثم اضطرم وجهها بعض الشىء ، وعلى الرغم من انها أحست بالارتباك فانه لم يسعها أن ترفض واجابت :

— انك تزيد فى دينى لك ، ولكننى أقبل بكل سرور .

— اننى سعيد بقبولك هذا ، وسأرسل لك رسولا الى المستشفى .

وغادرته على اثر ذلك ، بعد أن ضغط على يدها فى قوة . وعندما عادت الى المستشفى كانت لا تزال تشعر بلمسة يده فى يدها .

الفصل السادس

عندما ذهبت آن الى عملها فى الساعات الأولى من صباح اليوم التالى ودخلت قاعة بولنجبروك كانت تشعر بشىء من الخوف على الرغم من كلمات بريسكوت المطمئنة . لم يكن قد حدث شىء على ما تعلم ، ولم تكن قد رأت رئيسة المرضات ، ولم تسمع ان المسألة سويت .

ولكن اذا كانت آن قد مضت الى عملها مبكرة فان مسز جريج بدأت عملها قبل ذلك بكثير . كانت تقف فى احترام ، ممتقعة اللون يبدو عليها الخجل ، وبدأتها القول ، فقالت فى صوت مرتجف :

— صباح الخير يا مس لى . اننى رتبت العمل ونظفت الاجهزة

وأواني الاختبار ، وارجو أن تكون راضية عني .
وفتحت الباب في حركة عصبية لكي تقوم آن بفحصها اليومي .
كانت الغرفة منسقة تنسيقا تاما والأرض لامعة ، وقبل أن تبدى آن رضاءها أسرعت مس جريج تقول :
ـ وكذلك عقمت المباصق يا مس لي ، وارجو أن تصفحي عني لما بدر مني أمس ، وانني أعرف الآن انني كنت مخطئة ، واعتذر لك .
نظرت آن الى تلك المرأة المذعورة التي تتكلم في خنوع شديد . كانت تستطيع ، بصفتها رئيستها ، أن تفعل بها كل ما تريد وأن تنتقم منها وتجعل من حياتها جحيما ، ولكن حتى هذه الفكرة لم تطرأ ببالها بل أحست من نحوها برثاء كبير وقالت في رفق :
ـ يحدث لكل منا أن يرتكب أخطاء يا مس جريج ، وأنا مقتنعة انك ستباشرين عملك منذ اليوم بكل نشاط . واذا صح ذلك فسأحاول أن أمنحك يوم اجازة في الشهر القادم .
نظرت اليزا جريج الى آن بعينين متسعتين وهي لاتصدق ماتسمع . ومرت بها لحظة طويلة قبل أن تفهم الكرم العظيم الذي أبدته المشرفة نحوها . فالآن ، وقد انقلبت الآية وأصبحت هي تحت رحمة آن كانت تتوقع انتقاما عاجلا ، ولكنها بدلا من ذلك منحت امتيازا . وتصاعدت الدموع الى عينيها وقالت في صوت متقطع :
ـ انني في شدة الخجل يا مس لي ... في شدة الخجل لما بدر مني واتوسل اليك ان تصفحي عني .
وشغلها العمل طوال النهار بحيث نسيت تقريبا دعوة بريسكوت لها للعشاء وعادت الى غرفتها بعد أن فرغت من عملها وأجفلت وهي ترى على الطاولة الصغيرة لفافة من الورق المذهب ففتحتها ووجدت بداخلها باقة من زهور الأوركيد معها هذه الكلمات « الساعة الثامنة ، في مطعم باتون » .
ارتبكت آن وأمسكت الباقة الموف بيد مرتعشة . لم يسبق أن اهداها احد بزهور الأوركيد قبل اليوم وملئت ذعرا حين فكرت أنها لا تملك ثوبا يليق بهذه الزهور الجميلة وخطر لها الا تلبي الدعوة فماذا تفعل وهي مجرد عاملة ، ممرضة . ماذا تفعل في مطعم فخم كمطعم باتون ؟ ولكن لم تلبث مخاوفها أن تبخرت سريعا فان الدكتور بريسكوت يعرفها وهو لا يتوقع طبعا أن يرى أمامه تحفة من تحف المودة .

وشجعتها هذه الفكرة فاغتسلت ومشطت شعرها بعناية فائقة وارتدت أحسن أثوابها ثم شبكت باقة الأوركيد فوق كتفها ، وكانت النتيجة ساحرة ويكاد يخيل لمن ينظر اليها انها مانيكان . وغادرت غرفتها واستقلت سيارة أجرة ووصلت الى المطعم قبيل الثامنة بقليل .

وكان المكان ساحراً . غرفة طويلة ذات جدران خضراء ، ومقاعد طويلة منحدرة في وسطها بوفيه عليه مشهيات لذيذة وسلال جميلة ملأى بالفاكهة . وكان بريسكوت قد سبقها ، واذ رآها تدخل أسرع للقائها قائلا :

ــ ما هذه الدقة ! كنت أعتقد ان النساء لا يواظبن على المواعيد ابدا ..

قالت آن وهي تبتسم : هذا راجع الى المهنة التي ازاولها .

وجلسا الى مائدة في آخر الغرفة وقالت : ان المكان هنا جميل جدا وأنيق .. ليس هذا بالتأكيد بمطعم للممرضات .

أسرع بريسكوت يقول : أريد أن تنسى الليلة انك ممرضة .

أجابت آن وهي تضحك : وكيف أستطيع ؟ خصوصا بعد الذي فعلته من أجلي في المستشفى . لا يمكن أن أقول لك الى أي مدى انا شاكرة لك . انني قضيت يوما رائعا بفضلك .

ــ أرى انك لا تستطيعين أن تنسى انك ممرضة .

ــ وانت ؟ هل تنسى أحيانا انك جراح كبير ؟ .

قال بريسكوت بلهجة غامضة : أن هذا يحدث لي .

وساد صمت . ولكن بريسكوت كان من الذكاء وحسن المنبت بحيث لم يخطر له ان يستغل الموقف وبذل جهده لكي يدخل البهجة الى قلب مدعوته ولكي يرضيها ويريها أن في جعبته سهاما اخرى غير المبضع ، وكان بليغا ومتألقا .

لم تره آن أبدا ولم تتصوره في مثل هذا الجو ، فقد بدا شابا حدث السن وهو مرتد الاسموكنج ، وكانت ربطة عنقه السوداء تظهر في وضوح فوق قميصه البراق وشعره الأملس يكسو رأسه ، وشعرت من نحوه بمودة كبيرة ، وتمنت أن تمنحه الحياة كل ما يصبو اليه . وانتهزت لحظة صمت وقالت له :

ــ كنت أرجو أن تحدثني الليلة عن مشروع عيادتك . أليس لديك أي نبأ لواحدة من أشد مؤيديك .

ابتسم بريسكوت وقال : بل لدى أنباء عظيمة ، على العكس ،

ولكن يخيل لي أننا كنا قد قررنا ألا نتكلم في العمل .

ــ ولماذا نتحاشي موضوعا يهمنا معا ؟ قل لي حالا الى اى مدى بلغت ؟ .

أجاب بريسكوت وقد امتلأ حماسا : الى أبعد مما كنت ارجو بكثير . لقد تحدث «لو»،وهو صديق لي عنه في الأوساط السياسية. وقد جاءني اليوم أحد أعضاء الحكومة يستقصي عن مشروعي ، ولا داعي لأن أقول ان كل هذا يجب أن يظل بيننا سرا .

ــ طبعا .

ــ وقد جاءني زائري العظيم يسألني نيابة عن أوجيلفي ، وزير الصحة ، ويبدو أن مشروعي أثار اهتمامه .

ــ هل تعني أن الحكومة مستعدة لتقديم الاعتمادات اللازمة .

ــ هو ذلك . والواقع ان مشروعي سيستخدم كوسيلة لحملة انتخابية ، وهذا لا يهمني ، وانما تهمني النتيجة .

ــ ولكن هذا عظيم .

واردفت آن تقول مداعبة : ودعك من هذه اللامبالاة ، كأنك لا تكترث بالامر .

ــ ولكن يهمني جدا أن أحقق مشروعي هذا ، ومع ذلك فانني اعترف انه ليس الشيء الوحيد الذي يشغلني في هذه اللحظة .

لم تفهم آن التلميح ، وكذلك لم تفهم التغيير الرقيق الذي طرأ عليه ، والذي حاول به أن ينقل علاقتهما الى مخطط آخر .

وبقيا وقتا آخر حيث احتسيا القهوة ، وكان يمكن أن يثرثرا أكثر من ذلك لولا ان آن كانت مضطرة للعودة الى المستشفى قبل الحادية عشر كما يتطلب النظام .

ومرة أخرى أصابها القدر بضربة من ضرباته ، فبينما كان يقفان على عتبة المطعم في انتظار سيارة اجرة ، وضع أحد باعة الجرائد جريدة تحت أنفهما وهو يصيح : انتحار ممثلة . الشرطة تهاجم منتجعا في مايفير .

ورأيا في الصفحة الأولي اسم ايرين دالاس بالخط العريض .

حدقت آن في الجريدة وهي مأخوذة ، فقد أعاد هذا الاسم الى ذاكرتها شيئا ما . وتغير وجهها المرح فجأة وتفرغ من دمه . وكان بريسكوت قد قرأ العنوان هو الآخر فاشترى نسخة من الجريدة ، والقى عليها نظرة تحت الانوار الساطعة لمدخل المطعم ثم أطلق صيحة مكتومة . وقبل ان يتكلم كانت آن قد فهمت ، وقال :

ـ نعم . هو منتجع رولجروف . أخشى ان يكون قد وقع حادث فظيع .

انتزعت آن الجريدة من بين يديه وقرات الخبر المنشور في الصفحة الأولى وكان مضمونه ان ايرين دالاس القت بنفسها من نافذة احد الأدوار العليـــا برولجروف . وقالت الجريدة انها تشك في أن الممثلة المشهورة أقدمت على الانتحار وهي تحت تأثير مخدر . واهتم البوليس بالأمر اخيرا وهاجم العيادة وقام بتفتيشها والقى القبض على مسز سوليفان ، صاحبة العيادة ، كما ألقى القبض على الممرضة المكلفة بخدمة ايرين دالاس وتدعى لوسى لى .

ولم تستطع آن أن تمنع صيحة يأس ... لوسى ... أختهـــا الصغيرة ... في السجن . ودعكت الجريدة بين يديها في انفعال ، ونظرت الى بريسكوت وقد امتقع لونها وقالت :

ـ يجب أن أمضي اليها حالا .

قال بريسكوت وهو يزن كلماته : نعم . انها بحاجة اليك طبعا .

واقدم عندئذ على أشجع عمل قام به في حياته فقال : وسوف ارافقك .

الفصل السابع

كان بريسكوت يجلس في صباح اليوم التالي في مكتب صديقه سير جون لو . وكان الوقت مبكرا والساعة لم تبلغ التاسعة بعد ، وكان « لو » يقف أمامه بقامته المديدة النحيلة وقد ارتسمت على وجهه امارات القلق ، وعاد يقول في لهجة خطيرة مواصلا حديثه :

ـ أعود فأقول انك اذا أصررت على التدخل في هذه القضية فسوف تندم على ذلك كل الندم . ان الجـــــرائد تهتم بالفضائح وسيصيبك بعض الرشاش حتما ... على الرغم من براءتك .

وابتسم ابتسامة ساخرة خففت من ملامح وجهه الضامر المعروق ، وجلس فجأة وعقد ساقيه وراح يربت على ركبتيه بقلمه وهو يقول :

ـ صدقني ان هذه القضية ليست من اختصاص محكمة الجنح وانما من اختصاص محكمة الجنايات ، ومعنى هذا أنها ستثير ضجة كبرى . والله يعلم ان الفضيحة كبيرة وان الجرائد قد اهتمت بها كل الاهتمام ، واذا أشيع انك مشترك فيها فلن تعيش في سلام ، وسوف تتخلى الحكومة عنك ، ويمكنك عندئذ ان تودع مشروعك

الذي تبني عليه كل الآمال .

ساد صمت ثقيل من جديد ، وكان بريسكوت يدرك قوة هذه الحجج وقدرة قائلها ، فقد كان « لو » يتمتع بشهرة كبيرة ، وكان معروفا بباعه الطويل وقد ترافع في قضايا كثيرة لم يخسر أيا منها ، وكان البعض يتنبأ بأنه سيكون المحامي العام في مستقبل قريب . ولكن اذا كان بريسكوت قد زعزعته حجج صديقه فانه لم يظهر شيئا من ذلك ، واكتفى بأن قال وهو يزن كلماته :

ــ انني لا ارى الأمور كما تراها أنت .

قال « لو » وهو يتظاهر بمرح لم يكن يشعر به في الواقع : حقا ؟ اما زلت تتصور انك تستطيع الخروج من هذا المأزق سليما ؟ الا تدرك انك اذا طلبت الادلاء بشهادتك فسوف يعتبرونك شاهد اثبات بصفة طبية ؟ .. بقدر ما اعلم لم يكن لتلك المسكينة طبيب معالج . كانت صديقة لمسز سوليفان ، ومعنى هذا انه لن يقدم اى طبيب يتمتع بكامل قواه العقلية على الشهادة في هذه القضية وتأتي انت ، وأنت بالذات وتريد الادلاء بالشهادة تلقائيا ؟ .

ضغط بريسكوت على أسنانه وأجاب : لدى سبب خاص يحدوني للتدخل في هذه القضية ولكي اطلب منك ان تترافع فيها .

قال « لو » وقد ازدادت سخريته : لا ريب ان لديك سببا خاصا جدا . أتكون مهتما بتلك المرضة التي القى القبض عليها ؟ .

ــ بها هي شخصيا ... لا .

قال لو في حدة : يسعدني ان اسمعك تقول هذا .

وأسرع بريسكوت يقول : ولكن أصغ الى . في اعتقادى أنها ليست مذنبة ، على الأقل ليس بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ومهما يكن فقد كانت تقوم بعملها .

صاح لو في احتقار : وهو عمل غريب ! ان الطيور على أشكالها تقع . ان لهذه المدعوة سوليفان سمعة سيئة منذ سنوات طويلة ، وهي لم تسرق ما حدث لها الآن . وستنال مساعدتها الشابة نصيبها من العقاب . وانني اهيب بك مرة اخرى ياصديقي ان تفكر جيدا قبل ان تمضي في هذا الطريق . يسرني ان أراك في لندن بعد فراق سنوات طويلة وانا افعل المستحيل في سبيل تحقيق مشروعك . انني كنت معجبا بحسن ادراكك ونحن في كامبريدج ، فأثبت لي انك مازلت عند حسن ظني ولا تلق بنفسك في مغامرة ينأى عنها الملائكة أنفسهم .

هز بريسكوت رأسه وقال في اصرار : انني متـــأثر بشواهد صداقتك لي ، ووددت لو استطيع ان افسر لك ولكنني لا أستطيع الا ان أقول شيئا : انني وعدت بشرفي ان أساعد هذه المتهمة الشابة وسوف أفعل .

طال الصمت هذه المرة ، ثم أطلق «لو» زفرة طويلة والقى بقلمه الرصاص في عصبية وقال في استسلام : اظن انه لا ينبغي علي في هذه الحالة الا مساندتك في هذه العملية الجنونية . وهذا ضد مصلحتك وعلى مضض مني . سأترافع في هذه القضية ... ولكن افهمني جيدا ... لن اترافع عن مسز سوليفان طبعا وانما عن هذه المرضة الطائشة .. التي تهتم أنت بها شخصيا .

وكان يشوب لهجة «لو» الخشنة عطف حقيقي ، ولم يفت ذلك عن بريسكوت . وجرفته موجة من السرور والقلق في نفس الوقت ، فقد استطاع ، رغم الأخطار التي يستهدف لها أن يوقف لأخت آن واحدا من اكبر المحامين في لندن .

وتذمر «لو» قائلا : احتفظ بامتنانك وشكرانك الى مابعد، وصدقني انك ستلعنني وتلعن نفسك قبل أن تنتهي القضية ، فلا تنسى أنني سادعوك للشهادة وهذا شرط لابد منه اذا اردنا أن نكسب ، والآن دعنا من الهذر واخبرني بكل ما تعرف .

الفصل الثامن

نظرت قضية رولجريف في الثالث من يولية ، وكان اليوم جميلا كما توقع لو . وكان الوقت لا يزال مبكرا فراى بريسكوت ان يمشي جزءا من الطريق قبل أن يستقل سيارة أجرة . واجتاز شارع ويمبول وتوجه الى ميدان بورتلاند ، وفي هذه اللحظة راى الدكتور روسيتر قادما نحوه . وكان يقطن على مقربة منه والتقى معه اكثر من مرة في مؤسسة ليستر واستعد بريسكوت لـكي يحييه عند دنوه منه ولكن روسيتر حول عينيه وأسرع الخطا . ولم يـكن مستحيلا ان يخطيء فقد كانت الاهانة مقصودة ومتعمدة .

خفض بريسكوت رأسه وتابع سيره . لم يدهشه الحادث على الرغم مما فيه من اهانة ، ولم يكن الا ليتوج أدلة البرود التي اظهرها اصدقاؤه خلال الأسابيع الثلاثة الماضية . وقد أحس بهذا البرود ، على الخصوص بين زملائه ، وقد جعلوه يفهم في لباقة وحزم على أن

وجوده في مستشفى سانت مارتن في الوقت الحالي غير مستحب ، وكان الأمر أسوأ بكثير في الأوساط الطبية البعيدة الصلة بالمستشفى ، احس بأن أصدقاءه يحكمون عليه ويدينونه وان البعض يتهمونه بأنه يبحث عن دعاية رخيصة في حين راح البعض يوعز بأنه مشترك سرا في الأعمال المشبوهة التي كانت تدور في رولجريف . وتآمرت عليه كل السنة السوء في المدينة ، وتساءل بريسكوت أكثر من مرة كيف أن احدا لم يفطن الى الحقيقة ... وانه شغوف بامرأة لا دخل لها في هذه القضية وانه يبذل كل ما وسعه لا لشيء الا لكي ينقذ أختها من هذه الورطة .

وبلغ المحكمة قبيل العاشرة والنصف ، وكانت القاعة مشحونة عن آخرها وبين الحضور أشخاص عديدون من كبار الاطباء ونساء من المجتمعات وشخصيات مرموقة ، وامتلأت المقاعد المخصصة للجمهور بالأشخاص الذين يبحثون عن الاثارة ، يدفعهم الأمل لرؤية الوحوش الادمية وهي تتلقى وتتقاذف فريسة آدمية مثلهم .

وأحس بريسكوت بارتياح كبير وهو لا يرى آن بين الحاضرين ، فقد اصر على الا تحضر رغم احتجاجاتها ، وهنأ نفسه على ذلك وهو يرى هذا الجمهور المتعطش للاثارات القوية ، وشق طريقه بين الجموع وجلس خلف مقاعد المحامين . وأقبل لو في هذه اللحظة وبرفقته مساعده ستاج ، ووقفا يتبادلان معه بعض الكلمات ، ثم ظهر ذرويت المحامي العام ، وهو رجل مهيب كث الحاجبين ، ورمى بريسكوت بنظرة باردة وحياه تحية مقتضبة .

ثم زاد الضغط فجأة ، فقد جيء بالمتهمتين ، وتحولت كل الأنظار اليهما . وأحس بريسكوت باحتقار لا يوصف لهذا الجمهور الذي لا يدفعه شيء الا الفضول ، وحول عينيه في بادىء الأمر ولكن لم يسعه بعد ذلك الا أن ينظر الى لوسي .

كانت تقف جامدة دون حراك ويداها مشدودتان الى جنبيها ورأسها متصلبة بحيث كان يخيل لمن يراها انها تمثال من الشمع . وكانت تبدو شديدة الخوف وأنها تفرغت من كل شعور . وأحس بريسكوت بالعطف نحوها على الرغم منه . كان من المستحيل على من يراها أن يعتقد انها امرأة شريرة . ولكن الأمر كان يختلف مع مسز سوليفان ، صاحبة رولجريف ، فقد كانت واقفة بكامل حريتها مسرورة بأنها محط انظار الجميع . كانت قصيرة القامة قوية الجسم ترتدي ثيابها بصورة صارخة . وأدارت بصرها في قاعة المحكمة في جراة تحيي

براسها بعض الأصدقاء وترسل القبلات الى معارفها الحميمين . كانت صورة مجسمة للفساد وعدم الحياء .

وصاح الحاجب يأمر الناس بالتزام الصمت ، ودخل القاضي ، وكان مهيبا فى ثوبه الفضفاض وشعره المستعار . وأقسم المحلفون اليمين وبدأت المحاكمة .

وقرأ الكاتب قرار الاتهام ومضمونه ان المتهمتين وجدتا بتاريخ ١٠ يونية فى المصح المعروف باسم رولجريف وبحيازتهما كمية كبيرة من المورفين والكوكايين حصلتا عليها بطريقة الاحتيال ، وانهما فى نفس التاريخ أعطيا ايرين دالاس جرعة من مخدر وأن المذكورة ايرين دالاس ألقت بنفسها من النافذة وهي تحت تأثير هذا المخدر ولقيت حتفها .

وعندما فرغ الكاتب من قراءة قرار الاتهام قررت المراتان أنهما غير مذنبتين ، وحاولت مسز سوليفان أن تخلق جوا من المرح فقالت فى صوت مرتفع أنها لم تتناول فى حياتها أى مخدر . ونهرها القاضي فى شدة وامرها أن تراعى النظام .

وجاء دور الشهود ، وسمع بريسكوت الطبيب الشرعي يحدد نوع المخدرات المضبوطة فى رولجريف ثم تبعه الدكتور بورى وقال انه اكتشف آثار مخدر فى امعاء الفقيدة ايرين دالاس ، وما ان فرغ من شهادته حتى هب « لو » واقفا وقال :

دكتور بورى ، هل أثبت التحليل ان الجرعة التى تناولتها ايرين دالاس كانت قاتلة ؟ .

ـ كلا يا استاذ . كانت الجرعة غير قاتلة .

نظر «لو» الى القاضي وأحنى راسه قليلاثم جلس. واحس بريسكوت بأنهما أحرزا تفوقا ثم جاء دور الشرطي روبرتس فشرح للمحكمة كيف اقتحم رولجريف وكيف القى القبض على مسز سوليفان وعلى الممرضة المكلفة بالعناية بمس دالاس . وكانت قصة طويلة مملة ولكن الجمهور تيقظ عندما أردف روبرتس وقال أن مسز سوليفان رفضت الادلاء بأى تصريح عند القاء القبض عليها فى حين أن لوسي لى الممرضة لم تبد اية صعوبة وقالت : إننى اعطيت المرضة حقنة هيروين طبعا . وقد أعطيتها جرعة عادية تنفيذا للأوامر التى صدرت لى ...

وأثار هذا التصريح رعدة الجمهور . ولكن كانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها « لو » بالذات ، فقد نهض بمجرد ان غادر الشرطى روبرتس مقعد الشهود وقال مخاطبا القاضي :

ـ ألتمس من فخامتكم الاذن باقامة الدليل على انه لا يوجد اية تهمة

ضد موكلتي ، مس لوسي لي . واذا أذنتم لي فخامتكم فانني أريد أن أدعو للشهادة قطب من أقطاب الطب معروف بنزاهته التامة لكي يثبت أن أية ممرضة ، في نفس الظروف المذكورة في قرار الاتهام ملتزمة أخلاقيا وقانونيا بتنفيذ التعليمات التي تصدر اليها ، سواء من المشرفة أو من رئيسة الممرضات .

أثار هذا التصريح تأثيرا كبيرا في الحضور ، وكتم البعض أنفاسهم ، وكان له أكبر الأثر في بريسكوت نفسه ، فقد أصاب الاتهام بضربة معلم ، وربما استطاع أن يسقط التهمة عن لوسي .

وأحس البعض بالخطر ، ونهض درويت ، وكان يقوم بدور المدعي العام ، واعترض على قول لو ، وتضامن كولز ، محامي مستر سوليفان معه . وتبع ذلك نقاش طويل في الناحية القضائية ، ورفع القاضي يده أخيرا مطالبا بالصمت وانحنى نحو لو وقال :

ـ نحن مستعدون لسماع شاهدك يا سيد جون .

انحنى لو في احترام ثم اعتدل في وقفته وقال في صوت هادىء ان الدكتور بريسكوت سيدلي بشهادته .

واجفل بريسكوت عند سماعه اسمه ، فقد سارت القضية سيرا سريعا ، ولم يكن يتوقع أن يدعى للشهادة بمثل هذه السرعة . ولكنه تمالك نفسه ونهض وسار الى منصة الشهود ولاحظ وهو يتقدم ان الصحفيين أخذوا يدونون ملاحظاتهم في حمية ، وخيل له أنه يحس على قفاه بثقل نظرات الجميع . وأدرك فجأة انه أكثر شهرة مما كان يعتقد ، ولكنه لم يجد ما يكفي للتفكير في مثل هذه الاعتبارات لأن « لو » بدأ استجوابه قائلا :

ـ اسمك دكتور بريسكوت طبعا وتقيم في ٩٨٣ بشارع ويمبول ؟ .

ـ نعم .

ـ وما هي شهادتك ؟ .

ـ دكتوراه في الطب وشهادة في الجراحة ، ثم انني عضو في الجامعة الملكية للجراحة .

ـ هل تدير قسما في احدى المستشفيات ؟ .

ـ نعم . قسم الأمراض العصبية بمستشفى سانت مارتن .

ـ وهل سبق أن أدرت أقساما أخرى في مستشفيات غيرها ؟ .

ـ نعم .

ـ كانت لك اذن علاقات عمل دائمة مع الممرضات ، ويمكنك أن تتحدث عنهن وعن أخلاقهن اذن ؟ .

ـ أظن ذلك .
سكت «لو» لحظة ثم ألقى السؤال التالى فى بطء كان له أثره: دكتور بريسكوت ، اذا أنت أصدرت ، بصفتك الطبية ، أمرا الى احدى الممرضات فهل تتوقع من هذه الممرضة ان تنفذه ؟ .
ـ دون أى شك ، فهذا شرط أساسي ، بل الأساس الذى يتوقف عليه كل علاج طبى .
ـ حسنا . ومن ناحية اخرى ، هل يجب على الممرضة تنفيذ الأمر الذى تصدره اليهـــــا المشرفة أو أى شخص آخر له صفة المسئولية ؟ .

اجاب بريسكوت على الفور ودون أى ظل من الشك : هو ذلك .
ـ واذا هى لم تطع هذا الأمر افلا تكون قد اخلت بواجبها وتتعرض عندئذ للطرد أو للجزاء ؟ .
ـ نعم .
سكت «لو» لحظة وهو يهنىء نفسه على انه احرز تفوقا واثار اهتمام الجمهور . وانه فوق ذلك اثار اهتمام القاضى نفسه . وقال أخيرا :
ـ دكتور بريسكوت . هل حدث لك خلال عملك ان أمرت احدى الممرضات باعطاء جرعة مخدرة لأحد المرضى ؟ .

وازاء هذا السؤال الفظ والصريح سرت الرعشة بين الحضور ، ولكن بريســـكوت أجاب متمالكا نفســـه وفى هـــدوء كبير : مرارا كثيرة .
ـ ومن نفس هذه المخدر الذى نحن بصدده ؟ .
ـ بكل تأكيد .
ـ وهل يجب على الممرضة التى يصدر اليها الامر باعطاء مريض حقنة من هذا المخدر ان تطيع هذا الأمر من غير القاء أى سؤال ؟ .
ـ بدون أى شك .
أمسك « لو » عن الكلام لحظة ثم قال مبتسما : اشكرك يا دكتور بريسكوت . ليس عندى أى سؤال آخر .

وانتظر حتى غادر بريسكوت منصة الشهود وعاد مكانه ثم تحول الى القاضى وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة كما لو كان موقنا من أن النتيجة اصبحت فى صالحه وقال فى هدوء ووضوح :
ـ سيدى القاضى ، بناء على الشهادة التى استمعنا اليها اقترح رفض الدعوى ضد موكلتى ، فقد اعترفت مس لوسى لى بأنها لم

تقبل الا ما تعتقد انه واجبها ، والمسئولية كلها تقع اذن على صاحبة المصح (وفي هذه اللحظة نهض محامي مسز سوليفان وأبدى اعتراضا لم يلتفت اليه القاضي) واستطرد لو يقول : وأرى يا سيدى القاضي انه لو ان مس لي لم تطع ذلك الأمر الذى اصدرته اليها صاحبة المصح لتعرضت للجزاء ، وبناء على ذلك فانها تكون قد تصرفت بحسن نية او عن جهل تام .

ابدى دورويت اعتراضا عندئذ فأسرع «لو» يرد عليه في هدوء : ان زميلي المحترم يقول ان الممرضة التى تحترم نفسها ما كانت لتقبل العمل في مصح يتمتع بهذه السمعة السيئة ، وارد عليه فأقول ان اية ممرضة لا معين لها ، في مثل هذه الأوقات العصيبة التى نمر بها لا يمكن أن ترفض اية وظيفة تعرض عليها ، وتضطرها الظروف الى قبول اى عمل في أي مكان .

واستطرد يقول مخاطبا القاضي : انني لا اريد أن استغل صبرك يا سيدى القاضي فان الوقائع تتكلم بنفسها ، وأطلب منك بكل احترام أن ترفض الدعوى فيما يتعلق بموكلتي .

وجلس «لو» في حين ارتفعت همهمة بين الحضور . ونهرهم القاضي على الفور وأمرهم بمراعاة النظام ثم وقف دورويت وفند حجج لو ، وحذا كولز ، محامي مسز سوليفان حذوه . وأصغى بريسكوت اليهما وهو يتساءل في قلق عن نتيجة هذه المرافعات . وأخيرا رفع القاضي يده في حركة يشوبها الملل والحزم :

وكتم بريسكوت أنفاسه . كان كل شيء رهنا باللحظات التالية ، وبطريقة موضوعية وموجزة لخص القاضي التهمة الموجهة الى لوسى لو وحذرها من خطر قبول أى عمل دون التحقق من جديته ، ثم نطق بالحكم فقال : وبهذا لا محل لاقامة الدعوى ضد لوسى لي وعلى رجال الضبط اخلاء سبيلها .

الفصل التاسع

كان أول ما فكر بريسكوت فيه هو أن يسرع ويطلع آن على النبأ السعيد فغادر مكانه على عجل وأسرع الى كشك للتليفون واتصل بالمستشفى ، وما هي الا لحظة حتى كان يخاطب آن قائلا :

ـ كل شيء على ما يرام .

أطلقت آن صيحة مكتومة وقالت كما لو كانت لا تستطيع أن

تصدق : هل تعني انه اطلق سراحها ؟ .

ـ نعم .

وظن انه يراها أمامه وتخيل وجهها الشاحب وعينيها وقد عاد اليهما بريقهما ويدها تضغط على قلبها . ولم يترك لها الوقت لكي تنطق بشيء وأسرع يقول :

ـ سأصطبحها بمجرد أن تنتهي الاجراءات الى مكان ما لكي تتناول كوبا من الشاي ، وسابعث بها اليك في الساعة السادسة ستجدينها امام المستشفي بمجرد أن تفرغي من عملك .

لم تقو آن على النطق في باديء الأمر ولكنها لم تلبث ان قالت في صوت يتهدج لفرط الانفعال : أشكرك . أشكرك من أعماق القلب .

وأردفت تقول بين زفرتين : لن أنس أبدا ما فعلته من أجل لوسي ومن أجلي .

أحس بريسكوت بفرح لا يوصف يطغي عليه . وأعاد السماعة مكانها . وخرج من الكشك وهو يشعر بأنه لقي جزاءه بالامتنان الذي أظهرته له آن ، ووجد لوسي تنتظره في غرفة صغيرة معدة للانتظار وملحقة بقاعة المحكمة . كانت قد ربطت وجهها بالماء وبدا عليها انها استعادت بعض قواها . كانت أقل توترا عن ذي قبل ، ولكن عينيها الحمراوين كانتا تدلان على المعاناة التي عانتها . واذ رات بريسكوت يدخل نهضت وهي عاجزة عن الكلام واخذت يده بين يديها في صمت وانحدرت دموعها فوق خديها ، ولم يسع بريسكوت الا أن يرثي لها .

وأخذها من يدها وخرج بها الى الشارع ، وهناك استدعى سيارة أجرة مضت بهما الى مشرب صغير للشاي في حي هاديء . ولم يتكلم الا عندما رآها ترفع كوب الشاي الى شفتيها بيد مرتعشة فقال :

ـ انت أحسن الآن ؟ .

رفعت عينيها الذليلتين اليه واجابت في صوت خافت : نعم ، شيئا ما .

كيف يمكنه أن يقسو عليها ؟ خطر له أن يعاملها بجفاء والا يهتم بها اى اهتمام معتقدا انه قد بذل لها ما يكفي ، ولكن ازاء مسلكها المتواضع الذليل أحس أنه أعزل ، ثم انه تبين في وجهها الرقيق الشاحب المكدود شبها خفيفا بآن احدث فيه أثره . ومهما تكن قد فعلت ومهما يكن الثمن الذي لابد لها من دفعه فانها أخت آن على كل حال . وقال رغما عنه وفي شيء من الارتباك :

– لا تفكرى فيما حدث فقد انتهى كل شيء الآن .
قالت وهو تنشج : ان الأمر اقوى منى .
– يجب أن تنسى الماضى والا تفكرى الا فى المستقبل .
عادت تقول فى لهجة يائسة : المستقبل ؟ ... ليس هناك أى مستقبل بالنسبة لى ، فاننى افسدت حياتى .
صب لها بريسكوت قدحا آخر من الشاى ثم قال فى رفق :
– صحيح انك اقحمت نفسك فى ورطة ، ولكن ليس معنى هذا ان مستقبلك ضاع نهائيا .
اخذت لوسى تجفف عينيها المتورمتين بمنديلها الصغير الذى بللته الدموع وهى تقول : كان كرما منك انك شهدت فى صالحى واننى لم أفعل غير تنفيذ الأوامر الصادرة الى ولكننى كنت دائما ممرضة غير صالحة ، وهذه الفكرة وحدها تلح على . لقد حدث شيء فظيع فى شيريهام ، حيث بدأت حياتى كممرضة .
واهتز جسدها النحيل وهى تنتحب عند هذه الفكرة واستطردت :
– وكان ان توجت ما حدث هناك بهذه الفضيحة ، ولولا تدخلك لحكم على بالسجن . ما كان يجب ابدا أن اقبل العمل فى رولجريف ، لا سيما وأنا أعرف انه كانت تدور فيه أمور مريبة . كنت حمقاء وانانية ، ولم أكن أفكر الا فى شيء واحد هو أن أجمع المال وأن ألهوا بحياتى .
سألها بريسكوت : ولماذا لا تبدئين من جديد ؟ .
القت لوسى اليه بنظرة خجلى ثم اطرقت برأسها وقالت : ومن ذا الذى يريدنى الآن ؟ .
قال بريسكوت فى لهجة مشجعة لدى فكرة : فى مقدورك ان تكفرى عما حدث لو انك تريدين ذلك حقا .
اعتدلت لوسى وقد تبدلت أساريرها وأجابت فى حماس : لا أريد شيئا غير ذلك . اظن حقا اننى أستطيع ان اغدو ممرضة صالحة .. عندما تدربت فى شيريهام مع آن لا أدرى كيف نهجت هذا الطريق غير القويم .
– حسنا ، سأمنحك الآن الفرصة لكى تعودى الى ذلك الطريق .
واذ نظرت اليه متسائلة استطرد يقول : كما تقولين انت نفسك من المستحيل فى الوقت الحالى ايجاد وظيفة لك فى أحدى المستشفيات أو حتى فى عيادة خاصة . أن ما يلزمك الآن هو تغيير شامل .. عمل فعال يستغرق كل وقتك ويساعدك على النسيان وابعاد وخز

الضمير الذى سيؤرقك بعض الوقت .

والقى بزيسكوت اليها نظرة واحدة ثم تابع حديثه فقال : لقد تفشى وباء الحمى الشوكية فى برنجوير ، وهي بلدة صغيرة فى جنوب الفال . والمكان فظيع ، والحمى فظيعة هي الأخرى ، ولكنهم بحاجة قصوى هناك الى الممرضات . انهم غير منظمين ومرهقون ، واذا كنت على استعداد للمضى هناك فاننى أستطيع أن اسوى الأمر . ولكن هل تريدين حقا ؟ .

ساد الصمت لحظة تأرجح فيها مستقبل لوسى وهى تحاول اتخاذ القرار الذى سيغير مجرى حياتها ، ثم اعتدلت فى جلستها فى عزم وحزم وقالت : اننى أريد الرحيل الى برنجوير ، والآن فورا .

الجزء الخامس

الفصل الأول

استيقظ بريسكوت فى صباح اليوم التالى وهو يشعر بالارتياح لانه ادى واجبه . كان يعتقد انه فعل ما يجب عليه أن يفعل ولم يهمه ما سوف يكلفه ذلك من ناحية عمله . وبقى عليه أن يحصل على مكافاته نظير هذا العمل الذى أقدم عليه ، ونظم يومه وعلى شفتيه ابتسامة . كان يثق تقريبا من مساندة مس ملفيل له ومن تواطئها معه . سوف يمضى الى ميدان ترافلجار ويعرض على آن ان تتناول الغداء معه وسيتدبر الأمر لكيلا تعود الى المستشفى بعد الظهر لانه كان ينوى ان يبوح لها بحبه .

وارتدى ثيابه بعناية فائقة ووضع فى عروة جاكتته زهرة قرنفل حمراء ، وهم بأن يتناول طعام الافطار حين رن جرس التليفون فامسك السماعة وعرف صوت « لو » على الفور :

قال له صديقه : صباح الخير . كيف حالك ؟ .

— عظيم .

— الا تشعر باى ندم ؟ .

— على الاطلاق .

— ولا حتى بعد ان قرات الجرائد ؟ .

— لم اطالعها بعد .

قال لو فى سخرية حلوة : ما دام الأمر كذلك فسوف أنهى انا اليك بالنبأ السعيد . انني كنت على حق فيما قلته لك . فقد رأيت أوجيلفى أمس ، لقد شجبت الحكومة من برنامجها مشروع عيادتك .

والغريب ان النبأ المفجع الذى أخبره به « لو » لم يكن له تاثير كبير عليه ، واجاب فى مرح :

— لعمرى اننا لا نستطيع شيئا أيها الصديق العزيز . وانت نفسك قلت لى انك تتوقع ذلك ، ولا يقلل هذا من امتنانى لك .

وتبادلا الحديث لحظة اخرى ثم اعاد بريسكوت السماعة مكانها . لم يتغير مزاجه ابدا ولم يتناول افطاره بمثل هذه الشهية ، منذ

أسابيع طويلة . ومضي بعد ذلك الى عيادته فى انتظار آول مريض ، وما كاد يجلس حتى طرق الباب ، وتوقع ان يرى أحد المرضي ولكن ما كانت أشد دهشته وهو يرى آن امامه .

واندفع للقائها . كانت متلألئة الوجه ، واخذت يده وضغطت عليها طويلا ، ثم راحت تشكره بعينين براقتين وقالت :

ـ أنت لم تفلح فى تبرئة لوسى فحسب ولكنك زودتها بثقة جديدة فى نفسها وملأتها حماسا وجعلتها تشعر بالرغبة فى الحياة من جديد . ما اروع تلك الفكرة التى عرضتها عليها لكى ترحل الى بلاد الغال للتغلب على هذا الوباء الخطير . ان السماء هى التى اوحت اليك بهذا .

ـ أما زالت مصممة على الرحيل ؟ .

ابتسمت آن واجابت : انني لقيت مشقة كبيرة لاقناعها بعدم السفر الا بعد ظهر اليوم .

قال بريسكوت وهو يرتب الأوراق التى فوق مكتبه آليا وقد استولي عليه الارتباك ازاء ابتسامتها الساحرة وحلاوة وجودها فجاة : سيكون العمل هناك شاقا ... وشديد الخطورة . لابد لها من اتخاذ الحذر فان الحمى الشوكية ليست من الأمراض التي يستطيع المرء التغلب عليها بسهولة .

قالت آن يدفعها شوق جديد وحماس مضطرم : ان المرضة التى تمضي هناك تعرف ما ينتظرها .

ساد صمت ، ثم نظر بريسكوت اليها من ركن عينه وقال فى لهجة ارتسامية يخفي بها ارتباكه .

ـ انني اتساءل اذا كان يمكنك ان تسعديني بتناول الغداء معي اليوم . كنت أنوى أن اسألك ذلك على كل حال ويسعدنى ذلك الآن ... لأن لدى اشياء كثيرة أريد أن أفضى بها اليك .

تلاشت ابتسامة آن وبدا عليها فجاة الكدر والخيبة وقالت :

ـ أننى آسفة فان قطار كارديف ينطلق فى منتصف الساعة الثانية .

ـ لا أهمية لهذا . سوف نتناول الغداء بعد رحيل اختك .

نظرت آن اليه فى دهشة وقالت : ولكن ألم تفهم يا دكتور ؟ . انني راحلة انا أيضا .

قال مشدوها : راحلة ؟ .

اومات براسها وقالت وعلى شفتيها ابتسامة : لقد سمحت لى مس

ملفيل بذنك . كانت كريمة معي جدا . طلبت منها ذلك مساء أمس بعد أن رأيت لوسي ،وقد منحتني شهرا اجازة .

— ولكن ؟ ..

— لم يخطر لي لحظة واحدة أن أترك لوسي ترحل وحدها ، فهي بحاجة الآن الى من يقف بجوارها والى من يرفع روحها المعنوية .. عندما تشعر بالتعب والارهاق .

واردفت تقول وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة حلوة : ثم ان هناك خطرا كما قلت انت نفسك ذلك ، ولو أني بقيت هنا وتركتها تواجه هذا الخطر وحدها فانني أكون اختا أنانية حقا .

ظهر الجد على وجه بريسكوت فجاة وأسرع يقول : لا ترحلي ، ارجوك . ان لدي شيئا خاصا اريد أن أسالك اياه .

بدت الدهشة الشديدة على آن هذه المرة وقالت : ولكنني لا أفهم ... لماذا تعترض على ان أرحل ؟ .

كيف يعترف لها بالحقيقة ؟ تعذر عليه ذلك وهو يراها بعيدة المبالاة به تقريبا ، وتمتم يقول أخيرا :

— أعترف لك انني أخاف عليك من هذا الوباء الخطير .

— ولكن ما أروعها مهمة تتخذها ممرضة للتغلب على الشر ! ان كل ما أتمناه هو أن ابذل نفسي قلبا وقالبا في سبيل ذلك .

سالها بريسكوت وقد اكفهر وجهه وعبست أساريره أتحبين عملك الى هذا الحد ؟ .

— طبعا . ان عملي هو كل حياتي . لو تعرف مدى ما أشعر به من فرح لرحيلي الى برنجوير مع لوسي ! .. وكل هذا انا مدينة لك به ! .

خيم على الغرفة صمت عميق . وأحس بريسكوت بصداع شديد وبقلبه يكاد يكف عن الحركة . وفي لحظة تلاشي الفرح الذي استولى عليه عند صحوه من نومه . لقد كان مجنونا اذ بنى كل هذه القصور في الهواء واذ تخيل انه سيظفر بقلب محبوبته بمثل هذه الحركة البطولية ، وادرك ان الحياة ليست رواية وهوى في قسوة الى الارض وقال اخيرا :

— الواقع انني أدرك الآن انك سعيدة اذ ترحلين ، وانك تشعرين بفرح حقيقي ، ولا يسعني الا أن انحني .

واردف يقول في لهجة حزينة لا تخلو من مرارة :اسمحي لي على الأقل أن ارافقك الى المحطة .

الفصل الثانى

وصلت آن ولوسى الى مدينة برنجوير فى نحو الساعة السادسة مساء وهبطتا الى الرصيف تحت عصف الرياح . وبرنجوير بلدة صغيرة فقيرة تقع فى وادى جوير الضيق يجرى فيه نهر املح تلونت مياهه بالبقايا التى تلفظها مصانع الحديد التى تقوم على ضفتيه القاحلتين . والمدينة موحشة معزولة عن العالم تشرف عليها تلال عارية أقيمت فوقها بيوت العمال ويخفيها عن العيان الدخان وظلال الأفران العالية الحمراء .

كان هذا انطباع آن عندما خرجت من المحطة . وصعدت هى ولوسى فى العربة العتيقة المخلعة التى تنتظرهما . وكان الجو مكفهرا وخانقا ، وهو احساس زادته التلال التى تخنق المدينة من كل جانب . وكانت الرحلة طويلة ومرهقة ، ومع ذلك فقد أحست آن بالمرح والعربة تهتز فوق الشارع المبلط الوحيد ثم فوق الطريق الارضى الذى يؤدى الى نهاية مكانهما .

ورفعت الي الحوذى وجهها الذى تلفحه الرياح وسألته قائلة :

— أما زلنا بعيدين عن المستشفى ؟ .

وكان الحوذى رجلا مسنا تدعو حالته للرثاء ، يضع فوق رأسه قبعة قديمة وفوق كتفيه كيسا لكى يقيه من المطر ، وبدا انه لم يسمع السؤال فى البداية ثم تمتم يقول اخيرا :

— مسافة ثلاثة كيلو مترات ، ولكنه ليس مستشفى .

قالت آن مشدوهة : ليس مستشفى ؟ .

قهقه الرجل وقال : انه الجناح الذى بنى للأمراض المعدية منذ نحو خمسين سنة : عندما تفشى مرض الجدرى . وهو مبنى يكاد ينهار ولكن ليس هناك غيره ولابد من تدبير الأمور .

لم تشعر الأختان بأى اطمئنان عندما وقع نظرهما على المستشفى فقد كان عبارة عن مبنى طويل سطحه من الاردواز الاسود ويقع فى أرض موحلة ، وملحق به كوخ من الصاج والخشب يبدو أنه بنى حديثا لايواء المرضات . ومضت الأختان الى هذا الكوخ . وقالت لوسى وقد تملكها شعور من التخوف :

— انه مكان غير جميل .

اجابت آن وهى تبتسم : سوف نجعل منه جنة .

وطرقتا الباب ففتحته لهما امرأة متوسطة العمر تلبس مئزرة

سوداء وتقدمتهما الى غرفتهما . وكانت آن ولوسى قد توقعتـــا الأسوأ ولكن ما ان وقعت عيناهما عليه حتى تجاوز ببعيد كل تكهناتهما القاتمة ، فان الزنزانة الضيقة المخصصة لاقامتهما كانت لها قواطع خشبية غير متماسكة الأطراف وسقفها من الصاج ينقر عليه المطر بصوت صاخب . وله نافذة صغيرة زجاجها مكسور ، وعلى الارض والجدران آثار عفونة تدل على درجة رطوبتها العالية .

وبينما الأختان واقفتان تنظران فى صمت الى مسكنهما الجديد سمعتا وقع اقدام فى الطرقة ، واقبلت امراة متوسطة العمر سوداء الشعر يبدو عليها الارهاق ، ثوبها واسع على جسدها النحيل ، وكانت محنية الظهر يعطى مظهرها انطباعا بأنها منهوكة القوى ، والقت الى الوافدتين الجديدتين ابتسامة ترحيب باهتة وقالت :

— يسعدنى أن أراكما معا . انا مس جيمس رئيسة المرضات . هل قمتما برحلة طيبة ؟ ان مسكنكما غير مريح ولكننا مرهقون بالعمل ... مرهقون جدا .

وكانت تتكلم فى كلمات متقطعة وهى تهز يديها فى عصبية ، ولاحظت آن فى عينها اليسرى عصبا ينتفض فى مسافات منتظمة .

— ستجدان فى غرفة العموم بعض الطعـــام ... لا ادرى ماذا بالضبط ولكن أخشى أن يكون طعاما باردا ... اننا مرهقون بالعمل ... مرهقون جدا ، ويؤسفنى أن أطلب منكما البدء بالعمل هــذا المساء بالذات فأنا لا أستطيع غير ذلك ... اننا مرهقون جدا .

وفارقتهما مس جيمس على اثر ذلك . وتحولت لوسى الى أختها وقالت لها فى رفق : ان المراة المسكينة منهوكة القوى .

أومأت آن برأسها وهى تستأنف فحصها للغرفة وقالت : ارجو الا تتألمى كثيرا من مثل هذا المسكن الحقير .

قالت لوسى وهى تبتسم ابتسامة فاتنة ، طالما كنا معا يا حبيبتى فسيان عندى كل شىء . أننا لم نأت الى حفلة ترفيهية .

واغتسلت الفتاتان بقدر استطاعتهما فى طشت موجود فى ركن من الغرفة ثم لبستا زيهمـــا ومضتا الى غرفة العموم لتناول الطعام .

وكانت نظرة واحدة كافية لـكى تقتنعا بالوجبة الهزيلة المعروضة امامهما ، فقد وجدا فوق المائدة علبة من البلوبيف وبعض كسرات من الخبز وقطعة من الجبن المتيبس . وجاءتهما الخادم التى فتحت لهما الباب بقدحين من الكاكاو الفاترة ، وجلستا امام مائدة خشبية

ملوثة بالبقع ويكسوها فتات الخبز . كانت الغرفة شاغرة وكل ما فيها ينطق بالفوضى التامة . وكان على الممرضات أن يأكلن ما يجدن عندما يستطعمن ذلك دون مراعاة لأية مواعيد .

وبدأت الأختان تحتسيان الكاكاو ، وبعد لحظات سمعتا صوتا في الطرقة ثم دخلت الغرفة خمس ممرضات يبدو عليهن الارهاق ، واكتفين بأن ألقين نظرة على الوافدتين الجديدتين ثم ، وبدون تبادل أية كلمة مضين واكلن من اللحم والجبن والخبز . كانت ازياؤهن المختلفة الألوان تدل على أنهن أتين من مستشفيات مختلفة .

وارادت آن أن تحصل على بعض المعلومات عن الموقف غير حافلة باستقبالهن غير الودى فلفتت نظر أكبرهن سنا وقالت وهى تبتسم لها : لا ريب انكن قضيتن يوما شاقا .

أومأت الممرضة العجوز بالايجاب فعادت آن تقول : اننا اتينا لتونا ونحب أن نعرف الموقف .

وساد صمت قصير . كانت العجوز دافيس تبدو عازفة عن الكلام ولكنها لم تستطع مقاومة ابتسامة آن وراحت ترسم لها فى صوت خافت صورة وجيزة وواضحة عن الموقف فى برنجوير .

كان هذا المبنى العجيب الذى يسمونه مستشفى يضم خمسين مريضا بالحمى الشوكية ، وكان العدد يتزايد يوما بعد يوم . وكان المرض فتاكا اتى به بحار من احواض كارديف ومات متأثرا به وجر معه حتى اليوم أربعين مريضا .

ولم يتحرك المسئولون فى البلدة فى بادىء الأمر ، ولكن أمام عدد الموتى لم يسعهم الا أن يتحركوا أخيرا لا سيما أن حالة من الرعب استولت على الاهالى ، ولزم الناس بيوتهم وخشيت الامهات على أولادهن فأغلقن ابوابهن عليهم ، وبدت المدينة أشبه بمكان موبوء .

ولكن لم يدرك احد خارج البلد خطورة الوباء ، ثم أن المستشفى كانت تعيش على الموارد المحلية الهزيلة ويعاونها عدد من الممرضات ارسلتها اليها من الخارج مراكز مطلعة .

ولجأ المسئولون أخيرا الى وزارة الصحة ، فانتدبت هذه طبيبا من لندن اسمه الدكتور هسبلى لم يكن أكثر من بيروقراطى ضيق الأفق ليس فى رأسه غير فكرة واحدة تطبيقا لتعليمات الجهات العليا وهى تحاشى اعطاء أية دعاية مكدرة وغير مجدية للوباء قبل كل شيء آخر .

وكان اطباء البلدة ، على الرغم من كثرة مشاغلهم يبذلون ما فى

وسعهم ويبذرون انفسهم دون اى حســاب ، وبينهم على الاخص الدكتور فوريست ، وهو طبيب قدير كامل الصفات كان روح كل شيء في المستشفى على الرغم من محاولات همبلي لــكي يكون على راس العمليات ، فهو الذى شخص أول حالة وهو الذى طلب المصل ، ولو ان مس جيمس ، رئيسة الممرضات بذلت جهدا اكبر ونشاطا اكثر لانحسر الوباء ولكن المراة المسكينة كانت تضطلع باعباء تتجاوز حدود قدرتها فاضناها التعب وانهك قواها واصبح يخشى عليها من أن تقع فريسة للانهيار العصبي .

استمعت آن ولوسي الى قصة مس دافيس في اهتمام تام . وفكرتا لحظة وكانت لوسى هي التي تكلمت فعبرت بذلك عما يجيش في صدرهما معا . قالت : اظن ان من الأفضل ان نبدأ العمل الآن فــورا .

القت آن الى اختها نظرة استحسان وحنان . أحست بالدفء في قلبها وهى ترى لوسى شديدة اللهفة الى العمل والى رد اعتبارها لنفسها .

وغادرت الأختان المائدة وخرجتا من الغرفة الضيقة واسرعتا تحت سيل المطر الى المبنى الرئيسي ، وطبقا لبطاقتى خدمتهما خصصتا للعمل في جناح السيدات بالطابق الأرضى ، وهو عبارة عن غرفة طويلة منخفضة السقف بها ثلاثة مصـــــابيح غازية تعكس ضوءا ضعيفا ، وسررها ذات الأغطية الحمراء متقاربة بحيث كانت تبدو للناظر أنها فى صفين كبيرين لا نهاية لهما. ولم تكن الغرفة مكتظة فحسب ولكنها كانت تعطى انطباعا كذلك الانطباع الذى يتركه سطح سفينة في حالة من الفوضى بعد نضــال عنيف يائس مع عناصر الطبيعة والموت . وعلى منضدة في وسط الغرفة كيس به ثلج يذوب وقنانى طبية سداداتها منزوعة ، ومكدسة فى غير نظــام ، بين السجلات وبطاقات الحرارة . وعلى الأرض حاجز أوقعه احدهم واهمل اعادته الى وضعه الأول .

سجلت عينا آن المدربتان كل هذه النقاط . كانت تعرف الصعوبات التى تنشأ عن زيادة المرضي ، ولكن لا الزيادة ولا الصعوبات كانت تبرر الحالة الحالية للغرفة . ولم تبد اية ملاحظة للممرضة التى كانت قبلها وحلت محلها ، وكذلك لم تصدر اى أمر للوسى ، وراحت الاثنتان ، باتفاق مشترك ، تعيدان النظام الى الغرفة .

وكانت مهمة شاقة زاد من صعوبتها قلة المواد الضرورية اللازمة .

كان أحد دولابي البياضات فارغا ، ولم يكن بالآخر غير بضعة اغطية ما تزال رطبة . ولم يكن هناك أي غطاء اضاق ، ولا ليزول ولا صبغة يود ولا شاش . ودونت آن قائمة بالمواد الضرورية لكي تطلبها بصفة عاجلة ، ومع ذلك ، وبعد ساعتين من عمل شاق متواصل تغير منظر الغرفة تماما . وفي نفس اللحظة التي همت آن فيها أن تشير لأختها لكي تستريح لحظة فتح الباب فجاة امام رجل طويل القامة ضخم الجسم ذي شعر أشيب مشعث وطويل من الخلف ووجه تعلوه الغضون وحاجبين كثيفين وله نظرة متعبة وحادة عرفت فيه آن من الاوصاف التي ذكرتها لها مس دافيس الدكتور فوريست .

وكان هذا الأخير قد دخل في خطوات سريعة ولكنه توقف على الفور وهو يرى التغيير الذى طرا على الغرفة . وردد البصر حوله ولم يفلت منه أي شيء . وتحول عندئذ الى آن ولوسى ، ولم يبد لهما أية ملاحظة عن التحسين الذى رآه ولم ينطق بأية تهنئة ولا أى ثناء . نظر اليهما لحظة ثم صاح :

ـ هل اتيتما اليوم ؟ من اين ؟ .

قالت آن في ايجاز : من لندن .

ـ اتبعاني . يوجد هنا عمل لممرضتين تعرفان مهنتهما ، وأحمد الله اذ أرسلكما الي .

وطاف ثلاثتهم بالغرفة متوقفين أمام كل مريضة لفحص حالتها على حدة .

الفصل الثالث

لم يسبق لآن او للوسى العناية بالمرضى المصابين بالحمى الشوكية قبل اليوم . كانت كل منهما تعرف طبعا تطور الأمراض المعدية المختلفة ، ولكن كانت هذه اول مرة تقفان فيها أمام شر يتجاوز في فظاعته وخطورته اسوا انواع الحمى الاستوائية . كان كثير من المرضى في برنجوير تظهر عليهم أعراض السكتة . وكنت ترى شخصا يبدو في تمام الصحة تأخذه رعشات مفاجئة تتبعها آلام مبرحة في الراس وتشنجات فظيعة ثم يقع بعد ذلك في حالة من الفتور وفي اقل من اربع وعشرين ساعة يتغلب الفيروس ويطويه الموت .

لم تكن كل الحالات صاعقة هكذا ولكن غالبية المرضى كانوا يجدون أنفسهم بين الحياة والموت اياما طويلة . وكان الدكتور

فوريست يعرف تاريخ هذا المرض الخطـــــير فلم يترك اى وهم للممرضتين بخصوص معدل الوفيات فحدثهما عن وباء بلفاست في سنة ١٩٠٨ حيث أصاب المرض ٧٢٥ شـــخصا مات منهم ٥٤٨ ، وعن وباء نيويورك سنة ١٩٠٤ حيث مات أكثر من نصف الآلاف الذين أصيبوا به .

واستبد الجزع بآن الى حـــد أن النوم كان يجافيها فى اكثر الأوقات . كانت تعرف ان موارد المستشفى هزيلة وان هناك نقصا كبيرا فى التغذية . وكانت مس جيمس على الرغم من قوة ارادتهـــا عاجزة عن مواجهة مثل هذا الموقف الدقيق ، ولم تكن تملك الصفات الضرورية للادارة والتنظيم ، واذا كانت قـــد بقيت في وظيفتهـــا كرئيســـة للممرضات فقد كان ذلك راجعا الى الدكتور هسبلى . كانت تنتمي مثله الى وزارة الصحة ، وقد حاول الدكتور فوريست كل شيء وهاج وماج ولكن دون جدوى ، فانذلك الموظف البيروقراطي لم يكن يفكر الا في الاحالة الى المعاش وفى الترقية والاقدمية ... ولم يفكر أبدا فى نقلها أو استبدالها بغيرها .

ومع ذلك ، وبعد أسبوعين من قدوم آن ولوسى تكفل القدر بتغيير الأوضاع دون أية مأساة أو ضجة ، فقد انهارت مس جيمس ووقعت فريسة انهيار عصبى مفاجيء .

وقع ذلك فى الردهة أثناء لقائها اليومى مع الدكتور فوريست والدكتور هسبلى كانت قد قدمت لهما تقريرهما . أربع حالات وثلاث وفيات أثناء الليل ووضعت يديها على صدغيها فجأة وصاحت :

ــ آه ، رأسي .. رأسي . انني مرهقة بالعمل ... مرهقة جدا .. انني أكاد أجن .

واسرع الدكتور هسبلى يقول متعلثما : ماذا بك . هل تشعرين بشيء ؟ .

أجابت المسكينة : لا أشـــعر بأى شيء . ولكننى لا استطيع الاستمرار هكذا .. لم اعد استطيع . انني بحاجة الى الراحة . يجب أن أذهب من هنا والا جننت .

وانتهز الدكتور فوريست الفرصة ، وفى اقل من ساعة كانت مس جيمس هى وحقائبها فى القطار المنطلق الى سوانسى ، وناقش بعد ذلك مسألة استبدالها مع الدكتور هسبلى .

قال هذا الأخير : سأتصل برؤسائى على الفور . وسوف يرسلون

الينا بديلة لها قبل نهاية الاسبوع بلا شك .

قال الدكتور فوريست بلهجة لا تقبل الجدل : لا داعي لذلك تحت أيدينا البديلة .

قال هسبلي وهو يقطب حاجبيه : عفوا ؟ .

عاد فوريست يقول في حزم : لا داعي كما قلت لك . سوف نضع مس لي على رأس الممرضات فهي قديرة وتعرف كيف تتصرف . لا داعي للنقاش ياهسبلي . واذا لم توافقني هذه المرة فسوف أطردك من هذه المدينة .

ومن غير أن يترك لهسبلي الوقت لكي يرد مضى لكي يبحث عن آن لانه أراد أن يخبرها بالنبأ بنفسه ، ووجدها في القاعة تهتم بالمريضات كعادتها ، وبادرها قائلا :

ـ وهكذا ، أريد أن أكون أول من يهنىء رئيسة ممرضاتنا الجديدة .

تلقت آن النبأ دون أن تهتز لها خلجة واحدة وهي تنظر بعيدا وقد أقلقتها المهمة التي تنتظرها . لقد أصبحت على رأس الممرضات اخيرا واصبح في مقدورها تحقيق الحلم الذي تتمناه منذ وقت طويل .

وصاح فوريست مندهشا : ما هذا ؟ ... الا تنطقين بكلمة ؟ قولي لي على الأقل ماذا تنوين أن تفعلي ؟ .

أجابت آن وهي تزن كلماتها : أما هذا فانني اعرفه تمام المعرفة يا دكتور فوريست . ولكن هل يسمحون لي بذلك ؟ هنا بيت القصيد .

صاح فوريست : طبعا ، وسوف اؤيدك فقدطفح بي الكيل ولم أعد أستطيع احتمال بخل هسبلي وتفاهاته . سندير أنا وانت هذا المستشفى كما يجب أن يدار وسنتغلب على هذا الوباء حتى لو كلفنا ذلك حياتنا .

استولى الحماس على آن هي الأخرى وقدمت للدكتور فوريست عرضا سريعا لبرنامجها . كانت قد فكرت فيه مليا خلال ليالي العمل الطويلة بحيث راحت الكلمات تندفع من بين شفتيها اندفاعا .

ـ أولا يلزمني ممرضات يا دكتور ، وانا اعرف أين أجدهن . وستكون نوبة عمل كل منهن ثماني ساعات منذ الآن بدلا من احدى عشرة ساعة وسارسل بعضا منهن لعيادة المرضى في بيوتهم والكشف عن الحالات المشبوهة ويجب أن نحسن سكناهن قبل كل شيء وان

نعنى بتغذيتهن ، فان التغذية تلعب دورا كبيرا امام هذا الوباء ، اذ كيف نطلب من الممرضات المرهقات العناية اللازمة للمرضى وهن لا يجدن التغذية السليمة ولا المسكن النظيف . انني ، انا واختي لا نعيش منذ ان اتينا هنا منذ خمسة عشر يوما الا على الفضلات . وهذا سخف . انني اريد لممرضاتي حساء شهيا ولحما ساخنا وسابحث لهن عن طاهية وارتب المطبخ . وساجد لهن مساكن في الخارج . بعض منهن سيبقين في هذا البيت المنهار ولكنني اريد للأخريات مساكن محترمة حيث يمكنهن الاستجمام والاسترخاء .

وامسكت عن الكلام لحظة ثم عادت تقول : انني أفكر في هذا الامر منذ وقت طويل ، وقمت بجولة في البلدة . واكتشفت خارج المدينة بيتا شاغرا وهو بيت قديم ولكنه مريح . يلزمني هذا البيت يا دكتور . وساهتم انا نفسي بالطلبات من عند البدال والجزار واللبان والصيدلي ، واعدك الا اسرف . لن اطلب الا الضروري جدا للحرب التي يجب أن تخوضها ممرضاتي ... ولكننا سنخوض هذه الحرب لانقاذ حياة الأهالي لا لابادتهم .

سكتت آن وهي تلهث وخشيت أن تكون قد صدمت الدكتور فوريست . وقالت اكثر مما يجب . ولزم الدكتور الصمت لحظة طويلة ثم ومضت عيناه واخذ يدها وضغط عليها طويلا وقال اخيرا في رفق :

ــ اى ابنتى العزيزة . ساؤيدك في كل ما تفعلين ... وحتى النهاية .

لبست آن معطفها وخرجت لكي تقوم بالخطوات اللازمة ، ومضت اولا الى مكتب البريد وارسلت برقيتين احداهما الى سوزان جلادستون سكرتيرة الاتحاد ترجوها أن ترسل اليها ست ممرضات مؤهلات وبرقية اخرى الى نورا وجليني بمستشفى مانشستر تتوسل اليهما ان تفعلا كل ما وسعهما لكى تنضما اليها .

الفصل الرابع

وكان لابد من ان يقع الصدام مع الدكتور هسبلي ، وكان صداما عنيفا حاسما ، ففى نفس اليوم الذى خول فيه الدكتور فوريست لآن سلطة كاملة استدعاها هسبلي في مكتبه الصغير واكد لها في لهجة متعاطفة ومتعجرفة في نفس الوقت ترقيتها وشكرته آن

بلطف ولكنها لم تشر الى شيء من خططها .

ولكنه استدعاها من جديد ، وبصفة عاجلة في صباح اليوم التالى ، وبعد توزيع اللبن مباشرة تقريبا ، وآ ينتظرها وهو واقف يبدو عليه الاستياء الشديد وفى يده فاتورة . وبادرها قائلا :

ــ ما معنى هذا يامس لى ؟ خمسة ارطال من اللبن زيادة صباح اليوم . انني لم أوقع على اذن اضافى للمرضى .

قالت آن في هدوء : هذا صحيح يا دكتور ، ولكننى وقعت اذنا للمرضات .

ــ الممرضات ؟ .

ــ نعم يا دكتور . وسيأكلن اليوم بودنج باللبن الحقيقى وليس مزيجا بغيضا من الدقيق والماء .

ــ ولكن ...

قاطعته آن قائلة : ان الجنود ، في ميدان الحرب بحاجة الى الغذاء الجيد يا دكتور ، وممرضاتى هنا في ميدان حرب .

صاح الدكتور هسبلى في صوت راح يزداد حدة : ليس لك الحق في اتخاذ اى قرار بدون أذن منى .

ــ انت مخطىء في قولك هذا يا دكتور ، وفى نيتى اتخاذ قرارات اخرى كثيرة ، أكثر اهمية من مسالة اللبن .

ثم عرضت عليه في هدوء وحزم كل ما تنوى تنفيذه . ونظر الدكتور هسبلي اليها فاغرا فمه ، مشدوها ومحنقا في نفس الوقت وصاح :

ــ ولكن هذا مستحيل . هذا جنون ! ثم انه لا توجد لدينا الاستمارات اللازمة لكل هذا .

حاولت آن تهدئته قائلة : لو انني مكانك لما ازعجت نفسى كثيرا بمسالة الاستمارات خلال الأسابيع القادمة .

اشتد الغضب بهسبلى حتى أفقده وقاره ، واصطبغ وجهه وصاح فى صوت حاد : ولكن هذا كثيرا . انني ساضطر الى توقيع جزاءات يا مس لى بسبب عدم مراعاة النظام والوقاحة . احزمى حقائبك وغادري المكان .

هزت آن راسها وقالت : كلا يا دكتور هسبلى . لن اغادر المكان . ان لدى مهمة لابد لي من انجازها . لماذا ترفض التعاون . ان فى هذا خير للجميع .

وازاء كل هذا الهدوء والثبات لم يعرف غضب هسبلى حدودا وصاح : انك تنسين شيئا ، وهو انك مطرودة .

وفى هذه اللحظة فتح الباب ووقف الدكتور فوريست على عتبته وفهم الموقف بنظرة واحدة وتقدم فوقف بجوار آن وقال :

ـ لا تكن أحمق يا هسبلى . ان خطط مس لى رائعة . وليست هذه لحظة مناقشتها أو عرقلتها .

اصفر لون هسبلى وراحت يداه ترتعشان وقال : هل افهم من هذا انها مؤامرة ضدى ؟ .

دمدم فوريست : ما هذا الهذر ؟ انها مجرد مسالة حسن ادراك . دعك من هذا الغباء . تأوه هسبلى قائلا : ومن الذى سيدفع كل هذا .

ـ وزارتك طبعا . واذا هي رفضت فساذهب اناومس لى ونستجدى فى الشوارع . سنغنى ونخطب ونثير فضيحة اذا لزم الأمر لكى نرغم الأهالى على التبرع بما يستطيعون .

ساد صمت طويل ثم رفع هسبلى يده دليلا على العجز . وتمتم :

ـ لا يسعنى الا أن أنحنى .

كان هذا الرد كفيلا بارضاء فوريست على الرغم من خشونته وغلظته ، ولو ان الامر اقتصر عليه لاكتفى بذلك ولدار على عقبيه وهو يتذوق انتصاره ولكن آن كانت اكثر آدمية وكانت ترى أبعد من ذلك فانحنت فوق الطبيب المنتدب وحاولت اقناعه وكسبه الى صفهما قائلة : فكر فيما ستناله من شرف يا دكتور هسبلى اذا نحن استطعنا التغلب على الحمى .

فكر هسبلى لحظة ثم ومضت عيناه وقال : هذا صحيح . انك على حق . ان هذا يمكن أن يساعدنى أكبر مساعدة فى مستقبلى .

فارقته آن وهى سعيدة بأنها جعلت منه صديقا ونصيرا . وفى ساعة الغداء شعرت بارتياح أكبر عندما قدمت للممرضات وجبة شهية ساخنة . كانت قد نظمت المطبخ قبل ذلك والحقت به طاهية قديرة اثبتت جدارتها .

وفى نفس المساء وصلت الممرضات الست التى أرسلها الاتحاد ، وقادتهن آن بنفسها الى الفندق الصغير المريح حيث أعدت غرفتهن ، ثم حددت على الفور وقت العمل بثمانى ساعات يوميا لكل منهن .

واعطى هذا التجديد نتائج غير متوقعة . ولم تعد هناك ممرضات منهوكة القوى وانما وجدت آن وجوها باسمة وسمعت ضحكات أثناء

تناول الطعام ، وكان لطيبتها ونشاطها فعل السحر فقد اشتغلت المرضات أفضل وأسرع واستطاعت آن بعد أيام قلائل أن تتنفس .
وفي يوم الاثنين التالي جاءت نورا وجليني . ماذا فعلتا للحصول على اجازة وبأية معجزة استطاعتا اقناع مس ايست الصارمة لكي تتركهما يرحلان ؟ ظل هذا الأمر سرا غامضا لم يفصحا عنه . وسرقت من وقتها الثمين نصف ساعة ومضت ، هي ولوسي الى المحطة لاستقبالهما . وكان اللقاء حارا ومؤثرا . وضمت نورا آن حتى كادت ان تكتم أنفاسها ولم تطلقها أخيرا الا لكي تعتذر قائلة :
ــ لم يكن ينبغي أن اسمح لنفسي بكل هذه الألفة فأنت قد أصبحت الآن شخصا مهما يا آن لي ... رئيسة المرضات بمستشفى برنجوير .
وقالت جليني بتلك اللهجة الجادة المعروفة عنها : انني استعد لكي أركع في كل مرة تدخلين فيها القاعة .
قالت نورا وعيناها تلمعان خبثا : ليس هذا بكفاية . لو كنت مكانك لتمددت على الأرض لكي أكون لها بساطا .
ضحكت آن من قلب خلي وقالت : اذا لم تكفا عن مثل هذه الحماقات فانني سأطردكما على الفور . هلموا بنا الآن . أين حقائبكما ؟ ان هذه العربة المخلعة ملك لنا ، والمرضات يسمونها « اكسبريس الحمى الشوكية » .
صعدت المرضات الأربع الى العربة القديمة وهن يضحكن . كن شهادة حية لجلال مهنتهن وعظمتها ، فقد أقبلن وغامرن بحياتهن للعناية بمرضى مصابين بمرض معد وقاتل وهن يواجهن ذلك بمرح وشجاعة واقدام .
وعندما بلغن المستشفى منحت آن نفسها ميزة من ميزات وظيفتها الجديدة فأمرت بتقديم الشاي والبسكويت في غرفتها ولأختها وللممرضتين الجديدتين . وكان اجتماعا ساده المرح والسرور .
وقالت جليني متخلية لأول مرة عن لهجتها الجادة : هذا جميل . هل الطعام هنا شهي هكذا دائما .
قالت لوسي : كان يجب أن ترى نوعيته عندما اتينا هنا . لو أنك رأيته عندئذ لغيرت رأيك هذا .
نظرت جليني الى لوسي نظرة فاحصة ثم هزت رأسها في استحسان وقالت وهي تقضم قطعة أخرى من البسكويت : ان لي الصغيرة فتاة

عاقلة ويسرني إنني تعرفت بها .

والغريب هو ان آن لى هى التى احمر لونهـا عند هذا القول ، فقد سرها أن تشعر صديقتاها بالمودة والحب نحو اختها . وكان هذا اكبر دليل على ان لوسى قد تغيرت . وعندما فرغوا من تناول الشاى استبقت آن لوسى لحظة وقالت لها :

ـ يسرني انك تفاهمت جيدا مع نورا وجلينى وسـيكون من المستحب لك أن تسكنى معهما ، فقد حجزت لكن انتم الثلاثة غرفة كبيرة ومريحة فى الفندق .

قالت لوسى مشدوهة : فى الفندق ؟ .

ـ نعم . ستكون الغرفة مريحة لك تماما عن هذا البيت الشنيع المنهار ، فانه يقلقنى جدا أن تنامى فى مثل هذه الغرفة غير الصحية والتى تنضح بالرطوبة . اننى اخشى أن تصابى فيها بنزلة شعبية .

ـ وانت يا آن ؟ هل ستنزلين فى الفندق انت ايضا ؟ .

ـ هذا مستحيل اذ يجب ان ابقى هنا .

قالت لوسى وعلى شفتيها ابتسامة رائعة : اذن فسابقى انا ايضا .

واستطردت تقـول دون ان تترك لها دقيقة للاعتراض : لعلك لا تتصورين اننى ساتركك تنامين فى هذه الحفرة البغيضة فى حين ارقد انا فى الترف . كلا يا عزيزتى . لم اعد أسعى وراء مثل هذا البذخ ، ثم انك اذا ارسلتنى للاقامة فى الفنـدق فسوف تقـول المرضات الاخريات انك تحابيننى لاننى اختك . كلا يا عزيزتى ، اننى افضل مئة مرة أن ابقى معك .

ثارت آن جدا واحست بدموعها تتصاعد الى عينيها ، ولم تصر واكتفت بان قالت :

ـ هناك شىء آخر ، ولا اريد نقاشا فى هذه النقطة فانا الآمرة هنا ثم انه ليست هناك محاباة ، فهذا قرار استحققته بجدارتك . ومنذ قدومنا هنا وانت تبذلين قصارى جهدك . ومن رايى انك خير ممرضة فى هذه المستشفى ، وقد تحدثت فى هذا الامر مع الدكتور فوريست ، وهو يؤيدنى تماما ... لوسى . اننا نفتتح قاعة جديدة فى الطابق الاول وستخصص لعلاج الأطفـال فحسب ، وقد عينتك مشرفة على هذه القاعة الجديدة .

ضمت لوسى يديها وسكتت وقد غلبها الانفعال . واخيرا قالت :

ـ اشكرك يا آن . ماكان فى مقدورى ان أشعر بمثل هذا الفرح كله .

الفصل الخامس

تسلمت المرضة الجديدة عملها في قاعة الاطفال . وطفى السرور على قلب آن وهى ترى أختها في زيها الجديد ، مدركة بمسئوليتها وتضطلع بها بكل الجد والنشاط .

وكان في القاعة نحو عشرين طفلا ، وهى قاعة كبيرة مكونة من غرفتين متصلتين ، زودت بالاجهزة اللازمة باسرع ما يكون . وكان اكثر هؤلاء الاطفال قد نقلوا من قاعة النساء وفي طور النقاهة ، اما الآخرون فكانوا لا يزالون في مرحلة الخطر ولكن انقاذهم كان مأمولا الا أن طفلة منهم كانت في أسوأ حال وكان الدكتور فوريست يعتقد أنه لن يمر عليها أسبوع .

ووجود حالة واحدة ميئوس منها من بين عشرين ليس امرا مثبطا بالنسبة للمشرفة وانما نسبة مئوية مشجعة جدا في مثل هذا الوباء الخطير ، ومع ذلك فان لوسى ، لسبب خفى ، لم تستسلم للامر الواقع وركزت كل طاقتها على هذه الطفلة التى تصارع الموت .

كان مسلكها مدهشا جدا بحيث ان آن لم يسعها الا أن تلحظه . وفي ذلك اليوم دخلت قاعة الأطفال ، بعد مرور شهر كامل على تعيين لوسى مشرفة له ووقفت مشدوهة امام المنظر الذى يطالع عينيها ، فقد كانت لوسى منحنية فوق الطفلة تحيطها بلفافات رطبة لخفض الحرارة ، وهى طريقة مألوفة في مثل هذه الحالة ، ولكن الغريب ان لوسى ، وهى المشرفة ، هى التى كانت تقوم بهذا العمل في حين ان تحت أمرتها ممرضتين .

واختبأت آن خلف ستار وراقبت لوسى مدة طويلة ، وأدهشها الحنان العميق الذى تنم عنه كل حركة من حركاتها . كان فيها شيء من الأمومة . كانت الطفلة ، ولم تكن قد تجاوزت الرابعة من عمرها ، ابنة زوجين طيبين وكريمين بالمدينة . وكانت آن لا تزال تتذكر جزعهما ازاء اضطرارهما لفراق ابنتهما ، كان منظرا مؤثرا حقا يقطع نياط القلوب . ولم يستطع « توم هدلى » العودة الى عمله فكان يقضى اغلب وقته في فناء المستشفى ، على امل الحصول على انباء ابنته الصغيرة جراسى .

وصحيح انه على الرغم من أضرار الحمى ، ومن البقع التى تملأ بشرتها الرقيقة ، ومن تصلب عنقها فقد كانت «جراسى هدلى» طفلة

فاتنة . وبينما كانت آن تتأمل فى حزن الطفلة الغائبة من الوعى عادت الى ذاكرتها ذكرى غامضة ، وعجبت كيف لم تفطن الى ذلك من قبل . كان هناك شبه عجيب بين هذه الطفلة وبين الطفل الصغير الذى مات بالدفتريا فى مستشفى شيرهام .

أدركت آن فى لمحة خاطفة كل شىء ، فان لوسى ، متأثرة بهذا الشبه ، تشن معركة حامية لا ريب انها خاسرة مسبقا ، لكى تنتزع من الموت هذه الطفلة من بين مخالب الموت .

عبست أسارير آن . خشيت التأثير الذى يمكن أن يحدثه الفشل المؤكد تقريبا على روح لوسى المعنوية ، ثم انها لاحظت ان لوسى تنحنى فوق الطفلة أكثر من اللازم معرضة نفسها هكذا للعدوى ، فى حين انه قيل للممرضات ان يتخذن اشد الحيطة والحذر .

واذ فرغت لوسى من لفافاتها ارقدت الطفلة ورأت آن وهى تستدير فعلت وجهها حمرة خفيفة ولكنها لم تنطق بشىء ، وجففت الجسد الصغير بعناية كبيرة ثم أخذت حرارتها . وقالت فى حزن شديد :

ــ واحد واربعون . لم تنخفض الحرارة الا ربع درجة . اننى اغير هذه اللفافات من ساعة لأخرى ، فهذه الوسيلة الوحيدة لكى تهبط الحرارة .

سكتت آن كارهة ان تتدخل ولكن لم يسعها الا أن تقول اخيرا :

ــ لماذا لا تدعين مس رنتون تحل مكانك بضع ساعات .

أجابت لوسى فى اصرار : كلا . اننى أحرص بصفة خاصة على الاهتمام بهذه الحالة بنفسى .

ماذا يمكن لآن أن تقول ؟ ترددت ثم قالت فى رفق وتحفظ : اخشى ان الدكتور فوريست لم يعد لديه أمل كبير .

ومن جديد بدا اصرار عنيف على وجه لوسى الشاحب ، واجابت بصوت مرتجف . أما انا فلم أفقد الامل . فى مثل هذا الحد من تطور المرض فان العناية والرعاية يأتيان بمفعولهما ، ولهذا أحرص على أن اتولاهما بنفسى .

ايدتها آن فى انفعال بحركة من راسها ، ولكن لم يسعها الا أن تقول قبل انصرافها : اتخذى كل الاحتياطات ضد العدوى يا لوسى. أرجوك.

ابتسمت لوسى وقالت : عجيب أن تقولى لى ذلك يا آن لى . انك لم تتخذى طوال حياتك أية حيطة .

وما كادت آن تخرج من القاعة حتى عادت لوسى الى فراش الصغيرة جراس هدلى كما لو ان قوة مغنطيسية تجذبها اليها ،

وجلست بجوار الطفلة الغائبة عن الوعي والتي تتنفس بصعوبة بالغة ولم تفارقها بعينيها ... بعد ثلاثة ارباع الساعة ستغير اللفافات الرطبة ، وفي مقدورهم أن يقولوا ما يشاءون ولكنها لن تتركها ... كلا ، لن تتركها تموت .

ومر يوم وآخر ، ثم أقبل يوم السبت وانتهت عطلة نهاية الأسبوع والصغيرة جراسي هدلي ما تزال تتنفس يربطها بالحياة خيط رفيع .

ولم يحتفظ الدكتور فوريست بأي أمل مع ذلك على الرغم من دهشته . ومع ذلك فقد أصدر أمره باعطاء الصغير جرعة مضاعفة من المصل تحقن في نخاعها الشوكي ، وفيما هو يبتعد ألقى من فوق كتفه نظرة فاحصة الى لوسي وسألها :

ــ ماذا تأملين يا مس لي ؟ اتريدين التدليل على انك على حق وانني مخطيء .

ولكن إيمان لوسي لم يتزعزع وراحت تباشر واجبها الانساني في هدوء لانقاذ الطفلة .

وفي صباح اليوم التالي ، وكان يوم ثلاثاء ، بقي الدكتور فوريست بجوار الطفلة أكثر من المعتاد . وكانت لا تزال غائبة عن الوعي . وقال أخيرا في صوت خشن وهو يمر باصابعه في شعره الأشعث : أن جراسي اذا تغلبت على الأزمة التي تهددها في الأربع والعشرين ساعة القادمة فانها ستنجو عندئذ ولكنه أردف يقول في صوت أشد خشونة:

ــ ان من رأيه أن هذه الأزمة ستكون القاضية .

أربع وعشرون ساعة ! لجأت لوسي الى آخر قواها وهي تنظر الى الساعة ، ومضت الثواني في بطء وخلفها الدقائق ، وانتهى النهار ، ولم تكن لوسي قد غادرت القاعة منذ اثنى عشر ساعة ، ومع ذلك فقد اصمت أذنيها عن نصائح أختها وصممت أن تقضي الليل أيضا بجوار الصغيرة المريضة ، فقد كانت هذه آخر رحلة في السباق مع الموت .

واقبل الليل وجلست بجوار الفراش ، وفي الساعة الثانية صباحا كانت الطفلة تكاد لا تتنفس ، واحست لوسي بأن نبضها يكاد أن يقف .

امتقعت لوسي كما لو أنها هي التي توشك على الموت . أبعد هذا الجهد كله تفشل في آخر لحظة ؟ واحست ان رأسها تكاد أن تنفجر . وانحنت فوق الجسد الصغير وراحت تمارس عملية التنفس الصناعي في حركات دقيقة وسريعة .

كما مضى من الوقت ؟ لم يكن بمقدورها ان تقول ذلك ، ولكنها عنـــدما توقفت كانت الطفلة تتنفس فى ضعف ولـــكن فى انتظام ، ويا للمعجزة ! .. كانت هناك حبات من العرق على جبينها .

أخذت لوسى حرارتها بيدين مرتعشتين ولم تجرؤ على النظر الى الترمومتر ، ولكنها عندما نظرت اليه أخيرا أطلقت صرخة فرح فقد هبطت الحرارة . وأخذت قطارة وصبت بضع قطرات من البيتون فوق لسان جراسى . واذ رات الطفلة تبتلعها بطريقة طبيعية وثب قلبها بين ضلوعها . وتضاعف تنفس الصغيرة وانتظم نبضها فى حين راحت الحرارة تهبط باستمرار . وصبت لها قليلا من البيتون للمرة الثانية ازدردته الطفلة بسهولة أكثر ، وارتفع جفناها مع ساعات الفجر الأولى . والنظرة التى القتها الى لوسى كانت واعية وواضحة . لم يكن بمقدورها أن تتكلم بعد ، ولـــكن لن يتأخر فى ذلك مع عودة الحياة . وهكذا تغلبت الطفلة على الأزمة ، وأحست لوسى بسعادة غامرة وانحدرت على خديها دموع الفرح وعقدت يديها ورفعتهما الى السماء فى شكر وامتنان ثم مضت الى النوافذ وهو تترنح تعبا وفتحتها . ورات توم هيدلى مستندا الى الجدار ، وكان قد سهر طوال الليل هو الآخر . ونظر اليهـــا متسائلا فطمأنته بابتسامة ، وأشارت اليه أن يصعد ، وبينما كان يندفع ذهبت الى لقياه . وكانت تسير وهى شبه نائمة . وهناك ، على عتبة الباب ، وبينما كانت تخبره بالنبأ طلعت الشمس والقت بأول أشعتها عليهما معا .

الفصل السادس

كان شفاء الصغيرة جراسى هيدلى معجزة أثارت ضجة كبيرة فى المستشفى ، خاصة وانه كان بداية لانحسار الوباء بصفة عامة . فقد مضت أربعة أيام دون أن تحدث حالة وفاة واحدة ، وخفت حدة المرض وقل عدد الاصابات . وكان الدكتور فوريست قد قام بالاجراءات الوقائية فى المدينة واعطت زيارات الممرضات للمساكن نتائج طيبة ، وانتهزت آن هذه الفرصة ورات أن تستوفى رسائلها وفكرت فى المستقبل . كان لابد لها الآن أن تعود الى لندن . ستصطحب لوسى معها وسوف تعملان معا فى مستشفى ترافلجار ، ولا ريب ان مس ملفيل ، عندما تسمع سلوك لوسى الرائع لن تحجم عن أن تعهد اليها باحدى القاعات ، وقالت تحدث نفسها أن الامر ليكون جميلا أن تصبح هى واختها

مشرفتين في المستشفى .
وكتبت لمس ملفيل رسالة في هذا المعنى ، وكتبت رسالة اخرى الى مس جلادستون تخبرها فيها بخططها ومشروعاتها ، كما كتبت رسالة ثالثة لمس ايست بمانشستر تذكر لها فيها الانجازات الرائعة التي قامت بها نورا وجليني .
وكتبت رسالة أخيرة للدكتور بريسكوت ، وكانت اشق رسالة كتبتها . وقد دهشت هي نفسها لأنها تجد مشقة كبيرة في كتابتها ، وتحدثت فيها قليلا عن مجهوداتها التي كللها النجاح ولكنها اسهبت في الكلام عن لوسى وعن المعجزات التي قامت بها . وشكرته مرة أخيرة لانه منحها الفرصة لاظهار مواهبها . واذ بلغت هذه المرحلة توقفت وأفلت القلم من يدها . لماذا تحس دائما بالعجز عن التعبير عما يجيش بقلبها في الأسابيع الاخيرة كلما فكرت في بريسكوت ؟ .. كانت تحس من نحوه بمشاعر غامضة مضطربة وتشعر بسرور لرؤيته وبرهبة في نفس الوقت . وابتسمت وهي تفكر في ذلك واعتدلت في مقعدها وقد تأهبت للفراغ من رسالتها . ولكن نورا دخلت في هذه اللحظة كالقنبلة دون ان تطرق الباب ، وكانت شاحبة جدا وتلهث كما لو كانت قد قطعت شوطا كبيرا جريا ، وحاولت ان تتمالك ، وتمتمت :
ـ أغمي على لوسى في القاعة .. انها .. انهارت فجأة ومرة واحدة .
تحولت آن اليها كالمصعوقة ، واذ رأت نورا ذلك اسرعت تقول متلعثمة : أوه ، ليس هذا شيئا من غير شك ... ولكن الدكتور فوريست أرسلني ... لكي آتي بك .
خيم على الغرفة صمت عميق ، وتسارعت الى شفتي آن شتى الأسئلة ولكنها لم تنطق بأي منها ، فقد كانت تعرف معنى الاغماء الذي حل بأختها . ونهضت وتبعت نورا وهي لا تعي شيئا .
ووجدت لوسي في غرفة صغيرة تستخدم للخدمة ، وكانت راقدة فوق بضع وسائد صفت فوق الأرض على عجل . وكان الدكتور فوريست جاثيا بجوارها في حين وقفت ممرضتان خلفه . وادركت آن من أول وهلة ان الاسوأ قد حدث فلم يغم على لوسى وانما كانت ترقد لا تعي ما حولها وقد تسارعت أنفاسها واحتقن وجهها . كانت أول أعراض المرض قد ظهرت على بشرتها واحست آن بيد من الثلج تطبق على قلبها ، فقد وقعت لوسي بدورها فريسة للوباء .

ونهض الدكتور فوريست ولم يجرؤ على النظر الى آن خوفا من أن تقرأ الحقيقة في عينيه ، وقال أخيرا في صوت أجش كما لو كان ليعتذر .

ـ أخشى أن يكون هـذا ما تخشاه . سنضعها في غرفة مخصصة للمعزولين ، فستكون فيها أحسن . وسنفعل المستحيل .. نعم ، المستحيل .

وأحست آن بعجزها عن النطق بأية كلمة . كانت تعرف أن الدكتور فوريست ما كان ليتكلم هكذا لكي يطمئنها . وبذلت جهدا شديدا وتحولت الى نورا وقالت :

ـ اعدى الفراش في الغرفة الصغيرة بآخر القاعة لجليني آنني سأكون بحاجة اليها هي الأخرى .

وانتشر النبا في المستشفى كلها سريعا . واقبل الدكتور هسبلي بنفسه وعبر عن تعاطفه مع آن . وكانت امارات الحزن واضحة على وجهه الهزيل المعروق ، وقال :

ـ لا ريب أن العدوى انتقلت اليها من الصغير جراسي هيدلى فقد أخلصت كل الاخلاص في العناية بها . انني حزين حقا يا مس لى وسنفعل المستحيل لانقاذها .

ولم تكن آن بحاجة الى توكيداته ، فقد كان الجميع يبذلون المستحيل لذلك فعلا ، ولكن للأسف لم تستجب لوسى للعلاج على الرغم من كل محاولاتهم .

وفي نحو الساعة الرابعة بدات تحتضر وتحرك يديها بعصبية وتهذى ، وكانت تنطق باسم آن كثيرا . ولم يعرف غير نورا وجليني مدى العذاب الذى تعانيه آن . ومع ذلك . فان هذه الأخيرة كانت تغير كيس الثلج الذى فوق جبين أختها من وقت لآخر دون أن يبدو عليها شيء مما تعانيه . ولم يعرف الدكتور فوريست ، وكان يأتى من ساعة لأخرى لكى يتابع تطور المرض ، ماذا يقول وكان يكتفي بهز راسه .

وفي الساعة السادسة استولت على لوسي موجة شـديدة من التشنجات . وريعت آن ولكن كانت هي التي أعطتها حتى لا ترتعش حقنة من المورفين . وتوسلت نورا اليها قائلة :

ـ آن ، بحق الله ، اذهبى واستلقى لحظة .

قالت آن في صوت مكروب : انني سأخرج لحظة . اريد أن أرسل برقية . يجب أن اخطر زوجها .

ومضت الى مكتبها وأرسلت بالتليفون برقية الى جو فى مركز الشركة الرئيسي ، ثم وبعد التفكير خشيت الا تصل هذه البرقية اذ ربما يكون قد ذهب الي الشمال فارسلت برقية أخرى مسهبة الى الدكتور بريسكوت تسأله ان يتصل بجو بأى ثمن وأن يطلب المجىء الى برنجوير على الفور .

وعادت الى غرفة المريضة ، ووجدت الدكتور فوريست يتشاور مع هسبلى وطبيب آخر بالمدينة . وبقى الأطباء الثلاثة مدة طويلة عند فراش المريضة ثم أخذ فوريست آن من يدها الي آخر الغرفة وحدق فى عينيها هذه المرة وقال لها فى صوت خافت حازم :

ـ انني أعرف انك شجاعة يا ابنتي وقد قدمت لي على ذلك ألف دليل منذ أن عرفتك ، ولهذا لن أخفى عليك الحقيقة . ان أختك هالكة ، وليس هناك اى أمل .

وأسرع يقول مستدركا : ولكننا لن نكف عن المقاومة ، غير اني حرصت على أن تعرفي الحقيقة .

ضغطت آن على يديها فى شدة وقالت فى صوت مختنق : كنت أعرف ذلك .

وهبط الليل وازداد هذيان لوسي وراحت تصرخ على الرغم من المخدرات التي أعطيت لها ، وتحاول النهوض . واضطرت آن الى ان تمنعها بقوة من الوقوع من فوق الفراش ، وفيما هي تمسكها من يدها عصر الحزن قلبها وهي ترى مبلغ ما أصابها من هزال . لم يغلبها المرض فحسب وانما غلبها ارهاق أسابيع طويلة ، ثم هبطت الحمى فجأة من ٥ر٠٤ درجة الى ١ر٣٧ . وهمست آن في أذن نورا :

ـ اذهبى وابحثى عن الدكتور فوريست .. وعن جليني كذلك .

وبعد الحادية عشرة بقليل كفت لوسي عن الهذيان ، وتحول وجهها من الانتفاخ والاحتقان الى الشحوب والاصفرار ، وتحرك جفناها في ضعف وفتحت عينيها ورأت أختها منحنية فوقها فقالت :

ـ آن ... الى ببعض الماء .

وبعد أن شربت بضع جرعات بقيت جامدة لحظة ، راقدة على ظهرها . كانت قد أفاقت ، وقرأ الجميع فى عينيها انها تعرف أنها موشكة على الرحيل ، ودارت بعينيها فى الغرفة ووقع بصرها على نورا وجليني ، وبذلت جهدا وبسطت يدها اليهما وهى تقول فى صوت يكاد لا يسمع : انني سعدت بمعرفتكما ... وبالعمل معكما .

انهمرت الدموع على وجه نورا وجليني ، وقالت هذه الأخيرة :

ـ سوف نعمل معا قريبا من جديد .
ارتسمت على شفتى لوسي الجامدتين ابتسامة غامضة وقالت : كلا يا جليبي . لن نعمل معا ابدا بعد الآن .
وساد صمت عميق ثم تمتمت لوسي : اريد أن اخلو باختي .
وانسحب الجميع وراحت نورا تبكي ، وجلست آن بجوار اختها واخذت يدها دون أن تنطق بكلمة . وقالت لوسي أخيرا في صوت ضعيف : آن ... هل تذكرين ما حدث في شيريهام ... هذا الصبي الذي مات بسببي ... انني كفرت عن موته الآن ، أليس كذلك ؟ .
أجابت آن في صوت متقطع : نعم يا حبيبتي .
عادت لوسي تقول وهي تنطفيء سريعا : هناك شيء آخر كنت اريد ان تعرفيه . قبل أن آتي هنا كتبت الى رئيسة الممرضات في شيريهام ، واعترفت لها بكل الحقيقة .
غضت آن على شفتيها لكيلا تبكي ، وساد صمت طويل ثم سألتها لوسي : هل أخطرت جو ؟ .
ومن جديد أومأت آن برأسها لها بالايجاب وقالت : وهناك قطار يصل في منتصف الليل .
ظهرت على شفتي لوسي شبح ابتسامة وقالت : اخشى أن ارحل قبل أن يأتي . مسكين جو . كوني طيبة معه يا عزيزتي آن ، فأنا لم إصبه الا بكل نهر .
وكان رد آن أن اخذت يد أختها بين يديها وضغطت عليها وعصف الحزن بقلبها ولم تستطع النطق .
وتلاحقت أنفاس لوسي . وعادت تهذي من جديد ثم قالت فجأة :
ـ آن . غن لي ذلك النشيد الذى كنا نغنيه معا ونحن صغيرتين .
تغلبت آن على دموعها وطلبت من الله أن يعطيها القوة لكي تمنح لوسي هذه البهجة الاخيرة . والقت ذراعيها حول كتفي أختها وضمتها اليها بحنان وراحت تغني في صوت خافت حلو ، وبعد أن انتهت زفرت لوسي زفرة طويلة ثم تمتمت : شكرا يا آن .
ومضت لحظة ثم فتحت لوسي عينيها بكل اتساعهما . وكان صدغها باردا على صدغ أختها وقالت :
ـ كانت الليلة طويلة جدا ومظلمة جدا ، ولكن النور يعود يا حبيبتي آن ، ولا ريب أنه نور الفجر .
وكانت هذه آخر كلماتها ، فقد وقعت فوق الوسادة ورأسها مائلة الى الجنب قليلا ، ودخلت في هدوء في فجر أبدي .

الفصل السابع

جلست آن بجوار أختها ولم تستطع ان تذرف دمعة واحدة وبقيت مدة طويلة لا تتحرك كالمشلولة . ونهضت أخيرا وطبعت قبلة أخيرة على جبين أختها المثلج ثم أطبقت عينيها وغطتها بالملاءة . وسمعت من بعيد صوت محرك ثم توقفت عربة في فناء المستشفى . وردتها فكرة قدوم جو الى نفسها .

وفتح الباب وظهر جو وهو يسحق قبعته بين يديه فى عصبية . والقى نظرة مذعورة على الجسد المسجى فوق الفراش . واقتربت آن منه وقالت تهدىء من روعه : أنا حزينة يا جو ... ولكن حدث هذا سريعا .

تقدم جو خطوة الى الأمام وهو مرتبك . كان الإنفعال فى هذه اللحظة متغلبا عليه أكثر من الحزن . وحاولت آن أن تساعده بقدر الامكان فقالت :

ـ ان الحمى الشوكية سريعة المفعول فى بعض الأحيان .

تمتم جو يقول : اعرف ذلك . وهذا ما قاله لي الدكتور بريسكوت فى القطار .

نظرت آن اليه مشدوهة وقالت : الدكتور بريسكوت ؟ .. هو هنا اذن ؟ .

ـ نعم . لقد أصر على أن يأتي معي . وقد كان كريما جدا .

وتقدم خطوة اخرى نحو الفراش وهو فى غاية الانفعال . وامتلأ قلب آن رحمة به وشفقة فأتت بالحركة الواجبة وكشفت عن وجه لوسى فى صمت . وعندما رأى جو الملامح المتشنجة للفتاة الجميلة التى كانت زوجة له انهار وجثا بجوار الفراش وراح يبكى .

وادركت أنه يجب أن تتركه وحده فخرجت مترنحة من الغرفة وقد اطرقت برأسها وعصف الألم بقلبها . وعندما بلغت الممر كان أول شخص رأته هو بريسكوت ، ووقعت عيناها على ملامحه الجامدة التى يخففها عطف كبير واحست فى غموض بانه يأخذها من ذراعها ويمضى بها بعيدا عن الأشخاص ذوى النوايا الحسنة الذين قد يزيدون المها فى اسرافهم لاظهار عواطفهم . واذ بلغ نهاية الطرقة توقف وتحول اليها دون أن يطلق ذراعها وقال فى صوت ينم عن انفعاله وتأثره :

ـ آه . ماذا اقول لك يا عزيزتى ؟ ما ان تسلمت برقيتك حتى

اسرعت انا وجو . وانا حزين لاننا وصلنا متاخرين .
تمتمت : لم يعد لهذا اهمية الآن .
قال بريسكوت في صوت يرتجف قليلا : انت مخطئة يا عزيزتي .
ثم جمع كل قواه ونطق بالكلمات التي يتلهف على النطق بها منذ اسابيع : ان لك اهمية كبيرة عندي .
نظرت آن اليه في شرود . وأثاره حزنها الشديد وجرفته عواطفه المكبوتة منذ وقت طويل ولم يتمكن من اخفاء حبه أكثر من ذلك فقال :
— آى حبيبتي آن . لا تنظري الى هكذا . فان قلبي ينفطر وانا اراك حزينة هكذا . انني أحبك . أحبك حبا ملك على شغاف قلبي منذ شهور فاقبلي أن تكوني زوجتي . سأفعل كل شيء لمواساتك واسعادك .
وأراد ان يأخذها بين ذراعيه ولكنها اقصته عنها في هول وصاحت :
— كلا ، كلا . لا تقل هذا .. الم تفهم ؟ .. ان لوسي .. اختي المسكينة الحبيبة ماتت .
واضطربت كالحيوان الطريد ، ثم تفكك فيها شيء واستسلمت لألمها واستطاعت أن تبكي أخيرا ... واسرعت تهبط السلم وهي تبكي بحرقة ، واندفعت خارج المستشفى ، في هواء الصباح البارد .

الجزء السادس

الفصل الأول

بعد ذلك بشهرين كانت آن جالسة الى مكتبها باتحاد الممرضات تطالع البريد الوارد اليها ، وهي اذا كانت لم تعد ترتدى زى الممرضات فان الثوب الأسود البسيط الذى ترتديه كان يكسبها هيئة صارمة تتفق تماما مع بساطة الديكور الذي يحيط بها ويعكس حالتهـــا المعنوية .

كانت تشارك مس جلادستون فى سكرتارية الاتحاد منذ خمسة عشر يوما ، وقد كان فى مقدورها عند عودتها من برنجوير أن تستعيد وظيفتها كمشرفة في مستشفى ترافلجار ، ولكن سوزان جلادستون كانت قد ارهقت بالعمل فتوسلت اليها أن تقبل هذه الوظيفة وعرضت عليها مشاركتها فى المسكن الذى تقيم فيه فوق مكاتب الاتحاد . ومع انه كان يشق عليها أن تترك مهنة التمريض الا أنها أدركت أن فرصتها فى هذه الوظيفة الادارية سوف تكون أكثر فعالية فى بلوغ هدفهـــا الذى تسعى اليه وهو تحسين أوضـــاع الممرضـــات ثم أن ســـوزان جلادستون استطاعت أن تنتزع منها قرارها الأخير بحجة لا تقبل الجدل اذ قالت لها انها سوف تبلغ سن الاحالة الى المعاش بعد سنة وأنها لا ترى خيرا منها لـــكى تخلفها .

وفى صباح ذلك اليوم من شـــهر يونية كانت آن تفحص البريد الوارد عندما دخلت سوزان وأشعلت سيجارة ثم جلست على حافة المـكتب ونظرت الى صديقتها نظرة فيها شيء من السخرية وقالت لهـــا :

ــ في غرفة الانتظار مراسلان صحفيان يريدان اخذ حديث من عزيزتنا مس آن لى الحائزة على وسام الشرف البريطاني ، فهل تتكرمين باستقبالهما ؟ .

رفعت آن رأسها . وهي اذا كانت لا تزال شابة فى ربيع العمر الا أن ملامح وجهها الجميل كانت قد اكتسبت صرامة وصلابة فان وباء برنجوير ووفاة أختها قد وسماها بشدة . ومنذ أن رقدت لوسي

رقدتها الأخيرة فى المقبرة الريفية الصغيرة التى تلفحها الرياح وابتسامة آن الرقيقة قد فقدت رقتها وحلاوتها .

وعادت سوزان جلادستون تقول : ما رأيك يا آن ؟ أعرف انك شخصيا لا تريدين ذلك . ولكنها ستكون دعاية طيبة للاتحاد .

قالت آن فى حزم : اذا كان الأمر كذلك فسوف أستقبلهما .

وبعد دقائق دخل الصحفيان ، وقال أكبرهما سنا : أشكرك لاستقبالك لنا يا مس لى . علمنا باهتمام كبير ان الحكومة منحتك وسام الشرف البريطانى لانجازاتك العظيمة فى برنجوير خلال وباء الحمي الشوكية . ونحن نهنئك ويسرنا أن نطلع قراءنا على مشاعرك وأحاسيسك .

فكرت آن لحظة ثم قالت بلهجة الجد : انني سررت بذلك طبعا . ولكن سروري يكون أعظم لو ان جميع الممرضات اللاتى اشتركن فى محاربة هذا الوباء منحن نفس الوسام .

صاح الصحفى الآخر : انك متواضعة جدا يا مس لى ، فأنت ألتى توليت كل شيء هناك ، ولم يكن مستطاعا منح هذا الوسام لجميع الممرضات .

ــ هذا جائز . ولكن فى استطاعتكم انتم أيها الصحفيون ان تفعلوا شيئا من أجلهن .

قال الصحفى الأول وهو يفتح دفتر مذكراته : وكيف هذا يا مس لى ؟ .

أجابت آن وهى تزن كل كلمة من كلماتها : الآن وقد توقف الوباء وتسربت بعض انبائه الى الصحف فان الجميع يهنئون أنفسهم على العمل العظيم الذى اضطلعت به الممرضات فى برنجوير . وقد نشرت الجرائد مقالات صغيرة تمتدحنا فيها ، وأدرك الشعب الانجليزى اهمية مهنتنا ، والخدمات التى تؤديها فى سائر البلاد . غير أن هناك أمورا كثيرة لا يعرفها الشعب ، ومنها الأوضاع البشعة التى تعمل فيها غالبية الممرضات ... ساعات الخدمة الطويلة والمرتبات المزرية والطعام الهزيل الذى لا يكاد يسد الرمق والمساكن الحقيرة . وأقول لكما صراحة ان حياة الممرضة على العموم ما هو الا سلسلة من الحرمان والأشغال الشاقة . ولا يمكن معالجة ذلك بمنح الأوسمة لاربعين ألف ممرضة ، ولكن من الممكن معالجتها بمنح أربعين ألف ممرضة شروطا أفضل لحياة كريمة .

قال الصحفى الشاب : مرحى يا مس لى .

وقال الآخر وهو يدون ملاحظاته في اهتمام : استمري .
وعادت آن تقول : هذه المسألة على جانب كبير من الأهمية ، واذا كنت لا تصدقني فانظر حولك . ان هناك آلافا من الفتيات يملن لمهنة التمريض ولكنهن يخشين الالتحاق بها لا خوفا من الخطر على الرغم من وجوده وانما خوفا من التضحيات الانسانية التي يطالبونهن بها . ان نقص الممرضات امر محسوس الآن ، واذا لم تتغير هذه الأمور فاننا سنواجه كارثة وطنية حقيقية . وهذا هو السبب الذي دفعني بعد عودتي من برنجوير الى ترك مهنتي في مستشفي ترافلجار والقدوم للعمل هنا في الاتحاد مع مس جلادستون لأن هدف الاتحاد نفسه هو الحصول على أوضاع أفضل للممرضات ووضع نظام جديد لهن . ولكن يجب قبل كل شيء اثارة الرأي العام . ان شعبنا شعب عادل وكريم ، ولكما أن تصدقاني ، فسوف يؤيدنا الشعب كله ان آجلا أو عاجلا ، وفي ذلك الوقت سنتجه الى البرلمان ولن يستطيع أحد عندئذ الاعتراض على التحسينات التي كان يجب أن تتم منذ وقت طويل .

وساد صمت كان اكثر تعبيرا عن كل كلام ، ثم قال الصحفي المسن وهو يطبق دفتر مذكراته :لعلنا حصلنا على بداية حملة صحفية كبيرة . من رأيي انك لم تذكري الا الحقيقة واذا أرادت الصحافة فان في مقدورها أن تقدم لك تأييدا حقيقيا .
وضغط هو وزميله على يد آن ثم انصرفا . وقالت سوزان عندئذ :
ـ مرحى يا آن . ستكون هذه بداية حملة صحفية حقيقية .
اجابت آن في غير حماس : هذا اذا وفيا بوعدهما .

ولكن تشاؤمها لم يكن في محله ، فبعد ساعتين ، وبعد أن فرغتا من تناول طعام الغداء خرجت مس جلادستون لكي تتمشى قليلا غير أنها لم تلبث ان عادت وفي يدها جريدة المساء، وكانت قد ظهرت لتوها .
وصاحت تقول :
ـ آن ... انهما وفيا بوعدهما حقا ... وكتبا مقالا رائعا .

انتزعت آن الجريدة من يد صديقتها وقرات في الصفحة الأولى نص العنوان التالي بالخط العريض :
بطلة برنجوير الحائزة على وسام الشرف .
تقول انها كانت تفضل بكثير وضع نظام جديد للممرضات بدلا من حصولها على هذا الوسام .

وتحت هذا العنوان الضخم ، وعلى عامودين كبيرين نشرت الجريدة نص الحديث الذى دار بين الصحفيين وبين آن لى ثم زادت عليه واضافت نبذة عن الاتحاد منذ تأسيسه وعن الغرض الذى يسعى اليه والوسائل التى تحت يده .

وقالت سوزان : سوف تمتلىء خزانتنا بعد هذا المقال .

وافقتها آن بايماءة من راسها . واذا كانت قد كرهت أن تشيد الجريدة بالدور الذى قامت به فى برنجوير فانها أدركت أهمية مثل هذه الدعاية وهنأت نفسها اذ رأت بداية هذه الحملة ولكنها لم تشعر بالغبطة التى كانت تتوقعها من تحقيقها ، فقد كانت لا تزال ميالة الى الحزن ، ولا ريب انها لم تكن قد افاقت بعد من الصدمة التى سببتها لها وفاة لوسى . وانحنت فوق مكتبها واستغرقها العمل . ونهضت أخيرا ، بعد أن انتهت ساعات العمل ولبست قبعتها ، فسألتها صديقتها :

ـ الا تصعدين لتناول قدح من الشاى ؟ .

اجابتها : كلا . ليس اليوم ، فان لدى موعدا . أوه ، لست متمسكة به ولكننى أرى من واجبى الا أتخلف عنه . سأعود فى نحو السابعة على الأكثر .

ولم تسألها سوزان شيئا آخر ، ولكنها أعدت لنفسها فنجانا من الشاى . وكانت تفكر وتشعر بالقلق . كانت تفهم اشياء كثيرة ، وعلى الأخص أن آن كانت تعيسة جدا .

الفصل الثاني

وصلت آن الى مشرب بلاك كات فى الساعة الخامسة والنصف ، وبلاك كات هو المشرب الصغير بشارع ريجنت حيث كانت تلتقى فيه بلوسى . ولعل ذكرى هذا الماضى هى السبب فى حزنها هذا . وكان يبدو عليها القلق ، ولا عجب فقد كانت على موعد مع جو ، وكانت تخشى ما سوف يقوله لها .

ومع ذلك ، فعندما دخل جو ، مبتسما وواثقا من نفسه ، فى حلته السوداء الجديدة وقبعته الرخوة ، ارغمت نفسها على أن ترد له ابتسامته . وصاح هو يقول فى حرارة :

ـ صباح الخير يا آن . ما أشد سرورى برؤياك . أرجو ان تلتمسى

لى عذرا لتاخرى ، فقد أقبلَ بعض الركّاب فى آخر لحظة لحجز أماكن لهم واضطررت الى تسيير سيارتين اضافيتين .

واردف يقول بعد أن جلسا الى احدى الموائد : هناك خبر عظيم اريد إن انهيه اليك . لقد استدعتني الادارة ولا اكاد اصدق ما حدث ، فقد عينت مديرا لكل منطقة الشمال .

ــ ولكن هذا عظيم حقا يا جو .

اصطبغ وجه جو وقال : يجب ان اشكرك لما يقع لى يا آن ، فأنت التى أقنعتني بالبقاء فى شركة « سوبر كارز » . هل تذكرين ذلك اليوم الذى اردت ان أهجر فيه كل شيء . كنت محطما عندئذ ولولاك لانتحرت ... ولو انه قيل لى فى ذلك اليوم انني سأكون مديرا لاحدى المناطق ... وهل تعرفين كم ينقدونني به ؟ .. خمسمائة جنيه فى السنة ، وهو مبلغ أكثر بكثير عما كان يمكن أن أربحه لو استمرت شركتى لهذا الوغد جرين . وفوق ذلك سيكون فى مقدورى مغادرة لندن والاقامة فى الشمال لأن من خصائص وظيفتي الجديدة التنقل ما بين ليفربول ومانشستر وادنبرة . لسوف أقيم فى بيت صغير فى شيريهام .

واذ سمعت آن هذه الكلمات الأخيرة شعرت بخوف مبهم واطرقت براسها الى الارض فى حين عاد هو يقول :

ــ ولهذا السبب اردت ان اراك يا آن . انني ساغادر لندن فى الاسبوع المقبل بصفة نهائية وسأقيم فى الشمال . ولكن هناك نقطة حساسة وهامة اريد أن أحدثك عنها قبل ذلك .

استولى عليها الفزع واستمرت تتحاشى نظرته ، ولا ريب أنه فهم ما يدور فى راسها لأنه انحنى فوق المنضدة وأخذ يدها وقال فى رقة :

ــ كلا يا آن . ليس الأمر كما تظنين . انني ما زلت أحبك طبعا ، واعتقد انى ساظل على حبك الى الأبد ، ولكنه حب مختلف هذه المرة ... يضاف اليه موت لوسى ، والشكر الذى أدين لك به ... ثم ... ما زال هناك شيء آخر ... هناك شخص آخر أعجب به وأحترمه بقدر احترامى لك .. وأعنى به الدكتور بريسكوت .

اضطرم وجه آن عند سماعها ذلك ولكن جو لم يعبأ بها واستطرد يقول :

ــ لا يمكن أن تعرفي كلّ ما بذله من أجلي . لقد كان كريما وعظيما

معي أيام محنتي عند موت لوسى ، ثم انني أدين له والى توصية منه بمركزى الجديد فى الشركة ، ولكن هذه قصة أخرى فأنا لم آت لكى اتحدث عن نفسي ، وانما عنك أنت ومن بريسكوت .

وانحني فوق آن وواصل حديثه قائلا : اليك الأمر الهام الذى أردت أن أحدثك عنه ... انني أعرفكما معا جيدا ، وقد راقبتكما وأنتما تجتمعان معا . انك تحبين هذا الرجل ، وهو الآخر يحبك ، فلماذا لا تستجيبين لعواطفك ؟ .

أجفلت آن وقد صدمتها هذه الاشارة المباشرة لعواطفها الخاصة وللطريقة الفظة التى تعدى بها على التحفظ الذى تحيط نفسها به . ولكن كان من المحال أن تترك مثل هذا السؤال من غير أن ترد عليه فقالت :

ـ انك نسيت شيئا سبق أن ذكرته لك منذ وقت طويل ، فحتى اذا فرضنا أن ما تقول صحيح فانني أمارس مهنة لا تتفق فى رأيي مع الزواج .

ـ لعل هذا صحيحا عندما كنت تعملين فى المستشفيات . أما الآن فلم يعد هناك أى مساس لما تقـــولين ، بعد أن أصبحت سكرتيرة للاتحاد .

ـ ولكنني ما زلت ممرضة يا جو ، وقد قبلت هذه الوظيفة لتحسين أوضاع الممرضات .

قطب جو جبينه وفكر لحظة ثم قال : أظن انك ترتكبين غلطة فظيعة يا آن ، فان الزواج لن يمنعك أبدا من العمل على تحسين أوضاع زميلاتك ، وانني أتساءل اذا لم يكن للكبرياء دخل فى رفضك هذا . التمس معذرتك يا عزيزتي فما كان يجب أن أقول هذا . ولكن لا غرض لى الا سعادتك ، وانني لأتنازل عن الكثير فى سبيل أن أراكما زوجين، أنت والدكتور بريسكوت .

طال الصمت هذه المرة . وتأثرت آن وهى ترى اهتمامه بهـــا ونكرانه لذاته بهذه الصورة ، وأحست فى نفس الوقت بجرح فى قلبها لن يندمل أبدا . وكانت تعرف نفسها جيدا لكى تعلم أنها لن تدوس أبدا على كبريائها بعد أن صدت بريسكوت . ولكنه هو الآخر شديد الكبرياء ولن يقوم أبدا بالخطوة الأولى .

واعتبر جو انه قال ما يكفى فلم يعد الى هذا الموضوع . وقضيا وقتا آخر فى الحديث عن أشياء أخرى ثم رافقها الى ميدان موزوم حيث ودعها وانصرف .

الفصل الثالث

لم يكن اليوم الذى انقضى بالنسبة لروبيرت بريسكوت يوم عمل شاق باشره بحماس وانما كان يوما كئيبا مملا . واحس انه يكاد يموت من التعب وهو يستبدل ثياب الخروج بثياب البيت المريحة ، وحشي غليونه وجذب مقعدا أمام نار المدفاة فى الدور الأول . كانت ليلة من تلك الليالى الباردة الكامدة وقد تسربلت المدينة فى ضباب كثيف يبشر بقدوم شتاء قارس وبرد زمهرير . وخيم صمت ثقيل على البيت الكبير الذى استأجره وفرشه بالمفروشات التى ورثها عن امه، وما كان لأى جراح يمضى قدما فى طريق الشهرة ان يحلم ببيت جميل كهذا .

الشهرة ؟ .. ابتسم بريسكوت ابتسامة مريرة ، فان هذه الشهرة قد خبت فجأة شيئا ما بعد نظر القضية . كان مرضاه لا يزالون كثيرون كما كانوا من قبل ، وكان عمله فى المستشفى فى ازدياد ولكنه كان يباشره بطريقة آلية ودون أى حماس وبدون اية رغبة فى الوصول الى مناصب اعلى ، فقد تحطم فيه شيء ، وأحس بانه حزين ووحيد ... وانه لا فائدة له .

كان يعرف ان أصدقاءه يتحدثون عنه وينسبون خموله الى خيبة الامل التى منى بها نتيجة شجب الحكومة لمشروع عيادته ، وانهم يلومونه كذلك لانه اضاع فرصته بكل غباء بذهابه وادلائه بشهادته فى قضية رولجريف المؤسفة . ولم يهتم حتى بأن يفسر لهم سبب اهتمامه هذا . وعندما كانت تأتيه دعوة للعشاء أو للمسرح كان يتعلل دائما بعذر ما لكي يرفض الدعوة . ولم يكن يجهل ما فى هذا المسلك المكدر من تاثير سيىء على مستقبله ولكنه كان يؤثر قضاء السهرة بمفرده بجوار النار .

ومضت ساعة وانطفأ غليونه وخبت نار المدفاة ولم يحاول أن يغذيها ، وفجأة صلصل جرس التليفون ولكنه لم يتحرك وبقى مكانه ظنا منه أن صديقه «لو» يحاول الاتصال به لاجتذابه الى سهرة للعب البريدج أو أن المستشفى تتصل به بسبب حالة عاجلة . غير انه حين رأى مدبرة بيته ، وكانت قد جاءت معه من مانشستر، تظهر بعتبة الباب وهى بادية الانفعال أدرك ان الأمر غير ذلك .

قالت : الدكتور سنكلير على التليفون يا دكتور .. انه يتكلم

من مانشستر . لم أصدق اذنى عندما سمعت صوته .

بدت دهشة خفيفة على وجه بريسكوت ، ونهض ومضى لكى يرد على صديقه القديم . وقال هذا الأخير .

ـ آلو بريسكوت ، انا سنكلير . يسرنى أن أسمع صوتك . اصغ الى ياصديقى . لابد من مجيئك الى مانشستر للاستشارة ، فانا بحاجة اليك . اننى اواجه حالة خطيرة ... طفلة فى الرابعة عشر من عمرها مهددة بالعمى ... ومن رايى أن هناك ورما عصبيا وسأقول لك المزيد عندما نلتقى .

كانت اول فكرة طرات على بال بريسكوت هى التسويف فانه فى حالته الراهنة لم يكن يشعر بأية رغبة فى هذا الانتقال . وقال :

ـ اخشى اننى لا أستطيع المجيء يا سنكلير ، فان كل شيء يضطرنى الى البقاء فى لندن ... مرضاى وعملى فى المستشفى .

صاح سنكلير : ولكن يجب أن تأتى حتما ، فان هذا من اختصاصك ، ومن رايى انه لابد من اجراء عملية ولا يستطيع غيرك اجراءها بنجاح . ثم ان الطفلة هى حفيدة صديقك الحميم بويلى ... وفى هذا وحده الكفاية لاقناعك .

تصلبت عضلات وجه بريسكوت عند ذكر أسم بويلى واجاب فى صوت جاف : آسف يا سنكلير . اتصل بجراح آخر غيرى فاننى لن اهتم بهذه الحالة بأى ثمن .

وبدون أن يترك لسنكلير الوقت لكى يرد اعاد السماعة مكانها .

وعاد الى مكتبه وراح يمشى فى الغرفة جيئة وذهابا فى انفعال ، فان بويلى وقد اصبح الآن عمدة مانشستر يستطيع أن يشترى أشياء كثيرة ولكنه لن يستطيع أبدا شراء خدمات صديق تخلى هو عنه بكل خسة ونذالة ، ولم يصفح بريسكوت عنه أبدا بسبب جبنه وانانيته . ولكن ها هو ذا الآن قد أصبح سيد الموقف ويا لها من فرصة سنحت له لكى ينتقم .

وصلصل التليفون للمرة الثانية فجز بريسكوت بأسنانه على طرف غليونه البارد ومضى لكى يرد . وأمسك السماعة وسمع صوت بويلى يقول :

ـ آلو ... هل تعرفنى يا بريسكوت ؟ .. انا صديقك الحميم بويلى .

وسكت بويلى كما لو كان ينتظر كلمة ترحيب وتشجيع ، ولما لم

يسمع شيئا من ذلك عاد يقول في صوت يتهدج بالقلق والانفعال :
ـ لا يمكن أن تعرف كيف افتقدتك طوال العام الماضي يا روبيرت . ولكن منذ ان أصبحت عمدة مانشستر ووقتي كله مشغول . قل لي يا روبيرت ... يقول سنكلير انك ترفض المجيء للاستشارة بخصوص حفيدتي روز . انها بحاجة اليك ، ويجب ان تاتي حتما ايها الصديق.
أجاب بريسكوت اخيرا : لا تعتمد علي يا بويلي .
قال بويلي في قلق واضح : روبيرت ! .. لا اظنك جادا في قولك هذا . اني أعرف أن لديك كل الأسباب التي تحملك على أن تحقد علي فأنا لم اكن كريما معك ، ولكن الماضي هو الماضي يا روبيرت وصديقك القديم تعيس جدا . ان الأمر يتعلق بروز ... حفيدتي روز .. وهذا المجنون سنكلير يزعم انها .. قد تصاب بالعمى .
وجد بويلي مشقة كبيرة في النطق بهذه الكلمات الأخيرة . كان يبدو من صوته أنه في شدة القلق بحيث أن بريسكوت رثي له ولكنه أقصى عنه أحساسه هذا وقال في جفاء :
ـ لماذا لا تلجأ الى جراح آخر ؟ هناك جراحون أكفاء غيري .
تأوه بويلي وقال متوسلا : لا اريد أحدا منهم وانما اريدك أنت . انني أعلم انك تنجز معجزات ولن أسمح لأحد غيرك بأن يمر يده على صغيرتي روز .. بحق السماء يا بريسكوت . انس الدور القذر الذي قمت به معك وتذكر شيئا واحدا وهو أن روز هي كل شيء بالنسبة لي ، فهي كل من أحب في الدنيا واذا حدث لها شيء فسوف أصاب بالجنون .
تردد بريسكوت ، وعلى الرغم من قراره الثابت لم يسعه الا أن ينحني أمام هذا النداء المؤثر . ولو ان بويلي استخدم حجة أخرى أو لو أنه عرض مثلا أن ينقده أتعابا ضخمة لرفض رفضا باتا ، وقال في أيجاز :
ـ حسنا . ساستقل القطار هذا المساء بالذات . قل للدكتور سنكلير ان ينتظرني في المحطة غدا صباحا .
اطلق بويلي صيحة صماء تدل على مدى فرحه ، ولكن قبل أن ينطق بكلمة يعبر بها عن شكره كان بريسكوت قد أنهى المكالمة .
وصعد الى غرفته واخذ حقيبته . أحس بالندم لاتخاذه هذا القرار ، ولكنه وعد ولابد له من الوفاء بوعده . وبعد ثلاث ساعات كان القطار السريع يمضي به الى مانشستر .

الفصل الرابع

وصل بريسكوت الى مانشستر فى الفجر ، وعلى الرغم من ان الوقت كان مبكرا جدا فقد وجد سنكلير ينتظره بسيارته . ولم يكن قد اطبق عينيه طوال الليل فاضطجع فى المقعد الوثير ، بعد هزات القطار ، وراى فى سرور شوارع مانشستر المالوفة تمر امامه . ولم يضيع سنكلير وقته ، فبعد كلمات الترحيب الاولى التى كان لابد منها طرق الموضوع مباشرة ووصف الداء الذى تشكو منه روز بوبلى .

وكان بيانه واضحا ودقيقا . واصغى بريسكوت اليه جامد الاسارير وهو يهز راسه من وقت لآخر . واختتم الدكتور سنكلير بيانه قائلا :

— ومن رايى ان هذه الاضطرابات مبعثها ورم فى المخ ، ولا ريب انه ورم ليفى يضغط على عصب الابصار ، وبصر روز ينخفض تدريجيا وفى انتظام . وبهذه الصورة ، واذا لم تتدخل سريعا فانها ستصبح ضريرة قبل وقت طويل . وبصفتى طبيبا لا استطيع الا ان اقول شيئا وهو ان اى علاج طبى لن يفيد وانه لابد من اجراء عملية لاستئصال الورم ، وعليك انت وحدك أن تقرر ذلك .

واردف سنكلير يقول وهو يهز راسه : ولكن الخوف ان هذه العملية نسبة نجاحها واحد فى الالف . اننا امام مازق حقيقى فاننا اذا لم نجر العملية فمصير روز الى العمى المؤكد واذا نحن اجريناها فقد نعرضها لموت مؤكد .

وعندما بلغا البيت اوقف بريسكوت الخادم ، وكان يتاهب للاسراع الى سيده لابلاغه بقدومهما ، وطلب منه ان يمضى بهما فورا الى جوار المريضة .

كانت روز بوبلى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وكانت مستلقاة ساهرة فى غرفتها المظلمة وفوق عينيها عصابة . وعلى الرغم من انها كانت تحاول اخفاء مشاعرها الا انه كان يبدو عليها الانفعال والترقب وكانت فريسة لقلق شديد . وادرك بريسكوت على الفور انها قضت ليلة فى انتظار قدومه وقراره ، واشفق عليها جدا ونزع العصابة من عينيها باصابع مترفقة وبدأ يسألها فى رفق .

وقام بفحص دقيق . كان كل شىء يدل على ان هناك ضغطا ، وكانت الاضطرابات التى تشكو منها روز تدل على مدى ما تعانيه .

وفحص قاع العين بالعدسة المضيئة فحصا دقيقا وتمكن من معرفة مركز الداء ولم يسعه عندئذ الا ان ينضم الى الدكتور سنكلير في تشخيصه للمرض وراى انه اذا أجرى العملية في هذا المكان من المخ فانه يسير قدما الى كارثة وانه اذا لم يجرها فان المريضة ستصاب حتما بالعمى الكامل في اقرب وقت ، ووجد نفسه كما قال سنكلير يواجه مأزقا حقيقيا .

ولم يبد على وجهها وهو يقوم بفحصه شيء من المعركة الداخلية التي تدور في رأسه ، وتمتم ببضع كلمات يطمئن بها الفتاة ، غير أن روز ، بتلك الحاسة السادسة التي يتمتع بها المصابون بالأمراض الخطيرة امسكت يده عندما هم بالابتعاد عنها وتوسلت قائلة :

ـ لا تدعني أصاب بالعمي يا دكتور ، فانني لا استطيع احتمال فكرة ان استغرق في الليل الى الابد ... اظن .. اظن انني اوثر الموت .

طيب بريسكوت خاطرها ببضع كلمات وربت على يدها طويلا حتى احس بانها هدأت واسترخت ، وعندئذ فقط خرج من الغرفة هو وسنكلير .

وكان ماتيو بويلي ينتظرهما في الطرقة فاسرع للقائهما ، وكان قد ارتدى منامته على عجل ، وكان زائغ البصر ، مشعث الشعر ، يرتجف لفرط القلق . وقال يسأل بريسكوت :

ـ حسنا . ما رأيك ؟ .

وكان بريسكوت يتوقع أن يراه مضطربا وهلوعا طبعا ، ولكنه أمام مثل هذا الرجل الذي يعيش محنة شديدة لم يسعه الا ان يحول عينيه ، فلم يكن مات بويلي الا شبح . وقال في صوت أجش :

ـ يتعذر على انَ ارد عليك الآن ، ولا أستطيع الا ان أؤيد الدكتور سنكلير في تشخيصه . ان بصر الفتاة ينخفض تدريجيا ولا نستطيع شيئا من أجلها ، هذا باستبعاد العملية طبعا ، لأنها شديدة الخطر .

عاد بويلي يقول : العملية ؟ .. ولكن هذا هو ما اريده منك بالذات .

رفع بريسكوت يده دليلا على عجزه وقال : لا أستطيع تحقيق معجزات ، ولا أستطيع اجراء عملية تدل على كل الاحتمالات على فشلها .

قال بويلي متوسلا : هل يجب ان اركع امامك ياروبيرت ؟ .
لا اريد أن تغدو حفيدتي ضريرة ، وهي أيضا لا تريد ذلك . اننا على

استعداد ، نحن الاثنان ، لأن نجرب حظنا ، وكل ما أطلبه منك ياروبيرت هو ان تمنحنا هذه الفرصة .

القى بريسكوت اليه نظرة حادة ثم حول عينيه عنه ، فان هلع صديقه واضطرابه بهذه الصورة العجيبة وخضوعه المؤثر ازالوا منه كل شحناء وبغضاء ودفعوه رغم كل شيء الى القيام بهذه المغامرة الخطيرة وقال :

ــ ساجرى العملية لحفيدتك ولكنني لا استطيع أن اضمن لك نتيجتها . ولا وقت لدينا ... ساجرى العملية اليوم بالذات ، بعد ان استريح قليلا . ولكن من المحال اجراؤها هنا طبعا . يجب نقلها اما الى عيادة خاصة او الى غرفة خاصة بمستشفى هيبرتون ، والآن اسمح لى أن أمضى الى فندقى لكى أنام بضع ساعات .

كان بويلى لا يزال يحدق فيه فى ابتهال وتوسل ، ولم يثقل عليه عندئذ باى احتجاج أو اى شكر وانما قال :

ــ كنت اعرف انني استطيع الاعتماد عليك يا بريسكوت . ولكن لا داعى لذهابك الى الفندق . ساعد لك غرفة هنا اذا اردت .

انحنى بريسكوت مرة أخرى اذ لم يشأ ان يجرح شعور هذا الرجل الذى يتذلل أمامه . ولكن ما ان ضمته احدى غرف النوم المريحة فى القصر الذى أقسم الا يضع فيه قدميه حتى ساورته الشكوك فيما يتعلق بحكمة القرار الذى اتخذه ، فانه بادلائه الشهادة فى قضية رولجريف عرض سمعته للشبهة ، والفشل فى الظروف الراهنة سيكون له أسوأ تاثير . غير انه أقصى عنه شكوكه وركز فكره فى الاستعدادات التى يجب أن يتخذها . كان يمكنه الاعتماد على الدكتور سنكلير فى كل ما يتعلق بنقل روز الى غرفة العمليات . ولكن كانت هناك مسألة الأدوات . ورفع سماعة التليفون واملى برقية يطلب فيها ارسال حقيبته الطبية بالقطار القادم . ثم ، وبعد التروى والتفكير ارسل برقية أخرى يرجو فيها مساعدته الرسمية فى غرفة العمل أن تستقل نفس القطار ، وعندئذ ، عندئذ فقط ومضت برأسه فكرة أضاءت الضباب الذى يحاول الفكاك منه .

وفكر لحظة أخرى ثم تألق وجهه ... كان كلما فكر فى الأمر كلما أحس بدافع يدفعه الى أن يمضى فيما فكر فيه ... لقد تعرضت آن فى هذا البيت بالذات الى أسوأ الاهانات والى ظلم شنيع ، وهو

يحرص الآن على ان يرى بويلى مهزوما بدوره وان تلعب آن دورها فى هذه المحاولة اليائسة ، فهذا هو حقها المؤكد .

واستقر منه العزم فجأة فتناول السماعة والغى البرقية الثانية وأرسل الى آن برقية مطولة يتوسل فيها ان تترك كل شيء وان تخف لمساعدته فورا في مانشستر لاجراء عملية خطيرة .

وعندما خلع سترته وحذاءه واستلقى على الفراش لكي يستجم بضع ساعات ، كان فى أشد الحاجة اليها . كان يتلاعب على وجهه ظل ابتسامة .

الفصل الخامس

استيقظ بريسكوت في الساعة الرابعة من بعد الظهر ، واحس وهو يفتح عينيه بانه قد استوفى راحته وانه مدرك بما ينتظره ولكنه كان يشعر بالهدوء بعد أن رقد ست ساعات . ورأى انه جائع فدق الجرس وأمر الخادم أن يعد له وجبة خفيفة من اضلاع الضأن والخبز المقدد ، ثم حلق ذقنه واغتسل . وعندما جيء اليه بالطعام كان قد ارتدى ثيابه وتأهب للخروج . ووجد فوق الصينية رسالة من سنكلير يقول فيها :

« وصلت مس لى وحقيبة الأدوات » .

« اجراء العملية فى الساعة السادسة بمستشفى هيبرتون » .

لم يعرف بريسكوت ، منــذ وقت طويل مثل هذه اللحظة من الغبطة والسرور . واحس بانفعال شديد . لم يعترف لنفسه بأن حبه لآن هو الذى دفعه لانتهاز هذه الفرصة لكي يراها . وانما قال لنفسه انها ستكون بجواره وانهـا ستساعده وتشد من ازره بحضورها فحسب ، وأحس بانه اشبه بالملحن الذى وجد الوحي والالهام فجـأة .

وفى الساعة الخامسة والنصف اقبل الخادم يقول له ان العربة فى انتظـاره ، فدخن سيجارة أخيرة ثم هبط السلم واستقل السيارة ، وفى السادسة الا خمس دقائق كان يدخل غرفة العمليات .

كانت واقفة فى الغرفة ، ولم يلتفت اليها ، ولم تتغير سمات وجهه ولكنه أحس بوجودها ، وعندما مدت له يدها بمعطفه بعد أن

فسل يديه وذراميه اكتفى بأن قال فى صوت خافت : أشكرك لمجيئك .
لم تنطق آن ، فقد كانت الأقوال غير مجدية فى مثل هذه اللحظة ، ثم انها اعتادت أن تكون شحيحة بالكلمات فى هذا العرين حيث لا اهمية الا للأعمال فحسب .
ولبس الجميع أقنعتهم ، وباشارة من بريسكوت جيء بالمريضة ، وكانت تحت تأثير المخدر ، فوق العربة المتنقلة ، وبثلاث حركات دقيقة ومتواقتة كانت روز قد نقلت فوق مائدة العمليات ، وكان راسها الحليق والمصبوغ باليود متالقا .
وانتقلت عينا بريسكوت ، على التوالى ، الى الدكتور سنكلير ، وكان يقف فى الناحية الأخرى من مائدة العمليات مرتديا معطفه الابيض ، والى طبيب التخدير الواقف بجوار أجهزته والى الممرضات الاربع والى آن . ثم ركز ذهنه ووضع اصبعه على الراس الآدمية التى تنبض بالحياة وشد الجلد ثم شقه حتى العظام وبسط يده فوضعت آن فيها رفادة ثم الملاقط لكى يسد الشرايين ، فرفادة اخرى واخيرا منقب العظام . وانحنى عندئذ فوق القحف .
ما أعجب هذا الاحساس الذى يحس به المرء وهو يرى أمامه المخ المتورد الذى ينبض بالحياة ويظهر تماما تحت الغشاء الشفاف ، هذا المخ المعقد الدقيق مركز كل الأفكار . .مخ روز بويلى المهددة بفقد البصر . . . شق بريسكوت الغشاء بمبضعه واستطاعت آن وهى منحنية نحوه أن ترى التلافيف المخية الملساء والملتوية فى نفس الوقت ، وتملكها نوع من الذعر فقد خيل لها أن تنظر الى مركز الروح نفسه .
وفى وسط هذا العنصر الحيوى سيجرى المبضع ويقطع ويستأصل الورم ويفصل بين النسيج المصاب والنسيج السليم ، وعلى بريسكوت أن يقوم وحده بكل ذلك .
كانت آن مع بريسكوت بكل جوارحها ، وكان هذا منحنيا يقوم بعمله بهدوء وبدون أى تسرع . ومرت ساعة وهو لم يصل بعد الى أساس الورم نفسه . ولم يكن فى مقدوره أن يعجل بالعمل الدقيق الذى يستند الى البحث عن كل تشعبات الورم الخبيث ، فقد كانت هذه العملية تقتضى منه صبرا جميلا ومهارة فائقة . ومضت نحو ثلاث ساعات وبدأ بريسكوت يحس بالتعب ، ولاحظت آن أن جبينه أخذ يتفصد بالعرق ، وكان الجو بالغرفة شديد الحر

واحست هي نفسها بالدم يتصاعد الى صدغيها ، وودت لو أن تهمس في اذنه بكلمة تشجيع وان تطمئنه بايمانها به .

ومضت الدقائق في بطء ، واصابعه تعمل في بطء هي الأخرى ، تفتش في المادة السنجابية في راس روز بويلي . وفجأة لمحت آن على وجه الدكتور سنكلير موجة من القلق وانحنى لكي يرى عن كثب ، وادركت انهما يواجهان تعقيدا غير متوقع ، وتوقف بريسكوت عن البحث ورفع رأسه المقنع ، وتشاور الرجلان بالنظر . قرات في عيني سنكلير فزعا شديدا وتحذيرا صامتا ، وفسرت بغريزتها هذه النظرة . كان سنكلير يقول : لا تذهب بعيدا ، ان الورم في مكان سحيق ، أبعد مما كنـــا نظن . وهو يتمركز في وسط الأعصاب الحيوية . اصرف النظر فانك اذا ذهبت الى ابعــد من هذا فهــو الموت حتما .

ولكن نظرة بريسكوت ظلت ثابتة واستطاعت أن تفسر نظرته هذه بأنه يقول « اذا أنا صرفت النظر فانها ستفقدو عمياء ، قضي الامر ولابد من الاستمرار » .

كان تبادل هذه النظرات على جانب كبير من الأهمية . ولم يدم الأمر أكثر من لحظات وفيما عدا آن لم يلحظها أحد ، كما أن احدا غيرها لم يلحظ نظرة الرعب التي ارتسمت على وجه سنكلير عندما قال بريسكوت وهو يمد يده : المثقب .

اعطته آن الأداة المطلوبة ، وكان بريسكوت قد قرر توسيع فتحة الراس . واحست آن بقلبها يتوقف عن الحركة . وما كان سنكلير ليتملكه مثل هذا الذعر لو أن بريسكوت لم يقدم على مجازفة خطيرة . وفجأة تكشف لها كل شيء وادركت لماذا هرعت لندائه ولاى سبب كانت تتمنى من سويداء قلبها ان ينجح . كلا ، لم يكن ذلك حبا في روز بويلي فحسب أو حبــا لمهنتها ، بل كان أكثر من ذلك ، فان الرابطة المهنية المزعومة التي تربطها ببريسكوت ذابت كما يذوب الثلج تحت اشعة الشمس . واذ تكشف لها كل شيء حقدت على نفسها اذ انخدعت هكذا ورفضت بكل جبن أن ترى ما في نفسها بوضوح واعترفت أخيرا بأنها تحبه .

غمرها الحنان عندئذ واحست بكيانها كله يثب نحوه . واذ رأته غارقا في عمله ومتوترا راحت تبتهل بكل روحها لكي تتكلل كل مجهوداته بالنجاح ... كلا .. لا يجب .. لا يمكن ان يفشل .

ووقفت الى جواره جامدة لا تتحرك . وبينما كانت تناوله الأدوات

الضرورية ، الأداة بعد الأخرى حاولت أن تنفخ فيه هذا الايمان وآن تبسط عليه ، كالملاك الحارس ، جناحا واقيا .
هل أحس بهذا الفيض من الحنان وهذه الطفرة من الحب ، وهذا التيار الذي ينساب منها اليه . لم ينظر اليها ولم يترك شيئا يظهر عليه ولكنه زاول عمله بحماس اكثر عن ذى قبل ، وراح سنكلير يتابعه وعلى وجهه امارات القلق الشديد ، وتنهد أخيرا فى ارتياح وهو يراه ينتزع بكل دقة ومهارة كتلة ليفية متعددة الشعب من أعمق اعماق الجرح ... آخر تشعبات الورم .
ولقد كان في مقدور آن ان تصرخ فرحا وارتياحا الآن بعد أن مرت اللحظة الحرجة . وراح بريسكوت يعمل مسرعا فشد الغشاء وخاطه ثم اطبق فتحة الراس أخيرا وآن تستحثه فيما بينها وبين نفسها فى صمت لكى يفرغ بأسرع ما يمكن ، فان مثل هذه العملية الطويلة كانت كفيلة بأن ترهق روز بويلى وتبدد قواها الاخيرة . ولم تجرؤ على النظر الى الوداج خشية أن تراه يتوقف . وفجأة انتهى كل شيء وقطع بريسكوت طرف الوتر ونقلت روز الى غرفة خاصة بعد أن أحيطت ببضعة أكياس مملوءة بالماء الساخن ودثرت بالأغطية .
واضطرت آن الى بذل كل قواها لكى تمضى الى الحوض وتعقم ادوات الجراحة . وبقى بريسكوت منحنيا فوق المائدة كما لو أنه لم يدرك انه يستطيع ان يسترخى الآن ، ولم يعتدل الا عندما القى سنكلير يده عليه فأطلق زفرة عميقة ، وتبعه الى غرفة الملابس .
وقال سنكلير : هناك مواضيع لا يمكن للمرء أن يطرقها يا بريسكوت ومنها هذا الموضوع بالذات . لن اهنئك ، فان الكلمات لتعجز عن التعبير بما أشعر به ولكن العملية التي أجريتها تحت عينى ما كنت لأصدق ابدا ان اشهدها ذات يوم . انك كنت مدهشا وقد انجزت معجزة حقا .
رفع بريسكوت عينيه الى الطبيب الشيخ وكأنه آت من بعيد وقال : انا نفسي لا ادرى كيف استطعت هذا .
ولم يتبادل الطبيبان اية كلمة اخرى . وبعد أن اغتسل كل منهما وجفف ذراعيه ويديه جيء لهما بالقهـــوة الساخنة . وقال سنكلير فى مرح : كان يجب أن نحتسى الشمبانيا يا بريسكوت .
قال بريسكوت وهو لا يزال شاردا : سنترك هذا الأمر لبويلى .
وما كاد ينتهى من قوله هذا حتى دخل بويلى ، واذا كان عذاب الانتظار يبدو فى وجهه فقد استرد شيئا من لونه وفقد النظرة الزائغة

التي كانت تبدو في عينيه منذ ساعات . وتقدم مترددا ، يومض عينيه مرح كبير وقال :

ـ روبيرت ... ماذا أستطيع أن أقول لك . عندما لجأت أنت الى تصرفت معك كالوغد وعندما طلبت انا مساعدتك تصرفت معي كالملك . انك أنقذت حفيدتي روز وأعدت اليها البصر . انني أحب هذه الطفلة أكثر من نفسي فكيف أشكرك .

تمتم بريسكوت : لا داعي .

ـ اسمح لي اذن ان أقدم لك هذا .

أجفل بريسكوت وهو يرى الشيك الذي يعطيه بويلي اياه وقال :

ـ لا أريد نقودك يا بويلي . انتظر حتى أرسل لك فاتورة أتعابي .

أجاب بويلي في ذلة : هذه ليست أتعابا . انما هي ما سبق أن وعدتك به منذ وقت طويل ، وسيسمح لك هذا المبلغ بتحقيق مشروعك .

أخذ بريسكوت الشيك آليا ، وألقي نظرة على المبلغ وامتقع .. فقد كان الشيك مقدرا لانشاء عيادة لجراحة الاعصاب بمبلغ خمسين ألف جنيه .

وعاد بويلي يقول : ولعلك لا تجد مانعا من أن تنشيء العيادة باسم روز ، ومهما يكن فهي ستكون عيادتك أنت ، وبمقدورك أن تبنيها في أي مكان تريد ، هنا أو في لندن أو في اي مكان آخر ، وسوف أجد الأموال اللازمة لتشغيلها .

اضطر بريسكوت أن يأتي بجهد كبير لكي يسيطر على انفعاله ، وقال أخيرا : هذا كرم كبير منك .. هذا عظيم .. انني أقبل بسرور وأشكرك من سويداء القلب .

قال بويلي وقد استعاد شيئا من بشاشته : لا داعي لذلك كما قلت انت منذ لحظات يا روبيرت . كل ما أطلبه منك هو صداقتك .

وكان رد بريسكوت أن بسط يده لصديقه القديم . وفي هذه اللحظة فتح الباب وبدت آن على عتبته . كانت تظن أن غرفة الملابس شاغرة ، ولكنها ما أن رأت بويلي حتى ارتدت . واسرع هذا الأخير فاوقفها باشارة من يديه وقال :

ـ لا ترحلي أيتها العزيزة . كنت شديد الحرص على أن اكلمك انت ايضا .

وتردد لحظة وقد اغرورقت عيناه بالدموع ثم استطرد : بما ان

المصافحة باليد اكبر دليل على الصداقة فارجو أن تفكري وتصافحي شيئا شقيا أخجله المسلك الذي سلكه معك .

الفصل السادس

تاهبت آن للرحيل بعد نصف ساعة . كانت قد فرغت من عملها ووضعت ادوات بريسكوت في الحقيبة الخاصة بها ثم ودعت رئيسة الممرضات وزميلاتها في مستشفى هيبرتون . وكان بويلي قد عاد الى بيته ولا شك انه اصطحب بريسكوت معه . وكان سنكلير قد غادر فراش روز وقال لها ان كل شيء على ما يرام من هذه الناحية .

ووقفت آن على عتبة المستشفى تنتظر قدوم سيارة الأجرة التي مضى موليجان ، صديقهـا القديم لـكي يأتي بها ، فقد كانت تأمل اللحاق بقطار الساعة العاشرة والربع الذي يصل الى لندن بعد الثانية صباحا بقليل . احست ، بعد ساعات التوتر والانفعال الشديد التي عاشتها بالوحدة والارهاق . وقد سبب لهـــا اكتشافها بانها تحب بريسكوت الفرح والـكدر في نفس الوقت . وانهار عزمهـا وقرارها عند قدميها أو هذا ما أحست به على الأقل في حالتها الراهنة فقد قاومت نفسها مدة طويلة بحيث خيل لها الآن وهي تستسلم لعواطفها انها تخون مهنتها ومثلها العليا .

ولـكن على الرغم من عذابها من الانفعالات المتناقضة فقد كانت هناك عاطفة واحدة تسيطر على كل العواطف الأخرى ، وهي الحب الذي تشعر به لبريسكوت .

ووقفت سيارة الأجرة أمام باب المستشفى ، وهمت بأن تركبها عندما سمعت وقع خطوات تجري خلفها وشخصا يناديها باسمها . وعرفت صوت بريسكوت فالتفتت ورأته يهرع نحوها ، وقال وهو يلهث :

— اين كنت ؟ . . انني ابحث عنك في كل مكان منذ عشرين دقيقة .

— ذهبت لرؤية بعض زميلاتي وودعت رئيسة الممرضات .

— وكنت تهمين بالرحيل من غير أن تتركي لي الفرصة لكي اشكرك .

اطرقت آن وقالت : انني سعدت بقدومي وسعدت برؤية مستشفى هيبرتون العتيق ، ثم انني احب الصغيرة روز كثيرا .

— ولكن هذا جنون . هناك اشياء كثيرة وددت ان اتحدث معك

فيها ... عن عملك وعملي ... انني تحدثت مع بوبلي ، وهو مهتم بحملتك ويريد مساعدتك .

وامسك لكي يلقي نظرة الى ساعته ثم قال : اي قطار تستقلين .

ـ الاكسبريس الساعة العاشرة والربع .

قال بريسكوت على الفور وقد استقر عزمه : سآتي معك . كنت اريد أن أستقل القطار السريع الذي ينطلق في منتصف الليل . ولكن لا بأس بالاكسبريس ، فهو يناسبني هو الآخر .

وبدون ان يترك لها الوقت لأي احتجاج طلب من الحارس ان يمضي لاحضار حقيبته وأن يضعها في سيارة الأجرة . وبعد بضع دقائق كانا في طريقهما معا الى المحطة . ولم يكن هناك وقت للحديث . واذ بلغا المحطة نقد بريسكوت السائق أجره ثم مضى بها الى مقصورة عربة شاغرة باحدى عربات الدرجة الأولى وما كاد يفصل حتى صفرت القاطرة وانطلق القطار .

وقال بريسكوت وهو يضع الحقيبتين في الشبكة : لقد وصلنا في آخر دقيقة ، ولكن هكذا يفعل ذوو المشاغل الكثيرة .

هزت آن راسها وهي تنظر في ضيق الى المقاعد الجلدية الوثيرة وقالت أخيرا في ارتباك .

ـ ولكن معي تذكرة درجة ثالثة .

أضاء وجه بريسكوت ولم يسعه الا ان يبتسم وهو يقول : أظن ان هذه صعوبة لن نجد مشقة كبيرة في تذليلها ، فقد وعدني ماتيو بوبلي ، ذلك العجوز الشقي أن يعوضك بشيء نظير انتقالك .

وجلس فوق المقعد المواجه لآن واخرج من حافظته شيك بوبلي وناولها اياه وهو يقول : القي نظرة على هذا ... انه قصاصة من الورق كما ترين ، ولكن ستدركين أهميتها في أستبدالها بقوالب الطوب والاسمنت لبناء العمارة .

وراحت عينا آن تلمعان وتوردت وجنتاها ، ونسيت قلقها لحظة واستسلمت لفرصتها برؤية آمال بريسكوت تتحقق ، وصاحت :

ـ أخيرا ! ..

وقال بريسكوت : نعم ، أخيرا .

ولزما الصمت لحظة وازدادت سرعة القطار المنطلق في جوف الليل ، وقال بريسكوت بلهجة حازمة : والآن ، يجب أن نتحدث عن العمل . ولكن ستهتم قبل ذلك بالطعام ، فانني لم اتناول بعد الفراغ من العملية غير فنجان من القهوة ، ولا اظن انك حذوت حذوي ، وحيث

ان الوقت قد فات لكي نمضي الى عربة الأكل فاننا نستطيع أن نطلب بعض الشطائر والشراب .

وقرع الجرس وطلب من الجرسون وجبة خفيفة . ولم تكن آن تشعر بالجوع ، ولكنها في انفعالها ، واجهت في سرور المهلة التى سنحت لها ، لفرط خوفها من ان تستسلم لعواطفها ، وتكشف له في لحظة ضعف ما يمليه عليها كبرياؤها باخفائه .

وانتظر بريسكوت حتى أكلت وشبعت قبل أن يستطرد قائلا :

ـ لا أستطيع ان اخفي عنك مدى سروري وأنا أرى مشروعي في طريقه الى ان يتحقق بعد كل الصعاب والعراقيل التى استهدفت لها ، ولكن هذا ليس الا جانبا واحدا من المشكلة فان العمل الذي تقومين به له أهميته هو الآخر . وقد تحدثت عنه طويلا مع بويلي ، وهو يرى انه يدين لك بتعويض ويريد أن يفعل شيئا من أجلك أنت أيضا .

وانحنى الى الأمام وواصل حديثه في اهتمام فقال : وستجدين غدا صباحا في البريد مساهمة سخية لصالح الممرضات ، ولكن المسألة المالية ليست كل شيء ، فان صديقنا مات يسعى الى مقعد في مجلس العموم وفى نيته التقدم في الانتخابات المقبلة ، وقد وعدنى اذا فاز ، وهذا أمر شبه مؤكد ، أن يثير الموضوع في المجلس ويلفت نظر الحكومة الى الأوضاع المؤسفة للممرضات ، واذا نظرنا الى الحملة التى بدأت فمن المؤكد انك لن تكوني بحاجة الى مساعدته ولا الى مساعدتى ، ولكننى أحرص على ان أقول لك انني أضع نفسي تحت تصرفك .

بذلت آن كل جهدها لكي تتغلب على نبضات قلبها وعلى أن تتماسك بما فيه الكفاية لكي ترد عليه . وتمتمت تقول :

ـ انك كنت كريما جدا معي .

سألها بريسكوت وعلى شفتيه ابتسامة حزينة : ولماذا لا أكون ؟ انك تعرفين انني أحبك ، ولا أستطيع ان أخفي عنك ذلك ، وما دمت لا أستطيع ان أكون لك شيئا أكثر فاسمحي لى أن أكون صديقك على الأقل .

كانت آن تتعذب حقا . وعاد بريسكوت يقول من غير أن ينظر اليها:

ـ هل تتذكرين لقاءاتنا الأولى ، وأول غداء تناولناه معا بعد حادث الاوتوبيس . ما كان اغبانى عندئذ ! لقد كنت من الغباء بحيث أردت أن أخفي عن نفسي بكل ثمن ، اننا لم نكن طبيبا وممرضة فحسب وانما

رجل وامرأة . كنت استحق العقاب من أجل هذا وقد عوقبت أقسى عقاب .

كان يبدو أنه يجد لذة مريرة في أن يجرح نفسه وأن يقلل من شأنه أمام عيني آن وقال في أسى : وفي اليوم الذى بحثت لك فيه بحبى فجأة ، وفي وقت غير مناسب ، في برنجوير ، في ذلك اليوم الذى صددتني فيه وهربت تحت المطر كنت قد أعددت كل الحجج لكي أترافع في قضيتي وكنت أنوى أن أثبت لك كأستاذ شيخ متحذلق أننا نستطيع أن نقوم بعمل طيب معا إذا تزوجنا ، وأننا إذا وحدنا جهودنا فان كلا منا يستطيع مساعدة الآخر ، وان عيادتي وحملتك يمكن أن يكونا هدفا لحياتنا المشتركة ، وأننا سوف نستفيد معا من ارتباطنا .

واذ بلغ هذا الحد تجهم وجهه وتنهد ثم قال : ولم أنس غير شيء واحد .. شيء ضروري ، وكنت من الغرور والكبرياء بحيث أبيت أن أفكر فيه ، وهو انك لا تحبينني وانك لن تحبيني أبدا .

اغرورقت عيناها بالدموع التي ظلت تكبحها حتى هذه اللحظة وازدادت نبضات قلبها وهي لا تزال تقاوم مشاعرها ولكن ، فجأة ، سطع ضوء في الضباب الذى كانت تتخبط فيه . لسوف تتكلم هذه المرة .. لن تترك هذه الفرصة التي سنحت لها تفلت منها ، وتذكر في انفعال ان جو قال لها في لقائهما الأخير انه لابد لها من أن تدوس كبرياءها فأخذت شجاعتها بين يديها وقالت في صوت متهدج :

ــ أنا التي خدعت نفسي وليس أنت .

نظر بريسكوت وهو يخشى أن يكون قد أساء الفهم ، وفجأة تلاشى تجهمه ، لم تكن الكلمات التي نطقت بها آن كافية لكي تزيح عن قلبه الحمل الذى يثقل عليه ، ولكنه قرأ في عينيها ما كان يرجو قراءته ذات يوم . وانحنى الى الأمام وأخذ يدها وقال :

ــ آن ... هل صحيح انك تحبينني قليلا ؟ .

وفي اللحظة التالية كان يجلس بجوارها ، وكانت تخفي رأسها في صدره ، وقالت خلال دموعها :

ــ منذ أسابيع وأنا أتعذب أشد عذاب . انني أحببتك منذ البداية ، ولكنني لم أشأ أن أعترف بذلك ، فقد كان يمنعني شيء .

ــ غبطي وكبريائي ؟ .

قالت آن وهي تضحك وتبكي في آن واحد : كلا ، بل غبطي أنا وكبريائي .

أخذ وجهها الصغير الذى تبلله الدموع بين يديه الكبيرتين وراح يغطيه بقبلاته ، ومن قلب آن الرضى ارتفع أخيرا لحن من الفرح .
واستمر القطار فى انطلاقه فى جوف الليل يحملهما معه الى مستقبل يتفتح مزدهرا أمامهما .

« تمت »

روايات الهلال تقدم :

مفارقات الحياة

بقلم
توماس هاردى

ترجمة
عثمـــان نويه

تصدر ١٥ مارس ١٩٨٠ * الثمن ٢٠ قرشا



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

٢٠ قرشـــا



هذه الرواية

تروي رواية « الشقيقتان » التى نقدمها اليوم الى القراء قصة اختين تشـــتغلان بالتمريض ، الكبرى واسمها آن لى حصلت اخيرا على دبلوم التمريض وتقدس هـذه المهنة وتتفانى فى عملها وتكرس حياتها فى نفس الوقت لتحسين اوضاع المرضات .

وتتسبب اختها لوسى باهمالها وحبهـا لنفسها فى موت طفل كانت تعنى به . ولما لم تكن قد حصلت على دبلوم التمريض بعد فقد خشيت اختها ان يضيع مستقبلها فتحملت مســئولية الطفل وكان جزاؤها الطرد من المستشفى التى تعمل به .

وتلتحق آن بمستشفى آخر تظهر فيه مقدرتها على الفور خصوصا بعد العمليـة التى اجريت لمـــات بويلى ، المليونير المشهور ، ولكنهـــا لا تلبث ان تطرد من المستشفى من جديد وبسبب مات بويلى بالذات .

وتتقاذفها ظروف الحياة واحداثها بمرها وحلوها وتتسبب اختها للمرة الثانية فى تغيير مجرى حياتها ولكن الى مستقبل اقل قسوة واكثر سعادة هذه المرة .

Exclusive
For
www.ibtesama.com